الاندلس عام 360 هـ (5) وابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (6) .

ويظهر ان هذه العلوم بدأت تزدهر في المغرب الاقصى منذ هذا العصر حيث **كانت جامعة القرويين وملحقها جامع الاندلس بفاس تدرسان الطب ضمن** الكتب المقررة وقد اشار لوكلير الى هذا الازدهار (7) ولاحظ (8) ان **المغرب اشد اقطار الاسلام عمقا من الناحية العلمية** وهو يقصد المغارب الثلاثة وخاصة افريقية ، وقد لاحظ القفطي (9) ان المعز الفاطمي نقل معه الى مصر كثيرا من الاطباء المغاربة واشتهر تسلطين التونسي آنذاك كطبيب ماهر وأسست بفاس مدرسة طبية منذ القرن الرابع (10) وكان القرنان الخامس والسادس الهجريان ابرز العصور العلمية في الاندلس المسلمة رغم الاضطراب الذي تمخض عن تدخل المرابطين ثم الموحدين وذلك بفضل العناية التي اولاها هؤلاء الخلفاء للعلم والعلماء، اذيمكن القول ـ والدكتور لوكلير يؤكد هذا (ج 2 ص 72) **بان الفكر لم يسبق له ان تحرر كما وقع في هذا العصر** وشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد (الذي هو اعظم فيلسوف انجبته الاندلس) وبني زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون واعظمهم هو ابو مروان عبد الملك الذي يعتبره بعض المؤرخين اكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية ، يضاف الى هؤلاء الغافقي (11) وابو الصلت امية ابن عبد العزيز الدائي اللذان الفا في تاريخ الطب الطبيعي وابن العوام (12) مؤلف « **كتاب الفلاحة** » **الذي لا يوجد له نظير في الادب العربي لما** يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة ثمينة (13) بل هو اعظم ما انتجه ، لا العرب وحدهم، بل حتى العصور القديمة (ص 110) .

واصبحت هذه المصنفات اساسا دراسيا لرجال القرن المقبل أمثال ابن البيطار (14) المالقي واستاذه ابي العباس النبطي وهما اعظم العلماء النباتيين العرب الذين وصلتنا مؤلفاتهم ولم ينجب الشرق في هذه الاثناء من أعاظم العلماء سوى فخر الدين الرازي **فاستطاع الاندلس بفضل شبكة علمائه ان يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الاسلامي (15) .**

---

5) يوجد الجزء الاول من هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بالرباط وكذلك مختصر كتاب « الاعتماد » في الادوية المفردة لابن الجزار ومختصر الطب لابن حبيب المرداسي .

6) (النفح ج 1 ص 444) والزهراوي هو صاحب (التعريف لمن عجز عن التاليف) وهم اعظم جراح عربي (لوكلير ـ الطب العربي ج 1 ص 334) اعتمده مؤلفو الجراحة في العصور الوسطى وهو اول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في الجراحة ويوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط جزء من هذا الكتاب ((عدد 1427 د) الذي طبع بالهند وقد مات بعد الاربعمائة كما عند حاجي خليفة والحسن الوزان الذي ارخ وفاته بـ 404 هـ (موافق 1013 م) ووهم كازيري Casiri الذي اكد في المجلد الاول من فهرسته (ص 137) انه عام 500 هـ (لوكلير ج 1 ص 437) .

7) نفس المصدر (ج 1 ص 334) .

8) (ج 1 ص 407) .

9) في (اخبار العلماء بأخبار الحكماء) ص 75 .

10) (شهيرات المغرب) للكانوني وهو مخطوط نقل عن كتاب حول (الاسنان بالمغرب الاقصى) لعالم فرنسي لم اتبين اسمه بوضوح في المخطوط المذكور .

11) هو ابو جعفر احمد بن محمد وهو غير محمد بن تسوم الغافقي صاحب « المرشد » في طب العيون ويوجد « كتاب الاعشاب » للغافقي في دار الآثار العربية وهو يحتوي على 380 رسما ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات متقنة الرسم .

12) هو ابو زكرياء يحيى بن محمد الذي لا نعرفه الا من خلال مصنفاته ويزعم كازيري انه عاش في القرن السادس الهجري .

13) (لوكلير ج 2 ص 11) .

14) ابن البيطار توفي عام 646 اكل عقارا قاتلا فمات من ساعته (نفح الطيب ج 2 ص 874) .

15) (لوكلير ج 2 ص 72) .

وبفضل الانبعاث العربي في الاندلس (16) صارت اوربا تنفض عنها اردية الركود واصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد ريموند Raimonde اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني واذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية ، ثم ورد جيرار دوكريمون على طليطلة حيث استقر نحوا من نصف قرن نقل خلاله من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا او افريقيا معربا .

وقد بدأت حركة الترجمة في اوربيا منذ القرن الرابع فهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد اسس مدرسة سالرنة وهي اول مدرسة من نوعها في اوربا وكانت مبعث انوار الطب الحديث في العالم الغربي ، ولد حوالي عام 400 بتونس وحمل مخطوطات طبية الى سالرنة Salerne بقيت غذاء اوربا عدة قرون وترجم الى اللاتينية اهم كتب الطب العربي منها « زاد المسافر » لابن الجزار وكتب للرازي واسحق ابن سليمان الاسرائيلي والف نحوا من 24 كتابا في الطب منها قانون الطب في 12 مجلدا و « فياتيكوم » في الطب العام في سبعة اجزاء ومات عام 475 .

وكان القرن السابع في الشرق عصر ازدهار ثم انهيار نسبي للعلوم كما كان قبله القرن السادس في الاندلس ولكن لم يكد يمضي العقد الاول من القرن السابع (17) حتى بدأ صرح العلم ينهار وطمست الاضطرابات ذلك الرواء الذي تالق نجمه منذ عهد الناصر الاموي طوال ثلاثة قرون .

نعم في العهد الذي كانت الاندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت — كما يقول لوكلير (ج 2 ص 340) جماعة من الاطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب — فافاد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

ويظهر ان علوم الحكمة تقلص ظلها مؤقتا في عهد المنصور عندما حورب الفلاسفة حتى اضطر ابن رشد الى التخلي عن الخوض في ذلك ، والمنصور هذا وان كان لم يقصد اضطهاد رجال الطب حيث اناط بابن زهر نفسه مأمورية تعقب الفلاسفة ثقة به الا انه عهد الى تدوين الاحاديث وترتيب الجرايات لحفظها فاتجه الناس اليها انجذابا للمادة فقل المعتنون بالحكمة والطب ، على ان اعتقال المنصور لابن رشد وابى جعفر الذهبي زاد الناس ريبة في مصير الفلاسفة والاطباء ولعل المنصور شعر بخطورة هذه التدابير فاعاد الحظوة الى الرجلين وكلف ابا جعفر بالسهر على مصالح الاطباء وطلبة الطب ، وتلك من المنصور محاولة لا بأس بها لتنظيم المهنة الطبية .

وقد اكد الدكتور رينو Reinaud ان المغرب لم يقم على وجه العموم بدور يذكر في العصر الذي كان الطب وبقية العلوم يتالق نورها في سوريا والعراق ومصر وحتى في اسبانيا المجاورة ، ولكن منذ اواخر القرن الحادي عشر وخاصة الثاني عشر الميلاديين — وهما ابرز عصور اسبانيا المسلمة — امتزج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين « فكيف يمكن اذن ان نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين انجبتهم الاندلس او الذين تكونوا في مدارسها ثم ساروا في اعقاب ملوك المغرب من اشبيلية او قرطبة الى فاس او مراكش او اغمات ، فللمغرب الحق اذن ان يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد » الخ (18) وكانت الحكمة تشمل آنذاك جميع

---

16) وقد نبغ في القرن السابع امثال السويدي صاحب التذكرة المتوفى عام 691 هـ (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط مختصر للتذكرة لعبد الوهاب الشعراني المتوفى عام 973 هـ في 141 ورقة) وابن ابي اصيبعة وجمال الدين القفطي (علي بن يوسف المصري الوزير الملقب بالقاضي الاكرم المتوفى في عام 646) وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى عام 629 هـ والذي امتاز في وصف اعشاب مصر) وابن النفيس المصري المتوفى عام 687 هـ والذي كان اعظم اطباء عصره وهو صاحب « كتاب الشامل » الذي لم يكمل المؤلف منه سوى 80 مجلدا من بين 300 (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط موجز قانون ابن النفيس لعلي بن ابي الحزم القرشي المتوفى عام 687 في 38 ورقة) .

17) اي بعد غزوة العقاب التي انهزم فيها الموحدون عام 609 « وكانت السبب في هلاك الاندلس » كما يقول ابن عذارى في « البيان المغرب » (ج 4 ص240) .

18) الطب القديم بالمغرب — رينو Reinaud نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72 ابن القاضي (درة الحجال ص 117) .

شعب الفلسفة والعلوم وان كان مفهومها سيتقلص فى القرون الاخيرة عندما يضعف الفكر العلمي بالمغرب ليقصر على جزء من الطب هو الكحالة او مرض العيون.

ويظهر ان ابا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب اندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الاندلس وقد كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية (19) ووالد ابي العلاء هو ابو مروان عبد الملك ابن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الذي تولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (20) وكانت له اراء شاذة فى الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه بانه يعفن الاجسام ويفسد تركيب الامزجة (21) وقد تمخضت تجارب أبي العلاء فى المغرب عن تاليفه لكتاب «التذكرة» (الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة فى مراكش والادوية المناسبة .

وبعدما توفي ابو العلاء امر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية اخرى كان ابو العلاء سجلها فى أوراق وهي « المجربات » (22) وولده هو ابو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل ابيه والف كتاب الاقتصاد (23) وهو اعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي فى الشرق .

وقد قرأ عليه ابو الحكم ابن غلندو الاشبيلي الشاعر عام 535 كتاب « الاقتصاد » فى سجن مراكش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين . وكان ابن رشد يفضل ابن زهر على غيره من اهل عصره (24) . وقد نهج ابن زهر فى كتاب « التيسير) اسلوبا جديدا فى الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول الى أحسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمي وليس من صناع اليد كما يقول فى « التيسير » ولذلك **توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالامراض الرئوية واجرى عملية القصبة المؤدية الى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة فى مرض الذبحة فعولج المريض وقد اختص فى امراض الجهاز الهضمي واستعمل انبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة** كما بسط طرق العلاج القديمة واوضح ان الطبيعة — اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر

---

19) ذكر المراكشي فى « المعجب » ان المعتمد استدعى ابا العلاء لمعالجة « الرميكية » عندما كان اسيرا باغمات .

20) (النفح ج 1 ص 445) .

21) الانباء فى طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة ج 2 ص 64 — 66)

22) جمعت بمراكش عام 526 هـ يوجد مخطوط منها فى الاسكوريال (844) وقد ترجم جان دوكابو التذكرة من العبرية الى اللاتينية (نسخة من مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280 والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554) .
وتوجد الآن نسخة فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها الى 1531 وهي تحتوي أيضا على كليات ابن رشد .
وهناك رسالة فى أمراض الكلى كتبها ابو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات ، ولابى العلاء مقالة فى شرح رسالة يعقوب بن اسحق الكندي حول تركيب الادوية .
وتوجد نسخة من (جامع اسرار الطب) لابي العلاء فى المكتبة الوطنية بالرباط وهي تحتوي على 185 ورقة .

23) لابراهيم بن يوسف اخي علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة فى الاسكوريال حسب رينو محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتابة عام 515 هـ .

24) ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » .

شان الجهاز البشري — تكفي وحدها في الغالب لعلاج الادواء (25) .

والحفيد ابو بكر بن مروان كان طبيبا شاعرا متين الدين خدم الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفى عام 596 هـ بمراكش الف « الترياق الخمسيني » ليعقوب المنصور ودس اليه ابن يوجان وزير المنصور السم هو وابنة اخته وكانت هي وامها عالمتين بالطب لاسيما في امراض النســـاء وتدخلان الى نساء المنصور (26) وكان ابو بكر يحفـظ صحيح البخاري (27) **ولم يكن فيزمانه اعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب (28)**

اما ابو بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ المعروف بابن باجة (29) فهو شيخ ابن رشد ، وقد استوزره ابو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكان يشارك الاطباء في صناعتهم فحسدوه وقتلوه مسموما عـــام 533 هـ (30) . ولم يصلنا شيء من المؤلفات الطبيـة المنسوبة لابن باجة ولا يعرف الا عن طريق ابن البيطار الذي يقتبس منها في « جامع المفردات » . ومن تلامذة ابن باجة سفيان الاندلسي المتوفى عام 537 الذي كان احد أطباء علي بن يوسف وتعاون مع شيخه ابن باجة في تاليف كتاب التجربتين (31) .

ومن الاطباء الذين نبغوا في هذا العصر : ابو جعفر بن هارون الترجالي طبيب يوسف وهو تلميذ المعافري في الحديث وشيخ ابن رشد في التعاليم والطب وكان عالما بصناعة الكحل (طب العيون) (32) .

اما الوليد ابن رشد فاهم مصنفاته كتاب الكليات الذي طلب من ابن زهر امداد ملحق لـــه (33) في الجزئيات لتكون جملة كتابيهما كتابا كاملا في الطب، وقد نقم عليه المنصور واجبره على المقام باليسانة الاهلة باليهود قرب قرطبة وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الاطباء اليوم وهو **تبديل الهـــواء في الامراض الرئوية** ، اشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (34) .

---

25) (حضارة العرب) جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية . وقد وهم كودار فزعم في كتابـه حول تاريخ المغرب (ص 452) ان ابا مروان ابن زهر يهودي ثم اكد أن ابن زهر استعاض بالمنهـج التجريبي والطريقة العقلية عن التقليد في ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام .

26) (ابن ابي اصيبعة ص 67) .

27) (الانيس المطرب) (ج 2 ص 180)

28) (المطرب لابن دحية) .

29) المتوفى بفاس (ابن ابي اصيبعة ج 2 ص 63)

30) وقد زعم مونك ان ابن رشد لم يتلمذ لابن باجة الذي مات عام 1138 (525 هـ) اي عندما كان لابن رشد 12 سنة وابن ابي اصيبعة كتب تاريخه بعد وفاة ابن رشد باربعين سنة .
(مزيج من الفلسفة اليهودية والعربية ص 420) .
ويذكرون ان وفاته كانت سنة 533 هـ بفاس فيكون قد اتيح بذلك لابن رشد ان يتتلمذ له.
كما خطأ عمر فروخ في كتابه «ابن طفيل وقصة حي بن يقظان» ص 31 «المراكشي» حينما زعم ان ابن طفيل قرأ على ابن باجة » .
واضطرب الفتح بن خاقان في ابن باجة حيث نسبه في القلائد للتعطيل وانحلال العقيدة وحلاه في « مطمح الانفس في ذكر رجال الاندلس » بالخير والدين والاستقامة (والسلوة ج 3 ص 262) .

31) (لوكلير (تاريخ الطب العربي) (ج 2 ص 79)

32) ابن ابي اصيبعة (ج 2 ص 75) وذكر ابن عذارى في « البيان المغرب » (ج 4 ص 49) ان الخليفة ابا يعقوب اعتل عام 573 فوفدت عليه الاطباء في الاندلس للمعالجة الى ان وجد الراحة » .

33) وذكر ايضا ان ابا يعقوب لما خرج في الغزوة التي مات اثرها بالاندلس كان الاطباء الحاضرون لديه هم ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم (ج 4 ص 70) .

34) (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 531 من الطبعة الفرنسية) .

وابن رشد هو اول (35) من اشار الى الدورة الدموية وعللها فى كتابه « الكليات » الذي استمد منه ويليام هارفي William Harvey معظم نظرياته . وهناك اطباء آخرون ينيف عدد البارزين منهم على العشرين ، ازدهر بابحاثهم القطاع العلمي فى عهد المرابطين والموحدين (36) نخص بالذكر منهم عالمين اثنين من سبتة هما علي بن يقظان الطبيب الشاعر الذي زار مصر عام 544 هـ ثم اليمن والعراق ، وابن سمعون ابو الحجاج يوسف بن يحيى (37) الذي كان طبيبا لميمون امير حلب ولملك مصر الظاهر ، وذلك علاوة على ابن الرومية النبطي الاشبيلي أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن العشاب الذي رحل الى الشرق عام 614 (38) بعد ما درس اعشاب الاندلس والمغرب واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع، وكان لرحلة بن البيطار الى المغرب اثر قوي فى نقل المصطلحات البربرية الى معجمه العربي الجديد الذي اصبح المرجع الاساسي فى الشرق وخاصة بمصر حيث عين ابن البيطار رئيس العشابين (39) .

ومن ابرز من ظهر فى هذا العصر ايضا الشريف الادريسي الذى صنف كتابه «النزهة» فى الجغرافية عام 548 هـ (1154 م) ووضع كرة فضية للعالم جعلت منه استاذ اوربا كما شحن كتابه فى الادوية بنتائج تجاربه الشخصية القيمة ، حذت الطبائعي الشرقي الكبير ابن البيطار الى الاقتباس منه فى مائتي موضع من كتابه فى الاعشاب (40) والاعتماد عليه وحده فى ثلاثين موضعا مع الاشارة الى اسمائها بالبربرية . ويتجلى من هذا العرض ان **العلوم ازدهرت فى المغرب الاقصى الى القرن السابع وانصهرت معطياتها ومفرداتها فى بوتقة مع مصطلحات الشرق العربي عدا فروق ترجع الى اللون المحلي كالنباتات والازهار والاعشاب العقاقيرية التي تحمل اسماء خاصة متاثرة بالعقاقير الجهوية** ونضرب مثالا لذلك بالجوزة الصحراوية التي عرفت فى المغرب بهذا الاسم بينما عرفت فى كل من الشرق والجزائر بجوزة الشرك (41) وقد استعمل الطبيب هرون بن اسحاق ابن عزرون فى ارجوزته التي استدرك فيها على الحميات الواردة فى ارجوزة ابن سينا (وهو من رجال القرن الرابع عاش فى عهد عبد الرحمان الثالث) نحو ثلاثين كلمة مغربية اندلسية بدل مقابلها الفصيح منها :

تبن مكة (ادخر)
والحلحال (= اسطوخودوس)
والعقربان (= استولوفندريون Scolofendre)
والفاسوخ (= أشق :
(Gomme Ammoniaque
وشيبة العجوز (= افسنتين Absinthe)
والمجيلة (= اكليل الملك Melilot)
وحبة حلاوة (= انيسون Anis)
والرجلة (= بقلة حمقاء Pourpier)
ويربوز (Blette = بقلة يمانية) .
وحبق الاترج (= ترنجان Basilic citronnelle)
والصفصاف (= خلاف Saule ou Peuplier)
والجزر البري (= دوتو Carotte sauvage)
والنانخ (= بزر الرازيانج Graine de fenouil)
والبرستم المكور (زراوند مدحرج
(Aristoloche ronde

والهندبا (= سريس Chicorée)
والحمودة (= سقمونيا Scammonée)

---

35) ابن النفيس المصري ، اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 ـ بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد اشار ابن النفيس الى ذلك فى « الكتاب الشامل فى الطب » الذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا لمستشفى قلاوون .

36) تحدثنا عن جميعهم فى كتابنا « الطب والاطباء بالمغرب » المطبعة الاقتصادية 1960 بالرباط .

37) القفطي ج 2 ص 160 و 193 و 256 .

38) توفى عام 637 هـ وصنف كتابا فى الحشائش رتبه على حروف المعجم وفاق أهل زمانه فى معرفة النبات (نفح الطيب ج 1 ص 635) وتلميذه ابن البيطار هو اعظم نباتي العرب الذي قارنه لوكلير (ج 2 ص 225) بالغافقي والشريف الادريسي ورشيد الدين الصوري والنبطي .

39) نفح الطيب ج 2 ص 683 .

40) لوكلير Leclert (ج 2 ص 680)

41) ابن البيطار فى « جامع المفردات » وعبد الرزاق الجزائري فى « كشف الرموز فى بيان الاعشاب » (طبعة الجزائر 1903 و 1917) .

والحبق القرنفلي (= شاهشبرم Petit basilic)
ومشيشترو او (= نعناع Menthe نوذنج)
وحب الملوك (= تراسيا Cerise
والكروية البرية (= تردمان Carvi sauvage)
وقصة الحية (= قنطوريون Centaurée)
والشمع الابيض (Cire blanche = موم)
وغير ذلك .

وكان النباتيون يسمون الشجارين والحشائشيين بالشرق بينما يعرفون بالعشابين فى المغرب ومنهم ابن العشاب المعروف بابن الرومية .

ولعل العامية المغربية من اغنى اللهجات العربية الدارجة فى مصطلحات العلوم بالرغم من وجود مرادفات بربرية ولنضرب لذلك امثلة مقتبسة من معجمنا فى « الاصول العربية للعامية المغربية » .

ففي خصوص الاعشاب والازهار : بابونج (بابنوج) — بسباس (المعجم الوسيط) مقدونس (معدنوس ترغاس) — الترنج (الكماد بالشام) — ترياق (دواء للسموم) الجلبان — حب الرشاد — الحرف — الجلجلان — جلنجين — الجوز — الباذنجان — البحيرة (البستان) — برتوق — اجاص — البصل — العنصل — الفول — البطيخ — البرسيم — التبن — الثوم — الحب — الحرمل — الحشيش — الحلبة — حلفاء — حماض — حمص — حناء — حنطل — خبيزة — خزامى — خس — خشخاش — خشاش — خوخ — خيار — ذرة .

وفى العلوم : التوتيا — الجلمود (الصخر) — الجدول — الجذري — الجذام — الجذر — الجليد — الحادور (المكان المنحدر) — الحارة (الفضاء) — حامض الرئة اي مر النفس — الحبل (حمل المراة) والحرقة والحصحاص (الارض الحجرية) — الحكة والحراج — والخنان والدمل الخ .

ومن اعضاء الجسم : بعصوص (عظم بين الاليتين) (المعجم الوسيط) جمجمة — اقنف الانف — الجفن — الحاجب — الحبو — والحدبة — حك الورك (اي حك وهو مغرز رأس الفخذ) حلقوم — حنجرة — خرطوم — اما فى عموم الحيوان فنذكر من المفردات :

الحيوان — البغل — الجبح (خلية النحل) والجمل والحمار والبرغوث والبق والنحل — والبعوض والتمساح والتيس — والثعبان — والحية — والحنش والافعى — والجحش والجراد والجرثومة والجرو والجماد والحجل — والحداة ، والحرجة (جماعة الغنم والابل) والحظيرة والحلس والحوار (ولد الناقة) والحوت والحولي — والحيتطان (الدراج) (الحيتون فى زعير) وختل الصياد — والخروف والدلفين — ودوارة البطن (امعاؤه) والديك — والذباب — والدب — والخيل — والخيال — والخطاف — والخفاش — والخنفساء الخ .

اما فى عصر المرينيين فان **الملكة العلمية تضاءلت** وصار حفظ النصوص هو الغالب لا فى علوم الآلة كالنحو او علوم الشريعة بل حتى فى المنطق والحساب والطب وسائر العلوم العقلية (42) ويظهر ان هذه الآفة الفكرية قد اصابت بشلل جزئي قطاعات علمية فى الشرق حيث **بدأ عصر الانحطاط العلمي فى القرن الثامن وبداية التاسع على اثر السيول الجارفة التي حطمت فى طريقها معالم المدنية** تحت امرة جنكيز خان وتيمورلنك ، واذا كان ابن بطوطة قد تحدث لنا عن المدرسة النظامية التي كانت ما زالت قائمة البنيان فان اساتذتها وطلبتها اندرسوا وقد لاحظ لوكلير انه امكن فى هذه الفترة تسجيل نحو الاربعين عالما نصفهم من الاندلس لا يوجد من بينهم طبيب مشهور لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتاليف (43) .

ويرى بعض المستشرقين ان **جامعة فاس التي ظلت تدرس الطب بكتب ابقراط وجالينوس وديوجينوس المعربة لم تكن لتحسد جامعات العواصم العربية الاخرى** (44). والواقع ان الفكر العلمي بدأ يتحجر ليجمد على النصوص الظاهرة بالرغم عما يقال من

---

42) « نشر المثاني » ج 2 ص 97 « وسلوة الانفاس » ج 1 ص 74 نقلا عن كتاب لعلي بن ميمون الفاسي .

43) كتاب الطب العربي لوكلير (ج 2 ص 258) .

44) ليفي بروفنصال Lévy-Provençal (هسبريس Hesperis عام 1952 ص 3) ولوكلير « الطب العربي » (ج 1 ص 575) وقد وصف كل من الرحالة باديا ليبليش المعروف بعلي العباسي والدكتور رينو Reinaud . (الطب القديم بالمغرب ص 77) مدينة فاس بانها اثينة افريقيا اي شبيهة بعاصمة الفكر اليوناني باوربا .

وجود مدرسة للطب فى سلا (45) ومن ظهور دراسات مغربية حول علل وطرق علاج «الطاعون الاسود» (46) الذي ظهر فى منتصف المائة الثامنة .

وابرز من ظهر من الاطباء انما عاشوا فى اوائل عهد المرينيين امثال ابي العباس الشريشي السلوى الذي قرأ الطب فى الشرق على ابن بنان (47) ومحمد ابن خليل السكوني الذي صنف فى الخواص الطبية والكليات فى الاغذية والبيطرة وفن ركوب الخيل وتدبير الحروب (48) .

اما فى القرن الثامن فان العلماء اصبحت لهم مشاركة محدودة مثل احمد ابن علي المليانى المراكشي الذي جمع بين الشعر والكتابة والطب (49) بينما كانت لهذه المشاركة سمة الضلاعة والعمق عند النبطى مثلا الى اوائل القرن السابع حيث كان الى جانب اختصاصه فى علم النبات اماما فى الحديث حافظا ناقدا .. « لوجود القدر المشترك بين صناعتي الحديث والنبات اذ موادهما ــ كما يقول ابن الخطيب فى الاحاطة ــ الرحلة والتقييد وتصحيح الاصول » ، وقد شملت المشاركة جوانب شتى عديدة من العلوم والتقنيات اهمها الرياضيات والهندسة والهيئة . وكان العرب اساتذة النهضة الاوربية فى الحساب (50) وقد فند سيديو Sedillot (51) ما زعمه بعض المستشرقين من ان علماء العرب انما اقتبسوا من الاغريق مشيرا الى ما ابدعه الفكر العربي فى هذا المجال مثل ادراج الخطوط الماسة للدائرة Tangentes فى الحسابات ، والاستعاضة عن الاساليب العتيقة بحلول مبسطة اصبحت اساسا فى حساب المثلثات الحديث Trigonométrie

وقد لاحظ العالم شال Chasles انه كان للعرب فضل التفكير فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وتأكد ذلك بعد أن نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام 1836 م من طرف روزن Rosen

ومن بينها بحث فى الجبر حلت مشاكله فى المعادلات الثلاثية بطرق هندسية، ويقال بأن الخوارزمي هذا لم يحل سوى المعادلات من الدرجة الثانية Equation de 2° Degré وان الذي حل معادلات الدرجة الثالثة هو عمر ابن ابراهيم (52) ولعل لفظتي الغوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر اقدم الرياضيين العرب حيث عاش فى عصر المأمون العباسي. ونقلت كتبه فى الجبر والمقابلة الى اللاتينية ، وقد ابدع العرب فى علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها فى علم الفلك .

واسهم المغرب الاسلامي اي المغرب الكبير والاندلس فى بلورة هذا الاشعاع العلمي العربي فظهر ابن حمزة المغربي فى القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة فى اللوغريتم ، واشتهر فى الاندلس ابو عبيدة مسلم بن احمد ويحيى ابن يحيى المعروف بابن السمينة وابو القاسم اصبغ بن السمح (له تاليف منها المدخل الى الهندسة فى تفسير اقليدس ، وكتاب كبير فى الهندسة) وابو القاسم ابن الصفار وابو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف فى المعاملات) وابو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين فى العدد والهندسة) وابو مسلم بن خلدون (كان متصرفا فى الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابن برغوث (اختصاصي فى العلوم الرياضية) وتلميذه ابو الحسن مختار الرعيني (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن احمد السرقسطي (ناقد فى الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع فى العدد والهندسة) وابو هي القرطبي

---

45) ورد فى الجزء الاول من سلسلة « مدن المغرب وقبائله » المتعلق بالرباط ونواحيته (ص 32 و 225) ان « المدرسة البوعنانية » المنسوبة الى ابي عنان المريني بسلا كانت « مدرسة للطب » ونسب ذلك الى « الاستقصا » الذي لم يشر اليه عند تعرضه للمدرسة (ج 2 ص 151) .

46) الطب القديم بالمغرب ــ رينو ــ ص 47 .

47) توفى بالفيوم عام 641 هـ (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 351) .

48) توفى عام 646 (الاعلام ج 3 ص 145) .

49) (جذوة الاقتباس ص 73) .

50) كوتيي Gautier فى كتابه « عادات المسلمين واعرافهم » ص 238 .

51) تاريخ الطب العربي ــ لوكلير ج 1 ص 320 .

52) « حاضر العالم الاسلامي » (ج 1 ص 151)

(بصير بالهندسة ، رحل الى مصر عام 442 هـ) وأبو الوفشي الطليطلي (الهندسة) (النفح ج 2 ص 874)

ومن العلماء الذين برزوا في الهندسة والرياضيات بالمغرب الاقصى في مختلف العصور : ابو بكر بن الصايغ المعروف بابن باجة Avempace له تعاليق في الهندسة (53) .

والحاج بميش الذي صنع لعبد المؤمن ابن على مقصورة من الخشب لها ستة اضلاع تسع اكثر من الف رجل وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله (54) .

والمهندس عبيد الله بن يونس الاندلسي الذي استخرج المياه التي تسقى بها بساتين مراكش بصنعة هندسية (55) .

وابو جعفر بن الحسن بن احمد بن حسان القضاعي الذي كان عالما بالهندسة وسائر الثعاليم(56)

وعبد الله بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي وهو بربري توفى بمراكش عام 600 أو أوائل 601 هـ وتوجد نسخ من ارجوزته في الجبر والمقابلة بخزائن باريز وبرلين واكسفورد والاسكوريال والقاهرة (57) .

وابو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة من اهل المعرفة بالبناء والهندسة وهو صانع « البيلة » و « الخسة » بصحن القرويين عام 599 هـ (58) .

وفي عهد المرينيين ظهر كثير من المهندسين ، ففي عام 674 هـ خرج يعقوب المريني الى ضفة وادي فاس « ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء » فوقف على المدينة البيضاء (فاس الجديد) وشرع في حفر اساسها (59) .

ومن هؤلاء العلماء :

محمد بن عبد الله المعروف بابن حجلة شيخ ابن البناء في الحساب (60) .

ويوسف بن أحمد بن حكم التجيبي قاضي الجماعة بفاس اخذ عنه ابن البنا الحساب والتعاليم (61) .

ومحمد بن علي المعروف بالشريف أستاذ ابن البنا المراكشي الذي كان يذاكره مسائل من كتاب الاركان لاقليدس (62) .

---

53) توفى بفاس (« عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن ابى اصيبعة ص 63) وكانت وفاته عام 533 هـ (الاعلام للعباس بن ابراهيم المراكشي ج 8 ص 6) .

54) فاذا قرب وقت الرواح الى الجامع يوم الجمعة دارت الحركات بعد رفع البسط عن موضع المقصورة فتطلع الاضلاع في زمان واحد ولا يفوت بعضها بعضا بدقيقة ، وكان باب المنبر مسدودا فاذا قام الخطيب ليطلع عليه انفتح الباب وخرج المنبر في دفعة واحدة بحركة واحدة لا يسمع لها حس ولا يرى ، وذكر المقري في النفح أن آثار هذه المقصورة كانت باقية عام 1010 هـ .

55) (نزهة المشتاق للادريسي ص 67 من الجزء المطبوع حول افريقيا والاندلس) .

56) انتقل الى فاس حيث توفي في حدود ستمائة (الجذوة لابن القاضي ص 72) .

57) ومن شراح الارجوزة حسب بروكلمان ابن الهائم المصدري المتوفى سنة 815 هـ (وهو مخطوط باكسفورد والقاهرة) والقلصادي وهو « تحفة الناسمين في شرح ارجوزة ابن الياسمين » (مخطوط بخزانة مكتب الهند بلندن والخزانة العامة بالرباط) وسبط المارديني المتوفى سنة 900 ويسمى « اللمعة المارديئية في شرح الياسمينية » (مخطوط ببرلين والقاهرة واسطنبول) وله ارجوزة في اعمال الجذور توجد بخزانة الاسكوريال (راجع بحث الاستاذ محمد الفاسي مجلة رسالة المغرب 1942 (السنة الاولى — عدد 1) وممن شرح الارجوزة سعيد المقباني التلمساني الملقب برئيس العقلاء (نيل الابتهاج ص 106) .

58) (الجذوة بين 37 و 57) .

59) (السلوة ج 3 ص 145) .

60) الجذوة ص 76) .

61) الجذوة ص 346) .

62) توفي عام 682 هـ (الاعلام ج 3 ص 192) .

وابو العباس بن البنا العددي المراكشي لـــه «التلخيص» في الحساب ومقدمة في اقليدس واختصار في الفلاحـــة (63) .

وابو جعفر بن صفوان الامام في الحساب وهـــو تلميذ ابن البنا (64) .

وعلي اليفرني المكناسي الشهير بالطنجي امام في الفرائض والحساب في وقته توفي عام 734 هـ (65)

وعبد الله بن محمد بن احمد التلمساني ولد سنة 748 قرا الهندسة بكتاب اقليدس على والده بفاس(66)

وعلي بن احمد التلمساني موقت القرويين أيام ابي عنان المريني صنع « المنجانة » المقابلة للمدرسة العنانية عام 758 هـ (67) .

وعبد الرحمن اللجائي تلميذ ابن البنا في العلوم التعليمية توفي عام 773 حسب تلميذه ابن قنفذ (68)

واحمد الاوسي المراكشي المعروف بابن الشماع امام في الحساب عارف بالمنطق والهندسة (من أهل القرن الثامن) (69) .

ومحمد الشريف التلمساني من علماء الحساب والهندسة والهيئة ، كان لسان الدين ابن الخطيب اذا الف تاليفا بعثه اليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطه(70)

وجمال الدين المارديني خليل بن يوسف المهندس المتوفى عام 872 هـ (71) .

ومحمد القوري حافظ فاس الحيسوبي الطبيب المتوفى عام 872 هـ (72) .

واسير المؤمنين في الفرائض والحساب ابراهيـــم المسعودي ، توفي بفاس عام 912 او 913 هـ (73) .

واحمد الغزاني الفاسي كان استاذا فرضيـــا حيسوبيا له معرفة بالفلك توفي عام 920 هـ (74) .

ومحمد بن قاسم بن توزت التلمساني « استخدم عقله في حل مشاكل الهندسة » وهو من مواليد نهاية القرن التاسع الهجري (75) .

---

63) توفي عام 221 هـ على قول ابن قنفذ (نيل الابتهاج ص 42) كان يقصد شيخه عبد الرحمـــان الهزميري فيما اشكل عليه من مسائل الهندسة (137) وله ايضا جزء في « المساحات » (الجـــذوة ص 77) .
ذكر ابن القاضي في « درة الحجال » (القسم الاول ص 5) ان له كتابا في الجبر والمقابلة سماه « الاصول » وكذلك « رفع الحجاب عن تلخيص اعمال الحساب » زيادة على «تلخيص أعمال الحساب» وذكر عباس بن ابراهيم في الاعلام ان كتاب « الجبر والمقابلة» موجود في المكتبة الخديوية (ج 1 ص 379) وممن شرح تلخيص ابن البناء احمد بن رجب ابن طنبغا القاهري المتوفى عام 850 هـ المعروف بابن المجدي وممن اختصره وسماه ««بالحاوي ابو شهاب القرافي المعروف بابن الهائـم المتوفى عام 815 ونظمه محمد بن غازي المكناسي وابن القاضي صاحب « الجذوة » (ص 384) وممن شرح التلخيص ابو العباس بن قنفذ في كتاب سماه « حط النقاب عن وجوه الحساب » ولابن قنفذ هـــذا « بغية الفارض من الحساب والفرائـــض » (الاعلام ج 2 ص 17) .
64) (الاعلام ج 2 ص 2) .
65) (الدرة ص 441) وهو بن عبد الرحمان بن غيم (نيل الابتهاج لابن بابا السوداني ص 192) .
66) (نيل الابتهاج ص 127) .
67) (جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 31) .
68) السلوة ج 1 ص 304 .
69) الاعلام ج 2 ص 10 .
70) نيل الابتهاج ص 258 و 264 .
71) له « غاية الانتفاع بالبخش الذي في طرف قوس الانتفاع » طبع حجر ، فاس .
72) السلوة ج 2 ص 116 .
73) درة الحجال (ص 107) (وسلوة الانفاس (ج 2 ص 4) تلميذه ابراهيم الزواوي فقيه كنو من السودان (الدرة ص 111)
74) درة الحجال ص 91 .
75) نيل الابتهاج ص 340 .

ومحمد بن هلال « امام التعاليم فى سبتة وشارح المجسطي فى الهيئة » مات عام 949 هـ (76) .

ومحمد بن يوسف المعروف بابن مشون من اساتذة المرية رحل الى سبتة ونظم رجزا فى علم الجبر والمقابلة ، توفى عام 989 (77) .

اما فى عصر السعديين فلم ينبغ من الاطباء والرياضيين والجغرافيين وغيرهم من العلماء سوى عدد محدود ، منهم الطبيب بن عزوز المراكشي صاحب ذهاب الكسوف (78) وعبد الرحمن سكين الفاسي المحدث الاديب الذي كان يدرس الفية ابن سينا (79) . وأبو القاسم الوزير الغساني صاحب شرح حميات ابن عزرون » و « وحديقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار » (80) .

وقد نشر الدكتور رينو فى نشرة معهد الدروس المغربية العليا (81) دراسة حول «حديقة الازهار» ذكر فيها أن هذا الكتاب « يمتاز بمنهاجه الواضح جدا فى الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع من الاصالة والطرافة ، وقلما يخلو الكتاب من الاشارة الى منابت الاعشاب التي توجد بالقرب من فاس وبذلك يزودنا بمعلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية بفاس ، فهي اذن محاولة مفيدة لترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا فى وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية ».

ومن أطباء هذا العصر وعلمائه :

عبد الوهاب الزقاق الذي كانت له مشاركة فى الادب والاصلين والطب والتفسير والحديث والنحو وولي القضاء بفاس (توفى عام 961 هـ) .

وطبيب المنصور ابو عبد الله محمد الطيب (82) .

ومحمد الاندلسي الذي كان مولعا بالكيمياء والرياضيات والطب والهيئة والطبيعة (83) .

وداود بن عبد الله البغدادي ثم التلمساني الطبيب الماهر (84) .

واحمد بن عبد الحميد المعروف بالمريد المراكشي الذي كان أماما فى جميع الفنون حكيما ماهرا فى الطب (85) .

وعبد الرحمن الفاسي الذي انفرد بتحقيق تعاليم وتحدث فى كتابه « الاقنوم فى مبادىء العلوم » عن الطب وعمليات التشريح وفنون العلاج وعن البيطرة وعلم الزردقة اي طب الحيوان وعن الصيدلة وهو علم الاقراباذين وآخر هؤلاء الاطباء أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج الذي ساقه رينو كانموذج اخير للطبيب العالم ، له كتاب « الدرر الطبية » فى الطب والطبائع والهواء والاغذية والاشربة والامراض وطرق علاجها والادوية مع تقسيم فني جديد لهذه الادوية .

والسلطان احمد المنصور الذهبي له قدم راسخ فى المنطق والحساب والهيئة والهندسة (86) .

واحمد بن قاسم معيوب كان له معرفة بالتعاليم من حساب وهيئة (87) .

واحمد بن القاضي المكناسي المؤرخ له (غنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض) (مفقودة) و « المدخل » فى الهندسة ، ونظم تلخيص ابن البنا (نشر المثاني ج 1 ص 129) وظهرت فى

---

76) الاعلام ج 3 ص 263 .
77) درة الحجال ص 176 .
78) اقتبس فصل طب العيون من الكحال المشرقي علي بن عيسى (الطب القديم بالمغرب ص 75) .
79) توفى عام 956 (نيل الابتهاج ص 153) .
80) الفه للسلطان المنصور السعدي عام 994 (نشر المثاني ج 2 ص 125) .
81) ج 18 ص 195 .
82) « نزهة الحادي » طبعة هوداس ص 146 .
83) قتل عام 980 هـ (الاعلام ج 4 ص 318) .
84) لقيه ابن القاضي فى مصر عام 986 (درة الحجال ص 143) .
85) توفي عام 1048 (الاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص114) .
86) نشر المثاني ج 1 ص 77 . فهم كتاب اقليدس من غير شيخ لعزة وجوده بالمغرب فكان يفك شكلا فى كل يوم (درة الحجال ص 51) وتضلع ايضا فى الجبر والمقابلة (السلوة ج 3 ص 226) .
87) توفي بمراكش عام 1022 هـ (الاعلام ج 2 ص 82) .

وتقه الحرف المهمة التي لم تكن بالمغرب منها الحساب والهندسة والمساحات (88) .

والرحالة محمد بن القاسم ابن القاضي أوحد عصره في علم الحساب والتنجيم والجداول ، له « البرق الوامض في الحساب والفرائض » (89) .

واحمد القلصادي موقت القرويين كان يدرس كتاب القلصادي (90) .

ويعقوب البستاني امام الفرائض والحساب (91)

واحمد التقليتي العارف بالحساب والتعديل والمساحات وبعض مبادىء الهندسة ، وهو شيخ « جماعة الفنون » المذكورة بمراكش ، وهو معاصر لمؤلف درة الحجال (92) .

ومحمد بن سعيد السوسي المرغيثي صاحب المقنع في التوقيت (93) .

ومحمد ادراق السوسي .

ومحمد بن محمد بن سليمان الفاسي الروداني ، كان يتقن فنون الرياضة واقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي ويعرف انواع الحساب والمقابلة والارتماطيقي والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره (94) .

وقد تنافس الناس في اقتناء الآلة التي اخترعها ، وكان يبيعها بثمن غال وقد الف رسالة في وصفها وهي منشورة في الاعلام (ص 350) والآلة عبارة عن كرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوما ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف (95) .

غير أن هذه « **العلوم فقدت منذ أوائل القرن الحادي عشر سمتها العلمية فأمست مجرد (حرف) تقنية خصت اختصاصيين في الحساب والهندسة والمساحات** » (96) ومما يدل على عقم الصيدلة ما لاحظه الحسن الوزان من أن العطاريين بفاس لم يكونوا قادرين على ترتيب الاشربة والأدهان طبقا لوصفات الأطباء فكانوا يجتمعون كلهم لاعدادها ثم يرسلونها الى دكاكينهم لتوزيعها وهي ظاهرة ان كانت تنم عن انخفاض في المستوى العلمي فانها تدل مع ذلك على أمانة واخلاص للمهنة . **وبالرغم من تقلص شبكة العلوم فان الروح العلمية ظلت تذكي الخاصة من العلماء الذين كانوا يشعرون بالفروق الدقيقة في الاتجاهات العلمية** ، ويتجلى ذلك في تقسيمات ابي علي اليوسي للعلوم : الى فلسفة ومية ، وتحديده لماهية علم الفلسفة الذي يهدف الى « تكميل النفس الناطقة والاطلاع على حقائق الأشياء بقدر الطاقة » وانه — كما يقول — اما نظري واما عملي، والأول اما مجرد عن المادة مطلقا وهو العلم الالهي ، أو في الذهن فقط وهو العلم الرياضي، أو مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعي. والثاني اما متعلق بنفس الشخص من حيث هي ، وسمى سياسة النفس وعلم الاخلاق ، او بها وبما يحتاج اليه من شهوات تواها وهو علم تدبير المنزل ، او بما يعم وهو الملكية والسلطنة » ..

وقد اصبحت التعاليم تنحصر على عهد العلويين في عمليات تطبيقية منها ما صنفه :

محمد المسناوي مرينو الاندلسي المنجم الحيسوبي الذي وضع مؤلفات في « تقدير قرض النفقات » بعمل

---

88) الاعلام للمراكشي ج 1 ص 46 . (توفي عام1025 هـ) .
89) توفي قتيلا بفاس عام 1040 هـ (السلوة ج 3 ص 287) .
90) توفي عام 1063 (نشر المثاني للقادري ص 207) اما علي بن محمد القلصادي(810 — 891هـ) فاصله من بسطة ، واستوطن غرناطة ومات ببلجة بتونس له « شرح الارجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة» و « قانون الحساب » و « كشف الأسرار في الجبر » (الاعلام للزركلي ج 5 ص 163) وله ايضا شرحان على تلخيص ابن البنا والحوفي والغنية في الفرائض ، أخذ بمصر عن ابن حجر كما في رحلته (النفح ج 2 ص 684). وقد طبع كتابه « كشف الاسرار عن علم حروف الغبار » مرارا بحجر فاس.
91) كان يترؤها في الهواء فاذا اراد عاملها يصورها في اللوح ضربه بالقضيب على يده (الجذوة ص 350) . وهذا يدل على استعمال السبورة في شرح العلوم بالمغرب في ذلك العصر .
92) الدرة 92 .
93) توفي عام 1809 م (نشر المثاني ج 2 ص 37)
94) توفي عام 1094 هـ (الاعلام ج 4 ص 334 نقلا من خلاصة الاثر) .
95) نشر المثاني ص 87 .
96) الاعلام للمراكشي ج 1 ص 46 .

الرموز والأرقام مرتبا على أطوار حياة المنفق عليهم(97)

والأستاذ المعطي مرينو له مؤلفات في التوثيق ، منها كتاب في تعديل الكواكب السبعة سماه « كنز الأسرار » ، وآخر في أبعاد النيرات ورصده ، وابتكارات أخرى في علم « المزاول الرخامية » وغير ذلك (98) .

واحمد بن الطاهر المراكشي العالم بالأحكام النجومية والازياج والهندسة والجدول (99) .

واحمد حدو الهنتيفي الأستاذ في الحساب والرصد والأسماء (100) .

ومحمد متجنوش أستاذ انفرد في علم الحساب والتنجيم (101) .

وعبد الرحمن لبريس المنطقي الفلكي الحيسوبي (102) .

ومحمد بن الرئيس بن الحسن على التركي الضليع في الهندسة والرياضة . ومن أوضاعه في هذه مثال سماه « الشكل الكوري » شامل لسائر الزوايا والخطوط واشكال الهندسة مما تشمله أصول اقليدس وتهذيب الطوسي (103) .

واحمد بن عبد الله التناني المعروف بالصويري ، كان عارفا بالحساب والتنجيم وعلم الأحكام الفلكية وعلم الهيئة ، له مؤلفات وتعاليق في الحساب والجبر والمقابلة وفي اللوغاريتم ، وحل اشكالا هندسية طبقها في الرياضيات ، وكان عيئه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان « رئيس المهندسين » وعينه مولاي الحسن « رئيس قواد الطبجية » (أي المدفعية في العامية المغربية) وخليفة وزير الحرب (104)

وهنالك رياضيون ومهندسون آخرون تتجلى قيمتهم العلمية فيما صنفوه من كتب وأبحاث تكفلت المطبعة الحجرية في فاس بطبعها عندما انشاها السلطان محمد الرابع منذ أزيد من قرن (105) .

وقد اندرس **التعليم الرسمي للطب والعلوم بجامعة القرويين** رغم ما أشار اليه دلفان (106) من استمرار اعتناء الطلبة آنذاك « بالكامل » للزراري « والقانون » لابن سينا « وزبدة الطب » للجرجاني « والتذكرة » للسويدي « وتذكرة الأنطاكي » وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري ومع ذلك **ظل الأطباء يجرون بمهارة بعض العمليات التشريحية الصغرى** (107) .

وقد بدأ المغرب منذ العهد السعدي يستدعي « خبراء فنيين » معدودين كالطبيب الفرنسي كيوم بيرار (Guillaume Berard) الذي كانت له ثقافة متواضعة (108) . وهوبير (Hubert) أستاذ العربية بجامعة باريس (109) والطبيب الانجليزي لبريير والدكتور براون الذي منحه السلطان مولاي عبد الرحمن رخصة لممارسة مهنة الطب بالمغرب ، وذلك علاوة على الأطباء اليهود الذين كانت تستقدمهم الجالية الاسرائيلية ، أو من كان يولد في الاجزاء المحتلة من المغرب أمثال الطبيب النباتي الاسباني السبتي كريسطوف دا كوستا . وشعر المغرب

---

97) توفي عام 1207 (ج 1 ص 136 ــ الاغتباط) لابي جندار .
98) توفي عام 1223 (ج 2 ص 116 ــ الاغتباط)
99) مات عام 1250 هـ (الأعلام ج 7 ص 214) .
100) وكان يحسن نحوا من ثمانية عشر علما توفي عام 1285 هـ (السلوة ج 3 ص 82) .
101 توفي عام 1290 ــ وعمره 31 سنة (ج 1 ص212) .
102) سافر الى الحج 1307 وهو من مواليد القرن الثالث عشر (ج 2 ص 134 ــ الاغتباط) .
103) الاغتباط لابي جندار (ج 2 ص 192)
104) الأعلام (ج 2 ص 267) .
105) راجع مطبوعات المغرب للاستاذ ادريس الادريسي وهي مخطوطة)
106) في كتابه « فاس وجامعتها » طبعة 1889 Delphin
107) رينو ــ ص 128 (راجع في كتابنا « الطب والأطباء بالمغرب » نماذج لمهارة بعض المحترفين في هذا المجال ص 72 ــ 80)
108) رينو ــ « نشرة معهد الدروس العليا » ج 18 ص 206 .
109) كودار ــ تاريخ المغرب ص 399 و ص 490« المغرب الحديث مملكة تنهار » كامبو 1866 ص 16.

بتفاوت الاختصاصيين فاسس مدرسة للفنون بفاس الجديد « ومدرسة مركزية للمدفعية » بالجديدة (110) تخرجت منها فئات من الطلبة توجهت لاستكمال دراستها فى مصر وكذلك فى انجلترا واسبانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا وامريكا . وقد تابعت بعثة مكونة من اثني عشر طالبا دراستها فى جامعة مونبيليي (Montpellier) بفرنسا خلال سنوات (1885 ــ 1888) درست فيها اللغة الفرنسية والحساب والهندسة التطبيقية والهيئة والرياضيات والكيمياء والتلغراف والتليفون وعلم البصريات والكهرباء والضغط الجوي وترصيف الطرق والسكك الحديدية ومسح الاراضي وفن تحرير التصميمات الهندسية بالاضافة الى التمارين العسكرية وبناء الخنادق واجهزة الدفاع وصنع آلات الحصار ، وحذق هؤلاء الطلبة فاصبحوا يحررون المذكرات ويتاهبون للاضطلاع برسالة تقنية هامة فى المغرب الحديث ، وتم الاتفاق بين المغرب وفرنسا على توجيه فوج جديد لاستكمال الاطر المغربية تدريجيا فى مدينة فرساي (Versailles) ولكن شيئا من ذلك لم يتم ، حيث توفى الحسن الاول بعد سنوات ودخل المغرب فى خضم من الدسائس الدولية عرقلت توثبه للانبعاث ، **ووجه الحسن الاول كذلك الى اوربا طلبة لدرس الطب** تابع ستة منهم تمارين بالمستشفى الاسباني بطنجة فى ميدان الفحص والتشميد والتشريح وعين ثلاثة من خريجيها اطباء فى الجيش بكل من طنجة ومراكش ، اما مصر فانه لم يتوجه اليها عدا الأستاذ عبد السلام العلمي لدراسة الطب بالقاهرة ، وكانها كانت النواة الأولى اراد السلطان الحسن الاول ان يستكنه بها **قيمة الدراسة العلمية فى الشرق العربي** غير ان هذه البعثة لم تجدد كمثيلاتها فى اوربا بالرغم من ارتفاع مستوى التعليم فى مصر آنذاك ، والواقع ان المغرب افاد كثيرا من الروح الجديدة التي تقمصها الشريف العلمي الذي ما لبث ان صنف بعد عودته كتابا سماه « ضياء النبراس » فى حل مفردات الانطاكي بلغة فاس (111) ذكر فيه شيوخه فى « الاسبطالية الكبرى » بالقصر العيني الذي اسس عام 1827 م بأمر من الخديوي محمد ، ويعتبر هذا الكتاب فى نظري نقطة تحول فى تاريخ الطب المغربي حيث يحاول المؤلف التوفيق بين الشهور والبروج والأدوية وانواع النباتات المتداولة فى الشرق والغرب وفى المغرب مصححا فى بعض الأحيان اغلاط سلفه ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه فى مصر وتقاليد اطباء المغرب وصيادلته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة باوربا وامريكا ، ويأتي احيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والافرنجية مع تخليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة كالتصعيد والتقطير ، وقد نقل من مصر نماذج عديدة من النباتات والعقاقير والادوية ، ويحكى عن تجارب شيوخه فى قصر العيني واسهامه الشخصي فى هذه التجارب وقد ذكر انه شاهد زرافة مصبرة بالقصر العيني خلال قراءته على الحيوانات (الضياء ص 57) وشارك فى تحضيرات بالمعمل الكيماوي بمصر (ص72)

وقد نقل عن نحو الخمسين مؤلفا منهم ابن الخطيب (ص 80) والوزير الغساني صاحب الحديقة وعبد الرحمن الفاسي وعبد القادر ابن شقرون والطبيب الصيدلي العجلاني والطبيب المصري احمد بن حسين الرشدي الذي عاش اول القرن الماضي وابن الحشاء صاحب تفسير الالفاظ الطبية واللغوية الواقعة فى الكتاب المنصوري (108) . وقد اسس الطبيب مولاي عبد السلام العلمي **مصحة صغيرة بفاس** عمل بها حتى توفي عام 1323 هـ ، **ورسالة العلمي هذه مشحونة بالاصطلاحات الحديثة ووصف العمليات العلمية التي كانت تجري بالقصر العيني وانواع العلوم التي كانت تدرس به مثل علم التشريح الهيكلي والعضلي والمفصلي والتشريح العصبي والتاريخ الطبيعي والكيمياء الطبية والأقرباذين** (الصيدلة) وطب الرمد والامراض الجلدية والداء الزهري وعلم الحيوانات المصبرة واحجار المعادن وامراض النساء والاطفال (فى اسبطالية امراض النساء بمصر) .

ويعطينا كتاب « ضياء النبراس » صورة عن **الاختلاف الملحوظ فى المصطلحات العلمية بين الشرق العربي والمغرب الاقصى الذي عرف عشرات الاعشاب** والنباتات باللسان البربري انفرد بها المغرب . ويتجلى من الصراع السياسي والعسكري الذي بدأ المغرب يخوضه منذ بداية هذا القرن ان التعليم العربي اصبح يسير رويدا نحو التقلص الى أن انحصر فى جامعة القرويين وروافدها المحدودة التي بعد عهدها بالعلوم . وازدادت اللغة العربية ابان الحماية تقلصا عندما اتخذ الاستعمار اللغة الفرنسية اداة وحيدة للتلقين فى المدارس وقام « التعليم الحر » المعرب برد فعل عنيف

110) الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 367 .
111) طبع بالمطبعة الحجرية بفاس عام 1318 .

بمعرب تدريس العلوم وخاصة بشمال المغرب حيث توجهت افواج من الطلبة لاستكمال دروسهم فى الشرق، وكانت الحماية الاسبانية فى هذه المنطقة اقل مضايقة للمواطنين فتكاثر عدد المتخرجين من الشرق العربي وشجع الباب المفتوح الطلبة على متابعة دروسهم الثانوية فى المعاهد المصرية على عكس ما ابتدعه الفرنسيون فى منطقة نفوذهم بالجنوب من اساليب المكر والدسائس للقضاء على لغة الضاد . ومع ذلك فقد واصل « التعليم الحر المعرب » رسالته الخالدة محافظا على كيان اللغة بالرغم من « تفرنس » اغلبية المثقفين وازدواجية ثقافة الاقلية الضئيلة من هذه النخبة التي تزعمت بروحها العربية الاسلامية حركة الثورة ضد الاستعمار . وكان التعليم المعرب يستورد خفية من الشرق — وخاصة من مصر — جملة من المصنفات معظمها فى الآداب واللغة والنحو وظل الحاجز كثيفا بين لغة عربية علمية تتطور فى الشرق وتواكب النهضة الجديدة وبين عربية تص جناحها فى المغرب الاقصى لا كلغة علمية بل كمجرد لغة ، وقد قامت الصحافة العربية بدور هام فى تجديد الصلة بين الشرق والمغرب متتبعة البحوث الجديدة ومصطلحاتها المولدة فى الاقتصاد والسياسة والقانون وتاريخ المذاهب الشيوعية والاشتراكية والنزعات الأدبية والفنية المستطرقة مقتبسة فى ذلك ما راج فى الشرق العربي من تعابير ومفردات وطفق المغرب بعد استقلاله فى عام 1956 يتطور ببطء نظرا لتراكم المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فرسم التخطيطات فى شتى الميادين الحضارية وضاعف حصص اللغة العربية فاكتمل الآن تعريب السلك الابتدائي وان كانت قلة الأطر المغربية الصالحة تهدد بتحجر هذه الحركة، وظل الثانوي فى طوريه يلقن العلوم بالفرنسية عدا التعليمين الحر والأصلي اي الاسلامي الذي هو من روافد جامعة القرويين بكلياتها الجديدة (الشريعة بفاس ، واصول الدين بتطوان ، واللغة العربية بمراكش) كما ظل اقبال المغاربة ملحوظا فى مدارس البعثة الفرنسية التي بدأت منذ يناير من سنة (1969) تلقين العربية لتلاميذها . وقد تزايدت حصة اللغة العربية فى معظم الاسلاك بينما احدثت اقسام معربة فى كليتي الآداب والحقوق والمدرسة العليا للاساتذة مع بقاء الكليات التقنية ككلية العلوم ومدرسة المهندسين ومعاهد الفلاحة والاكاديمية العسكرية فى معزل عن اي تعريب ، ولذلك يلاحظ ان الأطر ما زالت تستعمل الفرنسية تبعا للغة الخبراء الفنيين الذين يقل عددهم نسبيا بفضل حركة المغربة (112) على ان هذه المغربة لا تواكب حركة التعريب فقد ظلت لغة معظم الاختصاصيين المغاربة اجنبية فى تحرير النصوص والخطابات والمناشير وكذلك التخاطب فى المحافل والمؤتمرات باستثناء وزارة العدل والمرافق التابعة لها حيث شمل التعريب جميع المحاكم) ولعل المشكل واحد فى مجموع اقطار المغرب العربي — عدا ليبيا — نظرا لما نتج عن تعميم التعليم (أزيد من مليون طفل اليوم بالمغرب بدلا من ربع مليون قبل الاستقلال) من هلهلة فى تكوين الاطر وضعف فى المستوى والظاهرة الغريبة هي أن جامعة القرويين نفسها قد تضامل طلبتها لكون ازدواجية اللغة ما زالت متياسا لتقييم الأهليات فى مختلف مجالات الحياة ، ولم تكد تمر اربع سنوات على الاستقلال حتى شعر جلالة المرحوم محمد الخامس بفعل الرواسب التي تباعد بين جناحي العروبة خاصة فى حقل المصطلح « العلمي والتقني » فدعا عام 1960 الى عقد « مؤتمر للتعريب » انبثق عنه فى اطار جامعة الدول العربية المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربي ، ذلك المكتب الذي يستهدف الاستفادة من تجربة الجناح الشرقي لدعم حركة التعريب فى الجناح الغربي ، وقد نشر هذا المكتب عدة معاجم فى العلوم بلغات مختلفة ، كما اصدر « اللسان العربي » وهي مجلة دورية للابحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب فى العالم العربي ، واسس مكتبة للعلوم زاخرة بأحدث ما اصدره الشرق من مصنفات فى مختلف القطاعات التقنية ، وقد خطط لنفسه تصميما عشاريا غايته الأساسية استكمال الاداة العلمية والتقنية فى امد محدود بتوحيد المصطلحات واستقرائها تعزيزا لصراع ثقافي تخوضه لغة الضاد كلغة عمل فى كثير من المحافل الدولية ، وقد اندرج هذا العمل التنسيقي ضمن مشاريع تسهم فيها المجامع والمجالس العليا والاتحاد العلمي العربي والجامعات والهيآت الثقافية فى مختلف العواصم العربية ومآت الاختصاصيين الذين يراسلون المكتب الدائم من جميع انحاء العالم العربي .

وقد بدأ هذا الكفاح يؤتي اكله باقناع النخب المغربية — القليلة الصلة بالثقافة العربية — بفعالية لغتنا القومية فى مجال الحضارة والعلم كأداة طيعة للتخاطب فى الحقل الدولي ، ولكن هذا الاقتناع لن يتم

112) ما عدا قسما يسيرا تعمل وزارة الوظيفة العمومية على تعريبه بدروس خاصة تنظمها للموظفين .

الا اذا استقصينا تدريجيا المصطلحات التقنية التـــي اصبحت حتى عند دول كبرى كفرنسا مثار غزو ثقافي بسبب ما تزج به مخابر الكشوف فى الأسواق الدولية من مصطلحات تقنية يبلغ عددها خمسين مصطلحا فى كل يوم

هذا وان مواكبة حضارة العصر الحديث لن تكتمل بالنسبة الينا معاشر العرب الا اذا توازت فيها ذاتيتنا العربية مع انسانيتنا الحضارية ، والمقوم الجوهري لهذه الذاتية هو اللغة العربية التي ظلت ــ كما يقول ماسنيون Massignon اداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الحقل الدولي وعنصرا جوهريا للســـلام فى مستقبل الأمم والشعوب » .

تدريس العربية كلغة حية في الولايات المتحدة الأمريكية

الدكتور سامي عياد - الدكتور نجيب جرجس
الولايات المتحدة

بالرغم من ان دخول اللغة العربية في برامج عدد كبير من الجامعات الامريكية ظاهرة حديثة ، فان الاهتمام بها نما نموا مطردا خلال السنوات العشر الاخيرة . وهناك من الادلة ما يفيد بان الدراسات العربية اصبحت ميدانا علميا هاما وان عدد الجامعات الامريكية التي تقدم في برامجها اللغة العربية وحضارتها العريقة قد بلغ اكثر من ثلاثين جامعة .

ولكن هذا الاهتمام وهذا التوسع اثار مشاكل تربوية واصبح السؤال الذي يردده كل استاذ هو كيف ندرس اللغة العربية ومن اين نبدأ .

فهناك الفصحى والعامية . اما العامية فنحن نعلم ان هناك لهجات عربية عديدة فمنها اللهجة اللبنانية والمصرية والتونسية والمغربية وهكذا .. وتزداد الصورة تعقيدا بان كلا من هذه اللهجات لها لهجات محلية . ففي مصر نرى اللهجة القاهرية واللهجة الصعيدية . ثم تزداد المشكلة تعقيدا بان الكتابة العربية نفسها — بدون شكل — تسمح بنطق كلمة واحدة في عدة أوضاع بمعانيها المختلفة . فمثلا (ك ت ب) يمكن نطقها باشكال مختلفة .

اقدم عدد من اساتذة علم اللغويات والتربية الحديثة على عدد من الحلول . فمنهم من يعتقد ان الطالب الامريكي يجب ان يتعلم الفصحى فقط قراءة وكتابة . ومنهم من يدعي ان العامية هي التي يجب ان ندرسها لان الهدف من تعليم اللغة هو الاتصال والتفاهم مع الناس في احداث كل يوم العادية . وهناك من يومن بتعليم الفصحى اولا ثم بعد ذلك العامية عن طريق احدى لهجاتها .

وهذه الحلول المختلفة تبدو غير مرضية بتاتا في نظر آخرين يومنون بانه اذا كان الهدف من تعليم العامية هو تمكن الطالب من محادثة الرجل العادي العربي فهو يضيع وقته سدى لان بتعليمه العامية سيحدد له لهجة معينة كما انه وان لم يستعملها في مكانها فهو لن يستفيد منها . فمثلا اذا تعلم لهجة مراكش فقط وذهب بعد ذلك الى بنغازي فلن يمكنه التفاهم الكامل معها . اما اذا تعلم الطالب الاجنبي اللغة العربية المكتوبة او بالاحرى الفصحى بدون التعرض الى اللهجات فهذا يعده البعض اسلوبا غير واقعي في تعليم لغة حية كما انه لا يتفق ونظريات علم اللغويات الذي يدور حول محور هام وهو ان الكلام ياتي اولا وان الكتابة انما هي رمز لما ينطق به المتكلم. وعلى هذا يبدو ان الحل المثالي للمشكلة في نظر هؤلاء العلماء لابد ان **يكون عمليا** ويتفق مع **الواقع اللغوي العربي** وفي نفس الوقت مع **نظريات علم اللغويات الحديثة** . معنى هذا انه اذا واقتنا على ان نبدأ تدريس العربية للاجانب بلغة الحديث فلابد من البدء باللغة العامية . ولكن اية لهجة نختار ؟ والاجابة على هذا السؤال تتوقف الى حد كبير على الهدف من تعلم اللغة نفسها .

لناخذ تعلم الانجليزية كمثل لنا . فالانجليزية الامريكية مثلا التي يتعلمها الاجنبي هي لغة الشمال وليس الجنوب . وفى انجلترا ايضا يتعلم الاجنبي اللغة المعروفة Received English وقد يكون لاختيار هاتين اللغتين عدة اسباب . اولا : انها لغة مهذبة للحديث . وثانيا ان لها اهمية خاصة فى التطبيق والاستعمال العام . بمعنى آخر ان اللغة التي تدرس هي التي تمكن الطالب من تحقيق الاتصال والتفاهم الكامل مع اصحاب هذه اللغة بحيث يفهمهم وهم يفهمونه .

لنعد الآن الى العربية التي هي لغة ما يقرب من تسعين مليون عربي كما انها **لغة القرآن الكريم التي يعرفها ما يقرب من سبعمائة مليون مسلم فى العالم** . ونحن نعلم ايضا انه منذ ظهور القومية العربية فقد **ظهر فى الافق العربي يقظة ورغبة قوية فى تحقيق الوحدة الثقافية واللغوية** . شكرا للتبادل الثقافي ووسائل الاعلام المختلفة فى البلدان العربية . اما **الفروق اللهجوية فلم تعترض قط طريق الوحدة الثقافية** . وظهر خلال هذه العملية نوع جديد من لغة الحوار وهو ما يمكن ان نسميه **باللغة المهذبة** او لغة المتكلمين خصوصا تلك اللغة التي تتميز بها مراكز الثقافة الكبرى التي يفهما الجميع حتى الذين لا يتكلمونها . وهذا هو بالضبط السبب الاهم فى ان الطالب الاجنبي الذي يرغب فى تعلم اللغة العربية يجب ان يتجه الى احد هذه المراكز الكبرى حيث يمكنه ان يجد وسيلة للتفاهم تساعده ليس فقط على فهم جزء من العالم العربي بل جزء مهم من الحضارة العربية .

ولا شك ان هنالك مراكز هامة للثقافة العربية مثل القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت وفاس . وكلنا نعلم ان القاهرة بالذات تتمتع بكثير من الامتيازات كما ان لهجتها « المهذبة » او لهجة المتعلمين فيها تعتبر مهمة جدا بالنسبة للطالب الامريكي الذي يبحث عن وسيلة تمكنه من التفاهم مع اكبر عدد من العرب فى بلادهم المختلفة . ولكن ليس معنى هذا ان اللهجة المهذبة القاهرية هي الوسيلة الوحيدة لهذا التفاهم بل اللهجة المهذبة الرباطية والبيروتية والبغدادية يمكنها ان تقوم بنفس العملية وتحقق نفس الاهداف .

واللهجة التي يفترضها اصحاب هذه الطريقة الحديثة هي التي يتحدث بها الشباب العربي المتعلم الذي حصل على قسط وافر من التعليم الجامعي . وهي ايضا التي يذاع بواسطتها بعض البرامج الاذاعية العربية فى كثير من المدن العربية الكبرى . والسبب فى اختيار هذه اللهجة هي انها مفهومة تماما فى جميع البلاد العربية . وشكرا لوسائل الاعلام الحديثة من تلفزة وراديو وافلام سينمائية التي قربت هذه اللهجة الى عدد كبير من الشعوب العربية . فهي لغة مقبولة للجميع وتتمتع بشهرتها المعروفة واحترامها .

فالذي يقترحه اصحاب هذه النظرية فى اول خطوة لتعليم العربية هو البدء باللهجة المهذبة .

وهنا يجب تحديد العلاقة بين ما نسميه « بالعامية » « والفصحى » . فاية لغة من لغات العالم لا تتكون من عنصرين فقط يمكن تحديدهما تحديدا واضحا . بل بالاحرى تتكون من « مستويات كثيرة » وكل مستوى يرتبط بمستوى ثقافي معين ووظيفة معينة . ولكي يكون استخدام العربية فعالا يجب على الدارس والمدرس ان يكونا متيقظين لهذه المستويات وان العربية نمت وزادت بلاغتها على مر الايام والاجيال . وعلى ذلك يمكن ان نميز على الاقل ثلاثة مستويات عامة :

اولا : **العربية الفصحى او لغة القرآن الكريم** .

ثانيا : **العربية الحديثة وهي تشمل ما تقراه فى الصحف اليومية والمجلات والاذاعة** . وفى نطاق هذا المستوى لابد من تاكيد الكتابة الرسميةرغم ان هناك الآن كتابة لبعض العامية : الاغاني مثلا ، والامثال العامية ، والقصص الخرافية .

ثالثا : العربية الخاصة بالحوار او التحدث اليومي وهي تمثل **اللهجة المهذبة** التي تحدثت عنها . وهنا يجب ملاحظة ان العامة العرب غير المتعلمين يستخدمون الكثير من النماذج بالعربية الفصحى (عند ذكر بعض آيات القرآن الكريم او الحديث الشريف او اصطلاحات معينة مثل « حالا » و « بسرعة » . و « اهلا وسهلا » . الخ) .

ولسنا فى حاجة الى تاكيد الحقيقة وهي ان **هذا التقسيم لا يعني مطلقا ان كل قسم منفصل تماما عن الآخر** . فهذا ليس من شأن اللغات الحية . ومن هنا يؤكد لنا اصحاب هذا الراي — وهو رايي انا ايضا ان « **اللهجة المهذبة** » **تستخدم كقنطرة تسهل الانتقال من لغة الحديث الى اللغة الفصحى** فمثلا حرف «القاف» يتردد كثيرا فى لغة الحديث خصوصا عند ذكر كلمة « القرآن » و « القاهرة » فهذه اللهجة المهذبة تحتوي

على كلمات كثيرة من الفصحى وتتبع ايضا عن قرب قواعد الفصحى .

كما ان اللغة العربية المعاصرة او الحديثة يمكن بسهولة تمييزها عن الفصحى عن طريق الكلمات الجديدة التي تحتويها . فنحن نقول الآن « تلفزيون » او « تلفزة » و « فيلا » .

وبالنسبة للعامية يمكن تمييزها عن الفصحى بما يحدث من تغيير فى بعض الاصوات فمثلا تقول « كتب » بدلا من « كتب » و « ولد » بدلا من « ولد ـــ ولدا ـــ ولد » .

وايضا الولد او الولد بدلا من الولد ـــ الولد ـــ الولد ، يفتح بدلا من يفتح (باللهجة المهذبة القاهرية مثلا) .

وايضا تغيير صوتي فى بعض الحروف مثل (ت) بدلا من (ث) فنقول مرة « تانية » ، وعشرين تانية ، (داب) بدلا من (ذاب) و (ازا) بدلا من (اذا) .

ثم ايضا نلاحظ التفخيم : / فرد / و / فرض /

والاساس الهام الذي يبنى عليه تعليم اية لغة اجنبية هو التقدم من لغة الحديث الى الكتابة او من الصوت الى الرمز . ولهذا السبب تستخدم الرموز الصوتية فقط فى المرحلة الاولى حتى يمكن للطالب ان يتلقن كل الاصوات ويميز بينها بدقة . ولكي يتم تحقيق ذلك نقدم نماذج « زوجية » خاصة Minimal Pairs مثل : (دم) ، (ضم) لتوضيح التفخيم .

(كلب) / (قلب) لتوضيح اهمية نطق احرف معينة فى معنى الكلمة .

(س) / (ساد) لتوضيح اهمية الاصوات الطويلة .

وفى هذه النماذج يكون التركيز على ابراز اختلاف واحد فقط لان الاستماع يأتي قبل النطق وان القدرة على تمييز الاختلاف فى الاصوات يأتي قبل اعادة انتاجها. وبمجرد أن يتمكن الطالب الاجنبى من ترديد النماذج الصوتية الاساسية يمكنه بسهولة ان ينتقل الى الكتابة ومنها الى الفصحى .

كيف نقدم الفصحى بعد ذلك ؟

لعلنا نذكر كثيرين منا عندما بدأوا يتعلمون العربية الفصحى فى اول سنة ابتدائية رددوا كلمات وامثالا مشهورة مثل (قتل) ، (ضرب) ، اما فى اللاتينية مثلا فتعلمنا « حب » وما شابهها . وليست المشكلة فى الواقع مشكلة معان ولكن المشكلة هي انه لم يكن هناك اهتمام بفكرة «التدرج» فى تقديم «الاصوات» وتركيب الجملة او مميزات تراكيبية خاصة Morphological distinction وانتقلت هذه الطريقة الى الغرب فى تعليم العربية واصبح الاهتمام منصبا على المفردات والقواعد الصماء .

وفى السنين الاخيرة لاحظنا ان بعض اساتذة العربية فى الجامعات الامريكية التي تقوم بتدريس العربية قد الفوا كتبا خاصة لتعليم العربية للمبتدئين ووصلوا فى تفكيرهم الى اهمال كل المستويات اللغوية والتركيز على ما اطلقوا عليه اسم « **العربية الحديثة** » Modern Standard Arabic **وبهذا الاسلوب يبدو انهم قد فشلوا فى تقديم العربية كلغة حية لها مستوياتها** الثقافية والنشاطية المختلفة . فالرمز المكتوب هو التعبير الوحيد للعربية وينتج من هذا انه من المستحيل للطالب ان يفهم الكثير مما يسمى « العربية الحديثة » عندما يستمع الى حديث او اغنية عربية بالاذاعة او خطبة عامة او ادب شعبي . اضف الى ذلك انه اذا استخدم الفصحى الحديثة فى حواره فانه يكون يتكلم ككتاب لا يعبر عن واقع لغة الحوار .

وعلى ضوء هذه الانتقادات تقدم الفصحى فى المرحلة الاولى من تعليم العربية فى نطاق الاساليب الآتية :

اولا : **ان المحتويات التركيبية يجب ان تقدم بالتدريج على اساس البساطة فى التركيب ، التكرار ، والقيمة العلمية** . وبناء على ذلك فمن الناحية الصوتية تقدم الاصوات السهلة والتي تماثل لغة الطالب الاجنبي اولا (فحروف القاف والعين والحاء والخاء والغين تؤجل الى فترة متقبلة) ومن الناحية الاعرابية والصرفية فالجمل الاسمية تقدم قبل الجمل الفعلية : مثل انا من ليبيا ، الرباط مدينة جميلة .

ومن الناحية التركيبية تقدم بعض الضمائر الهامة فقط مثل : انت ، انتِ ، انتم .

ثانيا : **يجب على النماذج التركيبية ان تمثل الثقافة والحضارة** العربية وان تبرز الهام منها . كالحج وشهر رمضان المبارك والعائلة العربية وخلافه بدلا من « اين الفيل يا خليل » او « عقد مجلس الوزراء جلسة خطيرة » .

ثالثا : في تطبيق مبدا التدرج وربط النماذج بالحضارة يتحقق غرضان مهمان : الاول هو ان الطالب في هذه المرحلة الاولى الحرجة يبدا بالشعور بالنجاح بدون الالتجاء الى « ضغط من الذاكرة » وثانيا ان رغبته في المزيد من التعليم تزداد ومعها تزداد شهيته لمعرفة الثقافة الجديدة التي تمثلها اللغة . او بمعنى آخر **ان النماذج اللغوية يصبح لها معنى في ذهن المتعلم مما يجعل عملية التعلم ممتعة وفعالة** . وكلنا نعلم ان **اول اتصال في تعلم لغة اجنبية له اهمية قصوى في مواصلة تعلم تلك اللغة** .

نعم فهناك في بعض الاحيان فرق واضح بين كلمة عامية ومقابلها بالفصحى — مثل (بالزاف) و (كثير) ولكن هنا تبدو ابداعية استاذ اللغة في اختيار النماذج المشتركة بين اللهجة المهذبة والفصحى — كالامثلة التي سبق الاشارة اليها . هذا هو **القاسم المشترك** الذي عليه يبني المعلم المرحلة الاولى من تعليم اللغة العربية للاجانب .

اما من حيث **القواعد** فكلما ذكرت ان النماذج التي تقدم يشتق منها الطالب القاعدة بدلا من تقديم القاعدة في قالب اجوف لحفظها فقط .

وهنا تلعب التمارين الخاصة بكل درس دورها الهام في عملية التعلم فبدلا من سؤال الطالب اعرب ما ياتي : او استخرج اسم المفعول من كل فاعل — نقدم تمارين من نوع جديد متفق عليه ونظريات اصول التعلم وعلم اللغويات . فتمارين الاستبدال Substitution مثلا والتحويل Transformation وغيرها من التمارين الفعالة التي «تثبت» ما يتعلمه الطالب . فمثلا : هو من القاهرة

هي

انا

انت

بيروت

هذا مسجد

هذه مدينة

هذا مسجد جميل

هذه مدينة جميلة

اما المفردات فيجب الا تبعثر في الدروس بلا نظام او احكام . فالكلمات التي تتركب منها النماذج التركيبية يجب ان يكون اختيارها في غاية الدقة والتحديد مع تكرارها في الدروس المتتالية حتى يتمكن الطالب من التركيز على النماذج الاساسية التركيبية بدلا من مجرد ضغط كلمات لا معنى لها .

هذا ملخص مختصر لاحدث طرق تدريس اللغات الاجنبية ومن ضمنها العربية بمستوياتها الثقافية المختلفة .

أبحاث مختلفة

- العلوم الطبيعية فى القرآن
  للشيخ طـــه الولـــي

- الاعداد العلمي فى الوطن العربي
  المؤتمر الثقافي العربي الثامن

- التانيث فى العربيـــــة
  للاستاذ عبد الحق فاضل

- علم الأصوات الحيوانية عند العرب
  للاستاذ عبد الهادي الفضيلي

- ملاحظات حول النقد الادبـــي
  للدكتور محمد رجب البيومي

- الحضارة الاسلامية بين الماضي .. والمستقبل
  للاستاذ احمد عبد الرحيم السايح

- نقـــد الكتـــــب
  للدكتور ممدوح حقي

- الموسيقى لغة الـــروح
  للاستاذ ابراهيم الدرويش المصري

العلوم الطبيعية في القرآن

الشيخ طه الولي « بيروت »

بين ايدي الناس الآن كتاب جديد عنوانه «العلوم الطبيعية في القرءان » من تاليف العالم الفيزيائي الكبير الاستاذ يوسف مروه من افاضل جبال عاملة في جنوبي الجمهورية اللبنانية ، وقد تفضل المؤلف الكريم فاهداني هذا الكتاب . وانه ليهمني التاكيد بانني لدى مطالعته ، وجدتني امام **محاولة جريئة لدراسة القرآن** الكريم باسلوب الرجل المسلم المؤمن الذي اراد ان يتصدى للحملة التي اثار اوارها وخاض غمارها بعض اساتذة الجامعة الامريكية ببيروت تحت شعار **التناقض المزعوم بين المعطيات العلمية ، الحديثة ، وبين مسلمات العقيدة الدينية ، القديمة** . وليس من شك بان هذه الحملة التي اضطربت بضجيجها اروقة الجامعة المذكورة ورددت صداها بالنقد والتعليق اقلام الكتاب في عدد من الصحف ببيروت وخارجها ، ليس من شك في ان **هذه الحملة ليست وليدة العصر** الذي نعيش فيه اليوم ، بل انها مالوفة من قبل ، وهي ما زالت تتردد وتتجدد من قديم الزمان حتى اليوم لاسباب تتفاوت من حيث منطلقاتها وغاياتها ما بين القلق الفكري المجرد وبين النزوات الشخصية المشبوهة .

وليس لنا الآن ، ان نرسل القلم على غاربه في جولة استعراض تفصيلي للمراحل التاريخية التي مر بها مبدأ الايمان بالله الذي ارست قواعده الاديان السماوية مع تلك الطائفة من الكتاب الذين تجلببوا برداء الافكار الفلسفية او قطروا اسماءهم بقافلة من الالقاب العلمية الجذابة ، لاننا نرى ان مثل هذا الاسترسال ، من شانه ان يقودنا الى الخروج عن جادة الموضوع الرئيسي الذي نريد ان ناخذ به نفسنا الآن، وهو الموضوع الذي اردنا قصره على ما جاء في الكتاب الذي قصد به مؤلفه الاستاذ يوسف مروه اثبات **العلاقة الحتمية الوثيقة بين التفسير العلمي الحديث للظواهر الكونية المادية البحت ، وبين المعاني الالهية الخالدة التي التحفت بها** ؛ بين حين وحين بعض آيات القرءان الكريم في اثناء دعوتها الناس من كافة الاجناس الى الايمان بوجود الله الخالق الديان .

على انه، لابد لنا من التقديم بين يدي موضوعنا، ان كتاب الاستاذ مروه الذي تدور فصوله وابوابه ، حول رغبة المؤلف بربط **اغراض القرءان الكريم مع ما توصل اليه العلماء المعاصرون من اراء وافكار ونظريات في الجغرافية والفيزياء والفلك** وما الى ذلك من العلوم الانسانية الوضعية والمادية ، نقول ، انه لا بد لنا من التقديم بان هذا الكتاب ليس جديدا في بابه او مادته ، فلقد سبق ان نحا هذا النحو الجدلي،في دراسة القرءان الكريم وتفسيره ، غير الاستاذ مروه من الكتاب المسلمين الذين ارادوا ان يلتقطوا قفاز التحدي ويرموا به في وجه المستكشفات والاختراعات العلمية ، من طريق اقامة الدليل العقلي بان القرءان الكريم كان اسبق من كل ما عداه من كتب البشر الى التحدث عن هذه المستكشفات والاختراعات في العديد من آياته وسوره التي نزل بها الروح الامين بالوحي السماوي ، على قلب الرسول الاعظم سيدنا وسيد الخلق اجمعين محمد صلى الله عليه وسلم .

ففي أواسط العقد الثالث من النصف الاول للقرن العشرين الذي نحن فيه ، كثر الحديث عن احد المؤلفين المصريين الذى **حاول تفسير القرءان الكريم تفسيرا علميا يتجاوب فيه مع روح العصر** الذي تطورت فيه الافكار الانسانية وراح يطلق قلمه وراء ما يسبح عبر الفضاء الرحب من الكواكب والاقمار والشموس ، او يغوص بهذا القلم ، الى داخل أحشاء الارض باحثا فى هذه الاحشاء عما يتقلب فيها من عوالم الجماد والحيوان والنبات ليبرهن للناس ان الغلاف الخارجي للكون والاعماق الداخلية فيه ، احاط به كتاب الله فى كلامه الازلي بالتفصيل والبيان والايضاح ، وهذا المؤلف هو الشيخ **طنطاوي جوهري** ، الذي كان استاذا فى دار العلوم المصرية والمتوفى سنة 1358 هـ (1940 م) فقد صنف هذا الشيخ كتابا تحت عنوان : « **الجواهر فى تفسير القرءان الكريم** » وطوى صفحاته التي تجاوزت المئات عددا ، على تفسير القرءان الكريم « تفسيرا ينطوي على كل ما وصل اليه البشر من علوم » على حد قوله .

فقد اخذت فكرة تفسير الظواهر الكونية من خلال تفسير القرءان الكريم ، بلب الشيخ طنطاوي جوهري وملكت عليه احاسيسه ومشاعره حتى اعتقد بأن العناية الالهية اختارته من بين سائر الناس للقيام بكبر هذا العمل فاطلق قلمه عبر كتابه بنداء وجهه الى المسلمين قاطبة قال فيه :

« يا أمة الاسلام ، آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية ، فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم ، وهذا زمان ظهور الاسلام .. هذا زمان رقيه . ياليت شعري ، لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ، ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث ولكنني ، اقول ، الحمد لله ، الحمد الله ، انك تقرأ فى هذا التفسير (ويقصد كتابه) خلاصات من العلوم ودراستها افضل من دراسة علم الفرائض ، لانه فرض كفاية ، أما هذه ، فانها للازدياد فى معرفة الله وهي فرض على كل قادر .. ان هذه العلوم التي ادخلناها فى تفسير القرءان ، هي التي اغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الاسلام .. فهذا زمان الانقلاب وظهور الحقائق .. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

ثم ان هذا الشيخ يتابع نداءه مسترسلا فى حماسته واندفاعه ويقول :

« ان نظام التعليم الاسلامي ، لا بد من ارتقائه ، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرءان بل هي علوم لفظه ، وما نكتبها اليوم ، علوم معناه ، وانطباقها على العلوم التي اظهرها الله فى الارض وبعد هذا الزمان سيظهر فيه آثار قوله تعالى « ثم ان علينا بيانه » فان البيان المذكور ، فى سورة القيامة ، فسر بمعنى اننا نبينه بلسانك فتقرأ كما قراه جبريل ، وبمعنى انه اذا اشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك ، وعلينا بيان ما فيه من الاحكام والعجائب ، ولا جرم ان ما يتحدد اليوم من العلوم مما ذكر فى هذا التفسير ، وما لم يذكر، من البيان الذي اكد الله انه يظهره لامة الاسلام»

وهكذا ، يمضي الشيخ طنطاوي ، من خلال حماسته بما اقتنع به ، فى تحميل كل آية من كل سورة فى القرءان الكريم من التاويل والتحليل والعليل ، ما لم ينزل به من عنده الله برهان ولا شاهد ولا دليل .

واذا كان المتقدمون من العلماء قد انفقوا حياتهم فى استنباط المعاني التي تؤدي اليها آيات القرءان الكريم لتحديد العقيدة الاسلامية فى توحيد الله عز وجل وبيان اغراض الشريعة فى ضبط علاقة الناس بخالقهم من جهة وبانفسهم من جهة ثانية ، فان الشيخ طنطاوي جوهري قد انفق حياته فى تتبع هذه الآيات وتخريج معانيها وفق ما توهمه فيها من اشارات الى الدراسات التي يقوم بها رواد العلوم النظرية والمادية وراء مكاتبهم وتحت أضواء مختبراتهم ومعاملهم ثم هو لا يكتفي بعرض آرائه وتقريرها بصورة متحدية جازمة، بل انه يتوجه باللائمة على اولئك العلماء السابقين بقوله :

« لماذا الف علماء الاسلام عشرات الالوف من الكتب الاسلامية فى علم الفقه .. وعلم الفقه ليس له فى القرءان الا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التاليف فى علم الفقه ، وقل جدا فى علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة ؟ بل هي تبلغ **سبعمائة وخمسين آية صريحة** ، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة ، فهل يجوز فى عقل او شرع ان يبرع المسلمون فى علم آياته القليلة ، ويجهلوا عاما ، آياته وهي كثيرة جدا ، ان آباءنا برعوا فى الفقه ، فلنبرع نحن الآن فى **علم الكائنات** ، لنقم به لترقي الامة » .

واذا نحن اقبلنا على قراءة كتابه « الجواهر فى تفسير القرءان » نجده يحشد فى هذا الكتاب الفريد من نوعه كثيرا من صور النباتات والحيوانات ومناظر

لطبيعة وتجارب العلوم لكي يؤكد لقارئه ان ما يقوله في تفسيره من طرائف وغرائب هو الحقيقة بعينها بناء على ما يقدمه من تلك الصور والمشاهد الحسية .

وعندما تعوزه الصور والمشاهد الحسية فانه يستنجد بما جاء عن افلاطون في فلسفته او بما ردده اخوان الصفا في رسائلهم فاذا لم يجد عند افلاطون او اخوان الصفا ما يرتكز عليه في ارائه فانه لا يتورع من الاعتماد على الارقام العددية التي ينظمها حساب الجمل المعروف .

ومن الغريب حقا ، ان نجد الاستاذ يوسف مروه يعالج موضوعه في كتابه « العلوم الطبيعية في القرءان » بنفس الاسلوب الذي اعتمده الشيخ طنطاوي جوهري في كتابه « الجواهر في تفسير القرءان » حتى يكاد يخيل لنا ان كلا الرجلين نهلا من معين واحد وهما يدرسان القرءان الكريم ويفسران آياته . فالاستاذ يوسف مروة يؤكد في كتابه المذكور ان **« ميزة القرءان الكبرى انه اورد صورة بسيطة واضحة وسهلة للكون والطبيعة تنسجم تماما مع صورة الطبيعة البسيطة التي كشفت عنها الفيزياء الحديثة . »**

ومثلما فعل الشيخ طنطاوي جوهري حين احصى في القرءان الكريم حوالي سبعمائة وخمسين آية من الآيات التي تحتوي على مبادىء العلوم الكونية فان الاستاذ يوسف مروه قام بدوره باحصاء هذا النوع من الايات فقال :

« واذا عبرنا بطريقة كمية عن هذه المواضيع العلمية القرءانية ومقدار ورودها ووجودها في القرءان لتبين لنا اكثر من عشر الآيات القرءانية تتعلق بمواضيع العلوم الطبيعية وعلى وجه التدقيق 670 آية تبحث في شتى المواضيع العلمية موزعة كما يلي :

الرياضيات	61 آية
الفيزياء	64 آية
الذرة	5 آيات
الكيمياء	9 آيات
النسبية	62 آية
الفلك	100 آية
المناخيات	20 آية
المائيات	14 آية
الرياضيات	57 آية
علم الفضاء	11 آية
علم الحيوان	12 آية
علم الزراعة	21 آية
علم الاحياء	32 آية
الجغرافية العامة	73 آية
علم السلالات البشرية	10 آيات
علم طبقات الارض	20 آية
علم الكون وتاريخ الاحداث الكونية	36 آية
وصف العلم والعلماء والحث على طلب العلم	64 آية

وجريا على العادة التي يتبعها كثير من الكتاب المسلمين بالاستشهاد على صدق الدعوة الاسلامية وصحة ما جاء في القرآن الكريم من قوانين تشريعية ومفاهيم اجتماعية واخلاقية ، فانا نجد الاستاذ يوسف مروه يستهل كتابه تحت عنوانه : « آراء وافكار حول القرآن » بطائفة غير قليلة من الاقوال التي وردت في كتب غير المسلمين من علماء اوربا وفلاسفتها ونختار من هذه الاقوال قول رينورت :

« يجب ان نعترف بان العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة والرياضيات التي انعشت اوربا في القرن العاشر مقتبسة من القرآن » .

« وقول ريتوينورت » :

« يجب ان نعترف ان العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة مقتبسة من القرآن . نجميع العلماء مدينون له ولعل الاستاذ مروه والذين سبقوه او يحاكونه في الاستنجاد باقوال الغربيين لدعم الايمان بالاسلام والقرآن ، لعله وهؤلاء انما يريدون العمل بالقول المأثور . والفضل ما شهدت به الاعداء . ولسنا ندري اذا كانت شهادة الاعداء تصلح دائما لان تكون دليلا يمكننا الاحتجاج به فيما ندلي من آراء واجتهادات وتفسيرات وتاويلات بصدد القرآن الكريم بالذات لا سيما اذا كانت هذه الشهادة تريد ان تصنف كلام الله في عداد التقارير العلمية التي كثيرا ما يناقض بعضها بعضا بين حين وآخر بسبب ما يلابس البحوث العلمية عادة من تطورات مع تقدم الافكار البشرية التي تخضع لظروف الحضارة المليئة بالمفاجآت غير المنتظرة .

على اننا نرى بانه لا يجوز لنا حمل آراء الاستاذ مروه وامثاله من الكتاب والعلماء المسلمين على محمل التنطع فى جر آيات القرءان الكريم الى ساحة الابحاث العلمية البحت بدافع من الفضول والرغبة فى التجديد بما لا طائل منه لصالح القرءان واهدافه الدينية والدنيوية . بل نحن نرى ان ما يذهب اليه الاستاذمروه واحزابه فى هذا الصدد ، انما هو فى الواقع ، رد **فعل عفوي لمواجهة التحديات العنيفة التي تفرضها الافكار المبهورة بما بلغته الحضارة الانسانية من تقدم وتطور وازدهار فى هذا العصر** . كما انه يعتبر بمثابة جواب غير مباشر على الشكوك التي تراود بعض الافهام السقيمة التي القت على كاهل الدين الاسلامي وزر ما يعانيه المسلمون اليوم من مظاهر التقصير عن ادراك شاو الحضارة الغربية فى مستواها العلمي الرفيع .

وها هو الاستاذ يوسف مروه يعلن فى اوائل الفصل الثامن من كتابه الذي نحن بصدده :

« ان الغاية الرئيسية من هذه الفصول المتواضعة هي :

اولا : **ان نثبت للمتزمتين والمتعصبين ضد طلب العلوم الحديثة ، أن القرءان قد دعا وشدد فى طلب جميع العلوم (الدينية والطبيعية)** بلا استثناء ، ولذلك فاننا ندعو رجال الدين للاطلاع بانفسهم على معطيات العلم الحديث لان عدم المامهم بهذه المعطيات قد شجع على انتشار الكفر والالحاد بين افراد شباب المسلمين المثقف ، ذلك ان بعض رجال الدين الذين يجهلون كل شيء عن العلم الحديث ، قد فشلوا فشلا ذريعا فى توجيه الشباب المسلم الى التمسك بتعاليم الدين الحنيف .

ثانيا : ان نثبت للمثقفين المسلمين وغير المسلمين الذين يحاربون الدين باسم العلم ، ان هذا **الدين قائم على العلم وان آيات القرءان وتعاليمه تنسجم انسجاما كليا مع معطيات العلم الحديث** فى ادق واخطر مباحثه وتجاربه واكتشافاته من ذرة وفضاء ونسبية وغير ذلك من المواضيع العلمية الخطيرة ولنؤكد ان العلم الذي دعا القرءان الى طلبه ، والذي اقبل عليه المسلمون ، لم يكن العلوم الدينية والشرعية فحسب ، بل دعا الى طلب العلوم الطبيعية ايضا وان تراث الاسلام فى حقل العلوم الطبيعية لهو اكبر دليل على ما نقول :

وعندما وصل الاستاذ مروه الى آخر هذا الفصل اعلن قائلا :

« وانني فى محاولتي هذه ساقتصر على اهم واخطر مواضع العلم الحديث وهي **الذرة والفضاء والنسبية فى الباني لنفي التناقض بين العلم والدين**».

ولم ينس الاستاذ مروه ، وهو فى ذرة حماسته لاثبات الانسجام التام بين العلوم الطبيعية وبين معاني الايات القرءانية، لم ينس ان يشير الى آخرين من العلماء المسلمين الذين عالجوا بدقة وتفصيل مدى انطباق وتوافق هذه الآيات او بعضها مع مواضيع العلم الحديث وذكر منهم الاساتذة احمد امين واحمد محمود سليمان والشيخ طنطاوي جوهري (الذي تناولناه فى حديثنا هذا من قبل) وكذلك الدكتور احمد زكي فى كتابه « مع الله فى السماء »

واذا كان الاستاذ مروه قد اختار لمواجهة التحديات العصرية الحديثة للاسلام بالكشف عن المعطيات العلمية التي فصلت بها آيات القرءان الكريم فان **الاسلوب الذي التزمه فى كتابه للتعبير عن هذه المواجهة قد تجاوز من غير شك الاغراض التي ارادها الله فى هذه الايات** حتى انتهى به الامر اخيرا الى انتزاع القرآن الكريم من حدود مقاصده التشريعية والتوجيهية وحشره حشرا غير طبيعي الى جانب الكتب الوضعية التي طوى اصحابها صفحاتها على مبادىء نظرية تخضع فى طبيعتها لقوانين العقل البشري هذا العقل الذي هو مستعد دائما وابدا ، لان يرفض اليوم ما قبله بالامس ، وان ينفي فى الغد ما اثبته اليوم وهكذا تبعا لما يعرض له من ظواهر الاشياء التي يعالجها وهو فى طريقه الى الحقيقة العلمية المطلقة التي يبشر بها الانسان فى مسيرته الحضارية غير المحدودة فى هذه الحياة .

وان من يمعن قراءة المقدمة التي استهل بها الاستاذ يوسف مروه كتابه لا بد انه يلاحظ بأن الكاتب الفاضل ، كان شديد الحرص على تأكيد دور القرءان الكريم فى حث المسلمين على اعتماد العقل والتفكير واحصى 64 آية من آياته تحت عنوان « وصف العلم والعلماء والحث على طلب العلم » ولم يكتف بذلك بل انه اختار من آثار المرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني ما كتبه من نحو اكثر من ثلث قرن حول الدين والعلم وجعله فى مطلع كتابه وقال : « اعجبت بدقة وعمق بحثه ورايت من الواجب ان انقل للقارىء بعضاً ما كتبه

هذا الفقيه العالم كتقديم للموضوع الخطير الذي اعالجه » .

وانا لا ندري ، لماذا يصر الاستاذ مروه على اقناع قارئه بان الاسلام يدعو الى التعلم ويطلب الى الناس احترام العلماء ، مع العلم بان احدا منهم لم يزعم يوما بان هذا الدين يدعو الى الجهل او يطلب الى اتباعه تقدير الاميين . حتى خصوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم واعداء رسالته السماوية ، فانهم لم يعلوا فى شتائهم للنبي ورسالته الى حد اتهامهما بانهما ضد العلم واهله . ولو ان المؤلف حصر جهوده فى اقناع قارئه بموضوعه الاساسي، وهو توافق الآيات الكريمة مع ما حققه الانسان المعاصر فى حقل العلوم الطبيعية، لو انه حصر جهوده فى هذا الموضوع فقط لكان وفر على نفسه وعلى قارئه كثيرا من الوقت والجهد .

ثم ان الاستاذ مروه كما يقول الشيخ موسى الصدر ، ساير ذلك الذى قال فى كلمته ان علماء الدين يحماون مسؤولية عدم تفسير النصوص القرءانية والسنن المطهرة . على ضوء العلوم الحديثة . واني من رأى الشيخ المذكور بان **الاطلاع على ظروف علماء الدين الاسلامي يكشف انهم بذلو اضعاف امكاناتهم فى سبيل هذه الغاية الشريفة وقدموا عشرات الكتب بهذا الصدد ، حتى ان بعضهم القوا كتبا فى خواص العلم التجريبية زائدا على تاليف كتب تحاول عرض النصوص والاحكام الدينية بصورة علمية دقيقة فى حقل الفلسفة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والحقوق وغيرها .**

ونحن نزيد على ما قاله الشيخ الصدر بهذا الصدد بانه لا يوجد كتاب فى طول الارض وعرضها من بداية التاريخ حتى اليوم ، خدمه اهله من العلماء مثلما خدم علماء المسلمين كتاب الله وان رفوف المكتبات تكاد تنوء باحمالها من آلاف الكتب التي تتناول القرآن بالدرس والتحقيق والشرح والتفسير وبيان دوره الجبار فى توجيه البشر بمختلف اجناسهم والوانهم الى الحقائق الازلية التي تضمنتها آياته البينات .

ولعلنا نستطيع ان نلفت نظر الاستاذ المؤلف الى الكتاب الذي الفه سماحة الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس ولبنان الشمالي تحت عنوان « قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » لان هذا الكتاب الذي صدر مؤخرا واعيدت طباعته مرارا ، من شأنه على ما نعتقد ان يقنع الاستاذ مروه بان اهل العلم الصحيح من شيوخ المسلمين لم يبخلوا فى اداء واجبهم نحو القرءان الكريم فى الحاضر كما ان السلف الصالح من امثالهم وزملائهم ، لم يبخلوا كذلك فى الماضي فى القيام بهذا الواجب . على ان الفرق بين الاستاذ مروه وبين هؤلاء واولئك انهم فهموا القرآن الكريم على حقيقته وعلى طبيعته فى التشريع التنظيمي والتوجيه الاخلاقي بينما اراد استاذنا الفاضل ان نفهم هذا الدستور الالهي عبر الانفعالات النفسية التي اثارتها موجة التحديات العصرية الوافدة علينا من آفاق العالم الغربي .

وهنا ، اجدني اعود مرة اخرى الى تأييد وجهة نظر الشيخ موسى الصدر الذي يقول :

« ان القرآن الكريم كتاب دين وهداية ، **وليس من مهمته الابحاث العلمية وذكر القوانين التجريبية** ، او وضع اسس للانتاج الثقافي البشري ، **فالقرآن الكريم يحاول ان يصنع الانسان الكامل** الذي هو مبدأ العلوم وغايتها ، ويتقن هذه المحاولة باحكامه الفردية والاجتماعية وتعاليمه المقدسة .

ويقول الشيخ الصدر كذلك :

« واعود لاؤكد ان **تناول القرآن لهذه المباحث (اى العلوم الكونية) هو استطراد** ذكر وامثال ، وليس من مهمة القرآن وضع الاسس ونقل القوانين العلمية ، شأن الكتب العلمية .

ونحسب انه لا يمكننا ان نزيد على كلام الشيخ الصدر ما يزيده بيانا وايضاحا فوق ما هو عليه من البيان والوضوح ، اذ لا يعقل ان ياتي القرآن الكريم ولا اي كتاب سماوي آخر الى الناس بالقواعد المادية والطبيعية التي يقوم عليها الكون لان مهمة الدين ، اى دين ، هي ان ياخذ البشر بالمبادىء التوجيهية التي ترسم امامهم طريق الايمان بالله عز وجل والعمل بما فيه انضباطهم وصلاحهم فى هذه الحياة الدنيا . وليس من مهمة الدين ، فى قليل او كثير ، ان يتناول العناصر التي يتالف منها الكون فى مادته المجردة الا فى حدود المقدار الذي يضرب به المثل للعظة والاعتبار والتامل .

ومثل الكتب السماوية فى هذا ، مثل الدساتير التي يضعها قادة الامم لضبط الافراد والمجتمعات فى نطاق الروابط التي تحكم اواصرهم وتشدهم الى العيش بعضهم مع بعض دون اى تناقض ولا اصطدام .

وان الطريقة التي اخذ بها الاستاذ يوسف مروه في تفسير القرءان وتاويل آياته وفق النظريات العلمية الحديثة يمكننا ان نقول فيها ما سبق ان قالـــه في امثالها غيرنا من جهابذة العلماء المسلمين امثال **الشيخ رشيد رضا الذي نجده ، في مقدمة تفسيره «المنار» ينعي على من تاثروا في تفسيرهم بالنزعة العلمية المادية.** وان الشيخ رشيد **قد نعا على الفخر الرازي ما اورده في تفسيره من العلوم الحادثة في الملة** ، واعتبـــر ان هذا العمل من شانه ان يصرف الانسان عن القـرءان وهديه ، كما توجه بمثل هذا اللوم على الذين قلـدوا الفخر الرازي في طريقته من المفسرين المعاصرين. فلقد قال .. وقد زاد الفخر الرازي صارخا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده ، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلـده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي جوهري) بايراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية ، فصولا طويلـة بمناسبة كلمة مفردة ، كالسماء والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد القارىء عمـا انـزل الله لاجله القرءان .

وبمناسبة الكلام عن جنوح بعض المفسريـن الى الاستطراد في تاويل بعض آيات القرءان الكريم على غير مقاصدها الاخلاقية والتشريعية . فاننا لا نرى باسا من ايراد قصة ذلك المستشرق الذي اراد ان يباسط الامام الشيخ محمد عبده فقال له : انتـم معشـر المسلمين تزعمون ان القرآن يحتوي على كل شيء من العلوم والاحداث كما جاء في الآية 38 من سورة الانعام: « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فهل ورد في القرآن ذكر لاسم شركة « كوك » الانكليزية للسفريـات . فما كان من الاستاذ الامام الا ان اجابه ، على سبيـل المباسطة ، لذلك فورا ! اجل فان اسم هذه الشركـة ورد فعلا في سورة الجمعة حيث يقول تعالى « وتركوك قائما » فكانت تكتة ما يزال الناس يتبادلونها حتـى اليـوم ...

وبعد ، فلقد اطلنا الكلام في نقد كتاب « العلوم الطبيعية في القرءان » حتى كدنا نوهـم قارئنـا بان الاستاذ يوسف مروه قد خرج من جهده في هذا الكتاب على غير طائل ، بينما نحن ، علم الله ، ما لهذا قصدنا وما كنا لنغمط هذا المؤلف العالم حقه من التنويـه بالروح الدينية العارمة التي تشيع في كل من سطور كتابه ، بل وفي كل كلمة من كلماته ، وما كنا كذلك ، لنجحد له فضله في الانكباب على دراسة كتـاب الله سوره سورة ، وآية آية ، كي يخرج من هذه الدراسة بهذا **الكتاب الفذ الذي تضمن من المعلومات القيمة ما يدل على الثقافة العلمية الغزيرة** التي يتمتع بها مؤلفه لا سيما في حقول الفيزياء وما اليها من نظريات حديثة مما يجعله في نظرنا ونظر كل منصف مفخرة شبـاب العرب والاسلام في هذا العصر ، بل نحن خرجنا بعـد دراسة كتابه ، على قناعة وثيقة بان هذا الشاب النابغة يستحق ان يوضع اسمه بين اسماء فطاحل العلمـاء المسلمين الذين اضافوا لتراثنا القومي صفحة مشرقة ليس في تاريخ العرب والاسلام وحسب بل في تاريـخ الفكر الانساني قاطبة . وانه جدير بامتنا ان تباهـل بمكانته العلمية وان تفاخر بذهنه المتفتح اكثر الامـم تقدما وابعدها شاوا في مضمار الحضارة والتطـور والازدهـار .

واذا كان لنا ما نختم به هذا الحديث ، فاننـا نختمه بالتمني على المسؤولين العرب ، بان يفيدوا من مواهب الاستاذ مروه وكفاياته في علوم الذرة والفزياء والكيمياء . هذه العلوم التي اصبحت اليوم ، ميدانـا تتزاحم فيه الامم الحية لاحراز قصب السبق في خدمة اغراضها القومية وتحقيق انتصاراتها العلمية من اجل مستقبل افضل للمجتمع الانساني والحضارة العالمية.

الإعداد العلمي في الوطن العربي

اصدر المؤتمر الثقافي العربي الثامن الذي انعقد بالقاهرة بين 20 و 30 ديسمبر (كانون أول) 1969 توصيات في موضوع اعداد العلميين في الوطن العربي جاء فيه :

« التوصيـــة الاولـــى »
اللغة العربية لغة العلم في التعليم العالي :

لما كانت اللغة القومية لكل امة هي الوعاء الفكري للمواطن ، اذ انها اداة التفكير كما انها وسيلة التعبير.

وتحقيقا للاهداف العلمية والتربوية لوضع المادة العلمية في متناول ادراك الطالب وفهمه دون عوائق لغوية خارجية تزيد من صعوبة المادة وتعمل علـــى الابطاء في استيعابها .

وايمانا بان تاصيل العلم والتفكير العلمي لدى اية امة يتطلب استعمال لغتها القومية في كل مـــن التدريس والبحث العلمي في جميع مراحل الدراسة .

وادراكا ان استعمال اللغة القومية في التدريس والبحث العلمي يزيد من ارتباط العلماء بشعوبهم ومن ارتباط العلم وتطبيقاته بقضايا وطنهم وحاجات أمتهم ومتطلباتها ، ويساعد على الاحتفاظ بهم والحد مـــن هجرتهم .

وتقريرا للحقيقة التاريخية المعروفة ان اللغـــة العربية وسعت في عصور ازدهارها جميع جوانـــب المعرفة العلمية والحضارية ، وكان لها اثرها الواضح في النهضة العلمية الاوربية .

واعتمادا على طبيعة اللغة العربية وسعتهـا ومرونتها وقدرتها على التطور والاستيعاب والتعبيـر عن العلم الحديث وتطبيقاته ، وقد تمثل ذلـــك في التجربة الرائدة التي نهضت بعبئها الجامعة السورية خلال نصف قرن بالتدريس والتاليف في الكليات العلمية العملية باللغة العربية ، والتي تتطلب من الجامعـات العربية الاخرى الاسراع الى التعاون والدعم والمساندة.

ومع الاعتراف بالصعاب الحالية التي تعترض سبيل استعمال اللغة العربية لغة تدريس وبحث علمي في الكليات الجامعية والمعاهد ، والتي تستدعي :

1 ــ اعداد هيئة التدريس .

2 ــ ترجمة المصطلحات وتعريبها وتوحيدها .

3 ــ استكمال النقص في المراجع والمصادر العلمية .

وهي الصعاب التي أمكن التغلب عليها نعملا في مراحل التعليم العام وفي كليات الحقوق وفي الدراسات الاجتماعية والنفسية ، التي اصبح التدريس فيها منذ زمن باللغة العربية في كثير من البلاد العربية امـــرا واقعيا وحقيقة مقررة ، بعد ان كان التدريس فيهـــا

بلغات أجنبية ، وكانت الاعتراضات على تعريبهـــا والصعاب أمام ذلك هي الاعتراضات والصعاب نفسها التي تثار الآن فى مجال استعمال اللغة العربية للتدريس والبحث العلميين .

ومع التأكيد على ضرورة بذل مزيد من العنايـــة باللغات الاجنبية لتكون نافذة تطل على سير العلم فى البلاد الاخرى ووسيلة لمتابعة التطور العلمي فى العالم.

فان المؤتمر يوصي بما يلي :

1 ــ المبادرة الـــى **استعمال اللغة العربية لغـــة للتدريس والبحث العلمي فى جميع مراحل الدراسة بالكليات والمعاهد العلمية والتقنية فى البـــــلاد العربية** ، على ان يصدر فى كل بلد عربي تشريع ملزم بذلك ، وان يكون البدء بتنفيذه فى السنة الاولى (الصف الاول) بتلك الكليات والمعاهد فى بداية العام الدراسي التالي مباشرة لصدور التشريع ، وان ينص على أن يكون التنفيـذ فى السنوات (الصفوف) التالية متتابعا عاما بعد آخر دون فواصل زمنية .

2 ــ **انشاء مركز لترجمة امهات الكتب والمراجـع اللازمة لتعريب التدريس** فى الكليات والمعاهـــد العلمية .

3 ــ **اعادة تاسيس اتحاد المجامع اللغوية العربيـة** الذى سبق انوافق مجلس جامعة الدول العربية على تاسيسه وعلى نظامه الاساسي ، وحث مجلس جامعة الدول العربية على ان يرصد لـه اعتمادا ماليا كافيا يمكنه من القيام برسالتـــه العلمية والقومية الجليلة فى مجالي التعريـــب والترجمة العلمية . على أن يتطور هذا الاتحاد فى المستقبل ليصبح مجمعا لغويا عربيا مركزيـا وتصبح المجامع الاخرى فى البلاد العربية فروعا لـــــه .

4 ــ **ارتباط المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي بالرباط باتحاد المجامـع وفقـا لترتيب خاص يمنع الازدواج فى العمل والتكـــرار فى الجهـــد** .

5 ــ حث الحكومات العربية التي لا توجد فى بلادها مجامع على **تاسيس مجامع لغوية** ، تكـــون رسالتها العمل فى نطاق القطر نفسه على **قيـام نهضة لغوية فكرية** بشتى الوسائل وتكـــون فى الوقت نفسه شعبا لاتحاد المجامع ودعامة لـــه فى عملـــه .

6 ــ **تاسيس الجمعيات العلمية** لمختلف فروع العلـم فى كل بلد عربي لتكون عونا للجامعات والمجامع واتحاديها والاتحاد العلمي العربي فى النهـــوض بالتعريب والترجمة العلمية .

7 ــ بذل مزيد من **العناية باللغات الاجنبية** فى التعليم الاعدادي والثانوي والجامعي ، والعمل على رفع مستواها للاستفادة بها فى نشر البحوث العلمية العربية على الصعيد العالمي .

« التوصيـــة الثانيـــة »

السياسة العامة للاعداد العلمي :

لما كان المؤتمر يدرك ان المعركة التي تخوضهـــا الامة العربية هي معركة حضارية فى المقام الاول وان الامة العربية فى حاجة الى تقدم حضاري يستفيد مـن العلم مضمونا واسلوبا فى تدعيم الجبهة العربية ، ولما كان المؤتمر يرى ان التفاعل بين الحركة العلميـــة والتطور الصناعي والانتاجي أمر ضروري للنهـــوض بها جميعا ، فانه يوصي بما يلي :

1 ــ وضع الخطط طويلة الامد لتربيـــة الجماهيـــر العربية تربية علمية اصيلة تقوم على **الايمـــان بالاسلوب العلمي فى التفكير** والوعي بـــدور العلم فى تطوير الحياة الانسانية ، **وباهمية العمل العلمي فى حل المشكلات** .

2 ــ ان تقوم اجهزة التعليم والاعلام بالعمل علـى ازالة العراقيل التى تعوق الحركة العلمية حتى يفسح لها مجال العمل على رفع مستوى الثقافة العلمية بين الجماهير واشاعة الفكر العلمـي وتاصيل النظرة العلمية للامور وتربية الاجيال الصاعدة تربية علمية شاملة .

3 ــ اعتبار **عملية الاعداد العلمي عملية متكاملة** تبدا مع الطفل وتستمر حتى الدراسات العليا وان هذا التكامل يقتضي الربط بين مراحل الاعداد المختلفة وتحديد مستوياتها فى كل مرحلـــة ؛ ولذلك فالمؤتمر يوصي بانشاء هيئات او مجالس دائمة تكون مسؤولة عن تطوير خطط ومناهـج الدراسات العلمية فى المراحل المختلفة ورســم

سياسة شاملة للاعداد العلمي ، والقيام بالدراسات والابحاث الخاصة بتحديد نوعيات الاعداد ومستوياته .

4 — **توثيق العلاقات بين المؤسسات العلمية ومراكز الانتاج والخدمات** بحيث يتم تبادل الخبرات العلمية فيما بينها والعمل على حل المشكلات التي تواجهها تلك المراكز ، واتاحة الفرصة لتدريب الطلاب العلميين بصورة دورية في مراكز الانتاج والخدمات وانتقاء موضوعات البحث من المشكلات التي تطرحها هذه المؤسسات والمراكز .

« التوصية الثالثة »

الاعداد العلمي في التعليم العام :

يقدر المؤتمر الجهود التي تبذلها جميع الدول العربية في مجال تدريس المواد العلمية في التعليم العام ، ويرى **وجوب اعطاء مزيد من الاهتمام لتحسين نوعية الاعداد العلمي** في جميع مدارس التعليم العام نظرا لاهميته سواء لاعداد المواطن القادر على مواجهة مشكلات مجتمعه والمساهمة في حلها او لاعداد العلميين المتخصصين .

ولذلك يوصي المؤتمر بما يلي :

1 — **العناية** اثناء تدريس العلوم في المرحلة الاولى **بالدراسات التطبيقية** على الطبيعة ، اي ان تقرن عملية التعليم بالمشاهدة ما امكن ذلك وان تنمي المبادرة الفردية واكتساب بعض المهارات العلمية بحيث يمكن تنمية الشخصية العلمية المزودة ببعض المعارف العلمية الاساسية .

2 — **اعادة صياغة المناهج العلمية** بحيث تهتم باساسيات المعرفة العلمية دون ازدحامها بالتفصيلات على ان تجري عملية متابعة وتقويم لهذه المناهج باستمرار في ما تسفر عنه من نتائج وما يستجد من احتياجات تمشيا مع التطور العلمي الحديث .

3 — **تطوير اساليب التدريس** ، وهذا يرتهن باعداد المعلم ، ولذلك فالمؤتمر يوصي بالاهتمام **باعداد المدرس** وتوفير الجو والظروف المناسبة لكي يقوم بدوره على احسن وجه ، وذلك عن طريق تحسين ظروفه المادية والمعنوية وتزويده **بوسائل التدريس** اللازمة ومده باستمرار بالجديد في العلم وفي طرق التدريس **وتنظيم الدورات التدريبية** والتجديدية المناسبة .

4 — الاهتمام بمزج الاعداد العلمي بالاعداد الانساني والقومي ، وبوجه خاص اثناء احساس الطالب بالانتماء للوطن وادراكه لمسؤولياته تجاهه .

5 — العناية بتدريس اللغة العربية باعتبار ان **اللغة القومية هي الوسيلة المثلى للتعبير عن الافكار العلمية** وتبادلها بين اجزاء الوطن العربي . كما يؤكد ضرورة العناية بتدريس اللغات الاجنبية لانها وسيلة هامة من وسائل تحصيل العلم .

6 — **العناية بالمدارس المهنية** وزيادة عددها وتنوعها طبقا لمتطلبات خطط التنمية على ان يرتفع مستوى الدراسة العلمية النظرية في هذه المدارس الى ما لا يقل عن مستواه في المدارس العامة على ان لا يكون ذلك على حساب النواحي المهنية مع اتاحة الفرصة للمتخرج في هذه المدارس بمواصلة دراسته في التعليم التقني العالي اذا كان صالحا لذلك ، على ان يراعي في قبول الطلاب في هذه المدارس الميل والكفاءة .

« التوصية الرابعة »

الاعداد العلمي في المرحلة الجامعية :

يقدر المؤتمر الجهد الذي تبذله جميع الدول العربية في التوسع في التعليم الجامعي العالي ، ويرى ان الوقت قد حان للاهتمام بنوعية الاعداد في هذه المرحلة بما يفي باحتياجات الامة العربية . ولهذا يوصي المؤتمر بما يأتي :

1 — **ان تحدد كل دولة عربية اهداف التعليم الجامعي** بصورة واضحة في ضوء احتياجاتها المحلية من علميين على مختلف انواعهم ، آخذة في **الاعتبار الحاجات القومية على نطاق الوطن العربي** .

2 — ولما كان تحديد التخصصات وانواعها ومجالاتها امرا يرتبط بخطط التنمية الوطنية والقومية ، فان المؤتمر يوصي بانه اذا لم تتوافر خطط للتنمية طويلة الامد فيفضل ان تكون التخصصات عريضة تتيح للمتخرجين في الجامعة العمل في مجالات متنوعة بحيث يستطيعون سد حاجات

مختلف القطاعات والمشروعات التي يتقرر انشاؤها في المستقبل .

3 ـ **تجنب الازدواج بين الاعداد الاكاديمي والاعداد التطبيقي** ومراعاة الاحتياجات الفعلية للمجتمع

5 ـ زيادة الاهتمام بالعلوم الانسانية والاجتماعية في الكليات العلمية العملية .

6 ـ لما كان توفير المختبرات والاجهزة العلمية والمكتبات يحتاج الى نفقات كبيرة قد لا تتحملها الطاقات المحلية ، فان المؤتمر يوصي بالتنسيق بين مراكز البحث والجامعات بحيث يستفاد من الامكانيات الموجودة وذلك بانشاء معامل ومكتبات مركزية وتوفير خدمات التوثيق العلمي. وفي هذا المجال يوصي المؤتمر بأن تتبنى البلاد العربية مشروع **انشاء مؤسسة عربية لتصنيع وصيانة ادوات واجهزة المختبرات والوسائل التعليمية** .

7 ـ توفير اعضاء هيئات التدريس اللازمين للقيام باعباء التدريس بحيث تصل نسبة هيئة التدريس الى الطلاب في اقرب وقت ممكن الى النسب المقبولة عالميا .

8 ـ ان تتحمل الجامعات والمعاهد العليا مسؤولياتها في **متابعة النمو العلمي للخريجين** عن طريق البرامج التدريبية ووسائل النشر والاعلام ومراكز خدمة الخريجين .

« التوصية الخامسة »

اعداد الباحثين العلميين :

ان المؤتمر اذ يدرك ان اية نهضة علمية اصيلة تقوم اساسا على اكتاف مجموعة من الباحثين في المجالات المختلفة ، قادرين على **تنشيط حركة البحث العلمي وربطها بالحركة الاجتماعية والاقتصادية** ، فانه يوجه النظر الى ضرورة الاهتمام باعدادهم وتوفير الظروف الملائمة لهم ، وفي هذا المجال يوصي بما يلي :

1 ـ لما كانت اساليب البحث العلمي واهدافه في الجامعات قد تختلف عنها في مؤسسات البحث العلمي الاخرى والتي ينبغي ان يرتبط العمل فيها باحتياجات تنمية المجتمع ، فان المؤتمر يوصي عند تقويم اداء العلميين العاملين في مجالات البحوث التطويرية والتطبيقية **بالاعتماد على الانتاج العلمي بدلا من الاقتصار على اعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .**

2 ـ لما كان خريج الجامعة يحتاج قبل قيامه بالبحث الى تدريب خاص يكسبه المهارات الاساسية اللازمة للبحث فان المؤتمر يوصي **بانشاء دراسات خاصة للخريجين** الذين يدخلون ميدان البحث العلمي وتقويم عملهم فيها للتعرف على صلاحيتهم لمتابعة البحث العلمي .

3 ـ تشجيع الربط بين بحوث الماجستير والدكتوراه وغيرها من البحوث الجامعية وبين احتياجات المجتمع ما امكن ذلك .

4 ـ يرى المؤتمر ان هناك حاجة الى مزيد من الاهتمام بالدبلومات المهنية التطبيقية بحيث تتنوع وتاخذ صورة ذات طبيعة تطبيقية يقصد بها اعداد المتخصصين المهنيين اعدادا علميا وعمليا للعمل في فروع التخصص التي يحتاجها المجتمع .

5 ـ **تشجيع الباحثين على متابعة تكوينهم العلمي** بالانتساب الى دراسات ودورات تدريبية لرفع مستواهم بشكل مستمر .

6 ـ الاهتمام باعداد **وتدريب اخصائيين في التوثيق والنشر العلمي** .

7 ـ الاهتمام باعداد **وتدريب اخصائيين في اعمال الادارة العلمية والتخطيط العلمي** .

« التوصية السادسة »

اعداد الفنيين والمعاونين في البحث العلمي :

لاحظ المؤتمر ان مرافق المؤسسات العلمية والانتاجية لاسيما المراكز الصناعية في الوطن العربي تعاني نقصا كبيرا في الفنيين ، مع ان العمل في هذه المرافق يستند الى خدمات الفنيين في عمليات التنفيذ بقدر ما يحتاج الى المهندسين والعلميين من ذوي الاختصاصات العالية في عمليات التصميم والبحث . لذلك يوصي المؤتمر بما يلي :

1 ـ **الاهتمام باعداد ورعاية الفنيين والمعاونين** في شؤون البحث العلمي في قطاعاته المختلفة بخاصة الفئات التالية :

ا ــ المختصون بصيانة واصلاح الاجهزة العلمية .

ب ــ المختصون باجهزة القياس الدقيق والتحليلات ومختلف التحضيرات العلمية

ج ــ الفنيون المدربون على الاجهزة الالكترونية واجهزة الصناعات الكيميائية والتعدينية وغيرها .

د ــ الفنيون فى اعمال التصميم والتجارب نصف الصناعية .

هـ ــ الفنيون فى اعمال الرسم والتصوير العلمي.

و ــ الفنيون اللازمون للمعاونة فى اعمال المكتبات والتوثيق والنشر العلمي .

ويجب ان يكون اعداد الفنيين متناسبا مع متطلبات العمل .

2 ــ تشجيع الفنيين ماديا ومعنويا وذلك بتحسين اوضاعهم المادية وتنمية الشعور بأن عمل الفنيين لا يقل اهمية عن الاعمال العلمية الاخرى.

3 ــ ان يكون المشرفون على اعداد وتدريب الفنيين من مدرسين ومدربين من ذوي الخبرة الفنيين المتمرسين بمثل هذه الاعمال .

« التوصية السابعة »

هجرة العلميين ووسائل الاحتفاظ بهم :

يوصي المؤتمر بأن تراجع كل دولة عربية الظروف التي تدفع العلميين العرب الى الهجرة مثل :

ــ ضعف الدعم المادي للعمل العلمي وقلة دخل العلميين التي تصرفهم عن تكريس جهودهم للعمل العلمي المنتج .

ــ عزلة العلميين بعضهم عن بعض على الصعيدين المحلي والعربي وعدم اشتراكهم فى وضع خطط التنمية فى بلادهم .

ــ التركيب البيروقراطي لكثير من المؤسسات العلمية وطرق التوظف فيها والتي ادت الى وضع كثير من غير المناسبين فى مسؤوليات حساسة فى ميدان العمل العلمي ومن ثم سلبية كثير من العلميين العائدين بعد تدريبهم وتاهيلهم فى الخارج .

ــ القيود التي تفرض فى بعض البلدان العربية على حرية العلميين فى التفكير والعمل وعدم الاستقرار فى مجالات العمل العلمي وهيئاته ؛ مما يضر باستمرارية العمل .

كما يوصي المؤتمر كل دولة عربية بالعمل على **الاحتفاظ بالعلميين داخل الوطن العربي وعلى حسن الافادة من طاقاتهم ، وعلى ترغيب من هاجر منهم فى العودة** ، وذلك بتوفير المناخ العلمي الملائم والمشجع عن طريق اتخاذ الاجراءات التالية :

1 ــ توفير الدخل المادي الكافي الذى يضمن تكريس كل جهود العلميين لواجباتهم العلمية مع وضع الحوافز المادية والمعنوية لهم .

2 ــ **رفع القيود على تحركات العلميين** داخل الوطن العربي للاغراض العلمية واعطاء العلماء العرب الاولوية فى شغل الشواغر فى الوطن العربي ضمن برنامج المنظمات الدولية .

3 ــ **انشاء مركز عربى لجمع بيانات عن احتياجات الوطن العربي من العلميين فى حقول التخصص** المختلفة وكذلك جمع بيانات عن القوى العلمية العربية العاملة فى الوطن العربي وخارجه ، وذلك من اجل التنسيق بين احتياجات الدول العربية المختلفة بما يضمن توزيعا متكاملا للعلميين واستخدام اكبر عدد ممكن منهم داخل الوطن العربي .

4 ــ مبادرة الدول العربية الى **وضع خطط مشتركة تحدد فيها مشكلاتها العلمية واحتياجاتها من العلميين** وترصد لها الإمكانيات اللازمة لتنفيذ الخطة العربية المشتركة وحل ما يعترضها من عقبات .

5 ــ متابعة القيام بدراسات ميدانية تهدف الى **التعرف على المشكلات التي واجهها ويواجهها العلميون العرب** داخل الوطن العربي ومسببات هجرتهم .

6 ــ اعادة النظر فى مؤهلات العاملين فى مختلف الحقول الانسانية فى البلاد العربية وشغل تلك الحقول بذوي المؤهلات العلمية النادرة المتخصصة .

7 ــ مبادرة الهيئات العلمية الى خلق **مدارس البحث العلمي** المرتبطة باحتياجات المجتمع كوسيلة لربط العلميين بمجتمعهم وللحفاظ على العلميين الذين يعودون الى هذه الهيئات من الخارج ولتوضيح الدور الذي يجب ان يلعبه العمل العلمي فى بناء المجتمع العربي .

8 ــ **انشاء صندوق عربي يتولى تنفيذ برنامج لتبادل العلماء العرب** داخل الوطن العربي من جهة وبين المؤسسات العلمية العربية ونظيراتها فى الدول المتقدمة من جهة اخرى .

9 ــ اتخاذ الاجراءات الضرورية للحد ما أمكن من خروج الطلبة العرب للدراسة الجامعية الاولى الى الجامعات الاجنبية خشية انصهارهم فى المجتمعات الاجنبية التي يذهبون اليها .

« التوصية الثامنة »

مسح الامكانيات العلمية :

يوصي المؤتمر ان تقوم كل دولة عربية بالعمل على **تحقيق مسح شامل وكامل لمؤسسات البحث فيها** وذلك من حيث تركيبها وأماكنها وتجهيزاتها وقدراتها والعاملين فيها (مؤهلاتهم وخبراتهم) وتمويلها والجهات التي تتبعها ومواضع اختصاصاتها ونشاطها وذلك تمهيدا للاستفادة من امكانياتها فى خطط الانماء والبحث العلمي ولاستكمال نواقصها وتمهيدا لاستحداث وحدات جديدة فى أماكن وميادين تعين على ضوء الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، كما يوصي بأن يكون جمع هذه البيانات والاحصاءات مستمرا ، وان تعمل ادارات الامانة العامة للجامعة العربية (الادارة الثقافية ــ قسم العلوم والتكنولوجيا وغيرها) على جمع هذه البيانات من الدول العربية وتصنيفها ونشرها .

« التوصية التاسعة »

تنظيم البحث العلمي على النطاق المحلي :

يوصي المؤتمر بأن تعمد كل دولة عربية الى **انشاء هيئة مركزية على اعلى مستوى** تتمتع بالاستقلال الاداري والمالي وتكون مهمتها **وضع السياسة العلمية الوطنية وتوجيه البحث العلمي** وتنسيقه وتشجيعه واعداد الباحثين والعلميين على ضوء خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ويوصي المؤتمر بأن تنظم البلاد العربية**مؤسسات** البحث العلمي فيها على ضوء المسح الذي تجريه ، وهي تؤكد ضرورة وضع خطة علمية تستهدف التنسيق بين مختلف مراكز البحث بحيث تستفيد الى اقصى حد من الامكانيات العلمية المتوفرة وتوجهها الى تناول مواضيع البحث ذات الاهمية بالنسبة لحسن استغلال الموارد الطبيعية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية . كما يوصي المؤتمر بأن تتوخى خطة انشاء وتدعيم مراكز البحث تمكين هذه المراكز من تحقيق دورها فى ميادين البحث الاساسي والتطبيقي والتكنولوجي وفى اعداد العلميين والباحثين الرئيسيين والمساعدين على السواء . وان يتم **توزيع البحوث على المؤسسات العلمية** بحيث تأتي متكاملة فى خدمة المصلحة الانمائية العامة وبحيث تتجنب التكرار والازدواجية مع التأكيد على اهمية دور الجامعات فى البحث العلمي ، وبحيث **يقوم البحث العلمي بدوره كجسر لنقل التكنولوجيا الحديثة الى البلاد العربية** .

« التوصية العاشرة »

تنظيم البحث العلمي على نطاق الوطن العربي:

ان التنسيق بين جهود الدول العربية فى المجال العلمي ضرورة ملحة لتحقيق اهدافها القومية وعبور فجوة التخلف، وبخاصة ان المشكلات التى تواجهها هذه الدول فى حقول التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتشابه موضوعيا ، مما يحتم عليها ان تتعاون وان تنسق جهودها لحاقا بالتقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر ، وبخاصة ان التحديات الراهنة والمقبلة التى تواجه وستواجه الامة العربية قد وصلت الى مرحلة بالغة الخطورة ، وان عناصر التقدم العلمي من موارد بشرية وامكانات مادية وطبيعية ليست موزعة بشكل متوازن على رقعة الوطن العربي .

لذلك يؤكد المؤتمر **اهمية التعاون العربي فى حقل البحث العلمي** ، وضرورة التنسيق والتوثيق وتبادل الخبرات والمعرفة ، ويوصي بما يلي :

اولا ــ ان يبادر العلميون فى مختلف الحقول اينما وجدوا فى الوطن العربي الى **انشاء جمعيات علمية عربية تضم الاختصاصيين فى الحقول العلمية**

المترابطة والمتداخلة في جميع البلدان العربية وعلى سبيل المثال تنشأ الجمعيات الآتية :

ا ــ جمعية العلوم الرياضية والفيزيائية .

ب ــ جمعية العلوم البيولوجية .

ج ــ جمعية العلوم الكيميائية والجيولوجية .

د ــ جمعية العلوم الهندسية .

هـ ــ جمعية العلوم الطبية .

و ــ جمعية العلوم الزراعية

ز ــ جمعية العلوم الاجتماعية .

ح ــ جمعية العلوم الادارية

ط ــ جمعية العلوم الاقتصادية

على ان تتضمن مهام هذه الجمعيات اصدار دوريات علمية لنشر البحوث على مستوى الوطن العربي وعقد المؤتمرات العلمية الدورية

ثانيا ــ ان يقوم اتحاد الجامعات العربية ــ وهو اطار مناسب للتنسيق العلمي بين الجامعات العربية ــ بدور اكثر فعالية في هذا المجال . ويحتاج ذلك الى :

1 ــ مزيد من الدعم المادي من الجامعات والحكومات العربية .

2 ــ توسيع قاعدة المؤتمر العام لاتحاد الجامعات ليشمل ممثلين لاعضاء هيئة التدريس من غير اعضاء مجالس الجامعات ومن مختلف التخصصات العلمية ، وعلى ان يعقد المؤتمر العام للاتحاد مرة كل عام .

3 ــ تنشيط عمل لجان الاتحاد الفنية واشراك اكبر عدد ممكن من اعضاء هيئة التدريس الراغبين والقادرين على المساهمة فيها .

4 ــ عقد مؤتمرات دورية تمثل اقسام التخصص في كل جامعة لتنسيق شؤونها العلمية والتعليمية .

5 ــ عقد حلقات دراسية لبحث المشكلات التي تواجه التعليم الجامعي في الوطن العربي مع الاهتمام بوجه خاص في المراحل القادمة بالموضوعات الآتية :

ا ــ مركز الاقسام العلمية وخصوصا البحث منها نظرا لتداخل فروع العلم المتقاربة ولتجنب بعثرة الامكانيات .

ب ــ التنسيق فيما بين الاقسام التخصصية في الجامعات المختلفة لتوزيع اهتماماتها في مجال البحوث والدراسات العليا وتوزيعها بحيث تصبح متكاملة ومتفاعلة .

ج ــ اعداد ونشر دليل سنوي لاعضاء هيئة التدريس والعاملين في الجامعات العربية في مختلف حقول التدريس .

د ــ التنسيق بين الجامعات العربية في مجال المشاركة العربية في المؤتمرات العلمية والدولية وتنظيم الاستفادة منها .

هـ ــ اعداد دراسة تستهدف وضع معدلات سليمة لتكلفة تعليم وتاهيل الطالب في مراحل التعليم العام والتعليم الجامعي .

ثالثا ــ انشاء مجلس علمي عربي يضم البلاد العربية وتكون من بين مهامه الامور التالية :

1 ــ انشاء وادارة مراكز البحوث الاقليمية .

2 ــ انشاء وادارة مراكز الخدمات العلمية الاقليمية .

3 ــ انشاء وادارة مراكز اقليمية لتدريب الفنيين العلميين .

4 ــ انشاء وادارة مركز للتوثيق العلمي .

5 ــ انشاء مركز يتابع تطور الحركة العلمية لدى العدو واستعمال العلم في جميع مجالات حياته .

6 ــ تعميم البحث العلمي عن طريق تقديم المنح للباحثين حيثما كانوا في الوطن العربي .

7 ــ تبسيط العلوم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية لمختلف فئات الشعب .

ويرى المؤتمر ان يستفيد هذا المجلس ما امكن مما هو متوفر من مؤسسات علمية تقوم الآن في البلدان العربية وذلك اما بتقويمها او بالحاق اقسام للخدمات والبحث فيها .

ويرى المؤتمر كمدخل لتحقيق ذلك ان تبادر الامانة العامة لجامعة الدول العربية (قسم العلوم

والتكنولوجيا) الى دعوة عدد من العلماء الاكفياء فى الوطن العربي لوضع مشروع نظام هذا المجلس وعرضه على مجلس الجامعة فى اول اجتماع مقبل له .

« التوصية الحادية عشرة »

التعاون العلمي العربي :

ينوه المؤتمر باهمية **التعاون العربي فى مجال البحوث العلمية** والمراكز الاقليمية المشتركة (من امثال مركز النظائر المشعة والمركز الاقليمي العربي لدراسات المناطق الجافة والاراضي القاحلة ومراكز البحوث التي اقرها مركز التنمية الصناعية التابع للجامعة العربية) ، وبالنشاط الذى يقوم على نطاق الوطن العربي وينوه باهمية « المجلس العربي المشترك للطاقة الذرية » الذي قرر انشاءه مؤتمر القمة الثاني .

ويوصي بأن يكون انشاء مراكز البحوث الاقليمية مرتبطا بموضوعات علمية تهم الوطن العربي والتنمية الاقتصادية فيه .

التوصية الثانية عشرة »

التوثيق والنشر العلمي :

نظرا لان نتائج البحوث العلمية اصبحت تنشر فى العالم فى ملايين من التقارير العلمية بعشرات اللغات، فقد اصبح **التوثيق العلمي من اهم الامور التي يجب ان تعنى بها مؤسسات البحث العلمي** ، ويعتمد التوثيق العلمي الكامل اليوم على اجهزة حديثة بالغة التعقد لذلك يوصى المؤتمر بأن تتعاون البلاد العربية على انشاء مركز للتوثيق العلمي يستخدم الوسائل والاجهزة الحديثة ويكون فى خدمة البحث العلمي على الصعيد العربي كله .

« التوصية الثالثة عشرة »

تنظيم براءات الاختراع والملكية الصناعية :

يوصي المؤتمر بانشاء وتنظيم **جهاز براءات الاختراع فى كل دولة عربية**، على ان يكون الجهاز ادارة استقبال اسرار التكنولوجيا المرفقة بطلبات براءات الاختراع ، واداة ارسال تلك الوثائق الى مراكز البحث العلمي والجامعات والمصانع ، واداة متابعة تعميم تطبيق احدث الاختراعات فى الصناعات الرئيسية . على ان تتبع ادارة براءات الاختراع الجهاز العلمي المركزي فى الدولة ، وان يتمتع الجهاز بكيان ذاتي . ويتعين ان يتضمن جهاز براءات الاختراع فضلا عن الادارة التقليدية التي تختص بالاجراءات والتسجيل ، ادارة تكنولوجية واقتصادية ، وادارة وثائق واعلام ، وادارة ابحاث قانونية وعلاقات دولية .

ويوصي المؤتمر البلاد العربية بالعمل على **اعداد فئة من العلميين والقانونيين والاقتصاديين واخصائي الوثائق والمكتبات تتخصص علما وعملا فى براءات الاختراع والملكية الصناعية .**

« التوصية الرابعة عشرة »

يوصي المؤتمر بالتعاون بين الدول العربية فى مجال **الملكية الصناعية بتكوين مركز للملكية الصناعية** ووثائق براءات الاختراع . ويختص المركز بالعمل على تنسيق تشريعات الملكية الصناعية فى الدول العربية وتوجيه حركة التشريع لتحقيق مصالح الدول العربية **وحماية حقوق المخترعين العرب** كما يختص بالقيام بالابحاث الخاصة بالاتفاقيات الدولية فى الملكية الصناعية واعمال وثائق براءات الاختراع ونشر هذه الوثائق .

« التوصية الخامسة عشرة »

تمويل البحث العلمي :

يوصي المؤتمر بأن تخصص كل دولة عربية للبحث العلمي ما لا يقل عن الواحد بالمائة من الدخل القومي العام على ان ترتفع هذه النسبة الى اثنين بالمائة فى ظرف ثلاثة اعوام . ويكون توزيع اعتمادات هذه المخصصات مرتبطا بخطة البحث العلمي التي تنبثق من خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

« التوصية السادسة عشرة »

دور العلم والعلميين فى مواجهة التحديات :

لما كان الاعداد العلمي يحتاج الى وحدة فكر وعمل بين جميع الاجهزة المسؤولة عنه ، ولما كان هذا الاعداد يتم ضمن اطار اجتماعي يوجهه نحو

غاياته المرجوة ، ولما كان للعلم دور رئيسي فى مواجهة متطلبات المعركة المستمرة مع الامبريالية وقاعدتها الصهيونية وهو دور لن يتحقق الا باتخاذ التدابير اللازمة على المستوى الوطني وعلى المستوى القومي فان المؤتمر يوصي بما يلي :

1 ــ ضرورة **وضع سياسة عامة للاعداد العلمي** تنبثق من واقع الوطن العربي وتكون على مستوى التحديات التى تواجهه عسكريا واقتصاديا وحضاريا ، وتحقق متطلباته واحتياجاته فى ضوء خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعبئة العسكرية .

2 ــ الاسراع باجراء الدراسات الخاصة بالعدو وطاقاته وامكانياته وسياساته العلمية والطرق التي يتبعها فى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والتكنولوجية واجراء دراسات عن طاقاتنا العربية التي يجب حشدها من اجل المواجهة الحالية والمستقبلة مع العدو . وفى هذا المجال أيضا يشير المؤتمر الى اهمية الاستعانة بملحقين علميين يتم تعيينهم فى الدول المختلفة لجمع المعلومات العلمية .

3 ــ تنظيم وتدريس **برامج ثقافية عامة** ومناهج فى التعليم العام والجامعي **تتناول عدونا وطاقاته** وطرق مواجهته والتعريف كذلك بالانجازات العربية .

4 ــ الاهتمام بالدراسات التي تهدف الى رفع مستوى العلوم ذات التطبيقات العسكرية فى الجامعات والمعاهد الفنية العالية .

5 ــ انشاء **معاهد تكنولوجية متخصصة** او اضافة فروع للمعاهد القائمة تختص بالدراسات والبحوث ذات الصلة بالعمل العسكري وفى هذا المجال ، يوصي المؤتمر الدول العربية التي توجد بها نواة لمثل هذه المعاهد ان تضمها فى خدمة العمل العربي الشامل بغرض تنميتها لتحقيق اهداف نضالنا القومي .

6 ــ الاهتمام **بايجاد جهاز من العلماء المتخصصين ضمن القيادة العسكرية** لكل دولة عربية فى اطار الدفاع المشترك. ويكون هذا الجهاز مسؤولا عن تقديم معوناته بشأن وضع العلم واجهزته وبحوثه فى خدمة العمل العسكري .

7 ــ **تعبئة جميع الطاقات العلمية العربية الموجودة فى الوطن العربي** وخارجه لتوجيهها نحو خدمة متطلبات المعركة الحالية ، وفى هذا المجال يشير المؤتمر بصفة خاصة الى توجيه قدرات البحث العلمي لانتاج اسلحة مناسبة بموارد متاحة داخل الوطن العربي ، هذا الى جانب تدريب ابناء الامة العربية على المهارات الحربية والادارية المناسبة.

8 ــ يناشد المؤتمر اجهزة الاعلام فى الوطن العربي **اعطاء مزيد من الاهتمام لنشر الوعي العسكري العلمي** حتى يكون جميع افراد الامة العربية على مستوى متطلبات المعركة سواء بالنسبة للعمل العسكري المباشر او بالنسبة لوسائل الدفاع المدني .

التأنيث في العربية

الأستاذ عبدالحق فاضل «الدار البيضاء»

قرأت منذ اكثر من عشرين عاما — في مطبوع ما ، لعله مجلة غاب عن بالي عنوانها — لمستشرق نسيت اسمه — بحثا شائقا حاول فيه تفسير ظاهرة التانيث في لغتنا بما فيها من غرابة ومفارقات. والذي تستطيع الذاكرة ان تستعيده الآن من ذلك البحث هو النقطتان الاساسيتان اللتان عليهما كان مدار الموضوع.

النقطة الاولى قوله ان العرب انثوا من الجمادات ما هو شبيه بالانوثة مما كان مثقوبا او عميقا او موطوءا او نحو ذلك ، كالرحي والبئر والارض . وبوسعنا جريا على هذه النظرية ان نضيف الى ذلك من الجمادات المؤنثة التي تشبه المرأة ما كان ساميا كالسماء، ووهاجا كالشمس ، ومتقلبا كالريح ، ومحرقا كالجحيم، ومدمرا كالحرب ..

والنقطة الثانية قوله ان العرب كانوا قد مروا في احد عهودهم القدمى بمرحلة الامومة كغيرهم من الامم ، اي مرحلة سيادة المراة الام على العائلة قبل الانتقال الى مرحلة الابوة اي سيادة الرجل الاب . ويخيل لي ان المستشرق قد استشهد على رايه هذا بنبذة من كلام هيرودتس عن علاقة مغايرة للمالوف الحديث كانت على عهده قائمة بين الرجل والمراة ، لدى بعض العرب ، ولا نحسب ان ذلك الاستشهاد كان وافيا بمرامه لانه لا يدل على سيادة المراة فيما نذكر . وعلى اية حال كان من تاثير سيطرة الانثى الام، على قوله ، ان العرب انثوا الكثير من اسماء الاشياء غير المؤنثة ، حتى من الذكور البشر ، كتانيث اسم العدد من الثلاثة الى العشرة ، فقالوا مثلا : (ثلاثة) رجال ، بدلا من : ثلاث رجال .

ولا يحق لنا التمادي اكثر من هذا في عرض راي الباحث المستشرق اعتمادا على الذاكرة بعد هذا الامد المتطاول ، مخافة ان نظلم الرجل فنعزو اليه ما نتوهم انه قاله وهو لم يقله ، او قاله على نحو آخر . لكننا نذكر اننا حين قرانا ذلك البحث لم نقتنع بتاويلاته ولو اننا تقبلناه على انه مقال طريف ومحاولة جريئة لتفسير ظاهرة لغوية غريبة ، من زاوية جديدة .

اما بصدد النقطة الاولى فان الكثير من اسماء الجمادات لا يخضع للقاعدة المذكورة فقد وردت في العربية مؤنثات من الجمادات لا مشابهة لها بالانوثة كالعصا والفاس والذراع ، ومذكرات لا شبه لها بالذكورة كالوادي والغار ، والجب المرادف للبئر المؤنثة .

واما بصدد النقطة الثانية فاذا اعتبرنا التانيث في بعض الحالات تكريما للمراة حيث قيل سبعة رجال فان الباحث لم يذكر فيما نظن ان اسم العدد يذكر ايضا مع المؤنث — مما يقلل هيبة المراة ويغل من سطوتها — فيقال (سبع) نساء ، بدلا من سبعة نساء . ولعل المستشرق الفاضل قد ذكر ذلك وفسره بطريقة لم تقنعنا على كل حال .

ولاندري الآن ما اذا كان قد فاته كذلك ان الجمادات تؤنث وتذكر في اللاتينية وبناتها . فهل نعزو ذلك الى مشابهة المسميات للذكورة والانوثة او الى سيطرة الام على الرومان قبل ان تتوطد لديهم سيطرة الاب ايضا ؟

ويلاحظ ان اسم الجماد الخلو (1) في اللاتينيات اما مذكر فقط واما مؤنث فقط . واما في العربية فان الكثير من اسماء الاخلاء يجوز فيها التذكير والتانيث . فهذا يضعف راي المستشرق الباحث في قوله ان لمشابهة الاشياء بالانوثة علاقة بالمسالة . ولو نحن مضينا في التطبيق قياسا على نظريته لقلنا ان جواز التذكير والتانيث في الكثير من اسماء الاخلاء في العربية يدل على مرور العرب بعهد سادت فيه الخنثى على العائلة.

قبل الادلاء برايانا في تفسير ظاهرة التانيث يطالبنا الانصاف ان نحيي هذا الجهد المخلص الذي انفقه المفضال المستشرق — المجهول لدينا في الوقت الحاضر ، وقد نهتدي الى معرفة اسمه ذات يوم — فهو وامثاله من الباحثين الاجانب ، الذين قاموا بعملية استكشاف واسعة المجال في قارة التراث العربي ومنه تراث اللغة ، قد اسدوا الى العربية خدمات قيمة مشكورة ، ولا عتب عليهم ان اخطاوا احيانا ، فان لهم الفضل انهم اصابوا احيانا كثيرة اخرى .

الضمائر العربية :

اذا حللنا الضمائر العربية — انا ، انت ، هو .. الخ — نجدها تتالف من ثلاثة عناصر اساسية : الالف والنون والتاء . وقد تطرقنا في كتابنا « مغامرات لغوية » (في فصل اسرار الضمائر) (2) بشيء من التفصيل الى هذه العناصر الضميرية الثلاثة التي نطقها الانسان الاقدم (ا) و (نا) و (وتا) اول الامر ، ثم تطورت فتعددت صيغها وتنوعت معانيها ، اي ان الاقدمين كانوا يختلفون في نطق هذه الضمائر فنشات لها صيغ كثيرة ، وكانوا لفقرهم اللغوي يستعملون كلا من تلك الصيغ في مختلف المعاني التي يتوقون الى الافصاح عنها ولا يجدون الالفاظ المعبرة عن كل منها .

وكانوا يلحقون هذه العناصر البدائية الثلاثة (ا ، نا ، تا) بالاسماء والافعال كضمائر او اسماء اشارة ، فمن الحاقهم الهمزة بها مفتوحة ومضمومة ومكسورة نشات حركات الاعراب ، ومن الحاق النون بها نشا التنوين بمختلف حالاته .

التـــاء :

والذي يهدينا اليه استعراض الضمائر العربية في شتى احوالها وصورها هو ان هذه العناصر الضميرية البدائية الثلاثة لم تنشا في مكان واحد عند فريق معين من الاعربين (العرب الاوائل) ، بل ان كل طائفة منهم كانت تستعمل واحدا من هذه الضمائر. ففريق منهم كانوا يستعملون ضمير (تا) كما كان فريق ثان يستعملون ضمير (ا) وفريق ثالث ضمير (نا) كالذي فصلناه وعللناه في كتابنا الانف الذكر ، فلا حاجة للاعادة فيه هنا .

وهكذا كان نصيب التاء ان الحقوها كاخويها الضميرين الآخرين بالاسماء والافعال . وهذا هو سر وجود التاء في بعض الاسماء مثل : جبهة ، هضبة ، اجمة ، مقدرة ، خشية .

فليس التانيث هو الغرض من التاء في اسماء هذه الاشياء المجردة من اي اثر لاي تانيث او تذكير ، وانما التاء هنا مجرد بقية اثرية من عهد لغوي مندرس بعيد كانوا فيه يلحقونها بكل الاسماء والافعال .

وقد كان من نتيجة اختلاط القبيل الذين يستعملون التاء بغيرهم من الاعربين الذين لا يستعملونها ان ضعف شانها وقل استعمالها حتى انها سقطت من كثير من الافعال مثل : افعل ونفعل ويفعلون ، ومن معظم الاسماء مثل : جبل ، طير ، نهر ، ارض ، كوكب ، تراب ، بحر ... وبقيت عالقة باسماء اخرى كالتي ذكرناها : هضبة ، جبهة ، الخ ... وبقيت متارجحة في اسماء اخرى حيث يمكن حذفها واثباتها في مثل : ليل ونجم .

قلنا ان التاء الحقوها بالاسماء والافعال لاداء معنى الضمائر او اسماء الاشارة اول الامر ، لكن تطاول الاحقاب وتعاقب الاجيال جعلها تظهر اولا في صور مختلفة بسبب اختلاف القوم في نطقها كما قلنا ،

---

1) نستعمل كلمة الخلو — زنة الصنو والشلو — بمعنى الشيء الخالي من الانوثة والذكورة . ومؤنثها : الخلوة ، وجمعها : الاخلاء — زنة الاشلاء .

2) وفي مجلة « اللسان العربي » العدد الخامس ، لسنة 1967 .

وتؤدي ثانيا اغراضا مختلفة بسبب الفقر اللغوي الذي المعنا اليه ما اضطرهم الى استعمال الكلمة الواحدة في اكثر من معنى واحد .

فمن اختلاف الطوائف العربية في نطقها نجدها في لغتنا مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة . ومن بقايا استعمالها بمعنى مختلف الضمائر سوف يستغرب القارىء ان نقول له ان (تو) ما زالت تعني أنا بالعربية ، وان (تا) تعني انت المخاطب ، و (تي) تعني انت المخاطبة ، و (ات) تعني هي . لكننا نجد هذا كله جليا مدهشا في الفعل الماضي ، فالتاء المضمومة تعني انا في فعلت (= فعل + تو)، والمفتوحة تعني انت في : فعلت (= فعل + تا) ، والمكسورة تعني انت في : فعلت (= فعل + تي) ، والساكنة تعني هي في : فعلت (= فعل + ات) . وهذه الصيغة الاخيرة (ات) قد ذابت همزتها كما تذوب الهمزة في كثير من الحالات التي سميت فيها همزة وصل .

وظائف التاء :

اوضحنا في كتابنا المذكور كيف تفقد الضمائر احيانا وظائفها اي معانيها ، او تعتاض منها وظائف اخرى . وقد كان شأن التاء في هذا شأن غيرها من الضمائر فقد تقلبت عليها احداث لغوية افقدتها وظيفتها احيانا وابدلتها بها وظائف اخرى احيانا اخرى ، في ظروف تطورية مثيرة ، نجملها فيما يلي :

اولا : فقدت التاء وظيفتها تماما في بعض الاسماء مثل : نجمة وضفدعة وماءة — فيجوز لك حذف التاء من هذه الاسماء فتقول : نجم وضفدع وماء ، بنفس المعنى . اي ان التاء هنا لم تستطع ان تجد لها وظيفة ما او تتخصص بحالة معينة تميزها عن حالة تجرد الاسم من التاء . فيمكننا على هذا أن نسميها (التاء الزائدة)

ثانيا : وجدت التاء لنفسها بعض الوظائف تؤديها في بعض الحالات ، من ذلك انها تغير معاني بعض الالفاظ مثل : الظهير والهاجر والجر . فهذه الالفاظ تكتسب معاني جديدة ليست لها اية علاقة بمعانيها الاصلية حين تلتحق بها التاء فتصبح : الهاجرة والظهيرة والجرة . فهذه قد يجوز تسميتها (تاء التغيير).

ثالثا : صارت التاء تختلق معنى لبعض الالفاظ التي لا معنى لها . وبتعبير آخر ان التاء صارت جزءا متمما لبعض الاسماء بحيث تصبح لا معنى لها اذا حذفت التاء منها ، مثل : الامسية والبكرة والرئة والبؤرة — فلا معنى لالفاظ الامس والبكر والرىء والبؤر . اي ان التاء هنا قد التصقت ببناء الكلمة فاصبحت جزءا من نسيجها كحروفها الاصلية . وهذه يصح ان نسميها (التاء اللازمة) .

رابعا : صارت التاء اداة لتكوين بعض المصادر كما في الفعلين: دحرج واستقام، فمصدراهما: دحرجة واستقامة — وهي قاعدة قياسية لا حيد عنها ، اما في الفعل المضعف فان التاء وجوبية احيانا في مثل : وصى توصية وعبا تعبئة .. وجوازية احيانا في مثل : قدم تقدمة او تقديما ، وكرم تكرمة او تكريما .. وممنوعة احيانا كما في علم تعليما وكسر تكسيرا ، فلا يقال تعلمة وتكسرة . وهذه اجدر بان تسمى (التاء المصدرية).

خامسا : صارت التاء تؤدي معنى الحرفة في مثل: الكهانة والسفارة والسدانة والعيافة — اي حرفة الكاهن والسفير والسادن والعائف . وهذه نسميها (تاء الحرفة) .

سادسا : صارت التاء تؤدي ايضا معنى توكيد الصفات في مثل : النسابة والدواقة والراوية . فاذا حذفنا التاء من هذه الصفات فقلنا النساب والذواق والراوي ، ضعفت قوة المعنى ، على حين انه لا يجوز حذفها من بعض الصفات المؤكدة بها مثل الطلعة والهمزة واللمزة (بضم الاول وفتح الثاني في اللفظات الثلاث) — اي الكثير التطلع والهماز واللماز ، فلا يقال فيها : الطلع والهمز واللمز ، وهذه التاء اجدر بان تسمى (تاء التوكيد) . وهي تاء لازمة في نفس الوقت في الطلعة والهمزة واللمزة .

سابعا : صارت التاء تدل على معنى الافراد في بعض الاسماء كالشجرة والحمامة والسمكة ، فاذا حذفت من هذه الاسماء وامثالها صارت تدل على الجمع اي اسم الجنس : الشجر ، الحمام ، السمك، ولا يمكن اعتبارها تاء تانيث حتى في الحمامة والسمكة وغيرهما من الاحياء ، لان الكثير من امثال هذه الاسماء تطلق على الذكر والانثى دون تمييز . وتتجلى وظيفة الافراد على نحو أوضح في مصادر بعض الافعال. فالنظرة هي النظر مرة واحدة ، والابتسامة والضربة والاكلة هي الابتسام والضرب والاكل مرة واحدة . فهي اذن (تاء الافراد) .

ثامنا : على العكس من هذا صارت التاء تعني الجمع في اسماء اخرى مثل : العدناني والقحطاني

والمصري واليماني والسياف والخيال .. فقد جمعوها على عدنانية وقحطانية ومصرية ويمانية وسيافة وخيالة — اي بمجرد اضافة التاء الى الاسم المفرد دون تغيير في تركيب بنيته . على حين ان بعض الاسماء تتغير بنيتها اذا جمعت بالتاء مثل جمع الماشي والبازي على مشاة وبزاة ، وجمع القائد والسائق على قيادة وسياقة ، وجمع الفساني والمنذري على فسانية ومناذرة ، وجمع الكاتب والفاعل على كتبة وفعلة ، وجمع الدب والفيل على دببة وفيلة .

ومن الطريف ان التاء صارت اداة الجمع في بعض اللغات الآرية ايضا كالانجليزية والفرنسية والاسبانية ، لكن بعد ابدالها سينا (s) ، وابدال التاء سينا موضوع له اهميته اللغوية الخاصة ، وقد اوضحناه في كتابنا الآنف الذكر ، والعدد المذكور من مجلة « اللسان العربي » .

هذا في الاسم ، غير ان فعالية التاء في ميدان الجمع شملت الفعل ايضا ، كما في : قالت الاعراب وتقول الرجال ، فالتاء هنا تعني الجمع لا التانيث كما توهم النحاة ، بدليل ان التاء في قولنا (انفضت الناس) تحل محل واو الجمع في قولنا (الناس انفضوا) ، وانها في قولنا : (تفعل الرجال) تعمل عمل الواو والنون في قولنا (الرجال يفعلون) . وهذه التاء ما هي الا (تاء الجمع) .

تاسعا : واخيرا ناتي الى تاء النحويين ، اي التاء التي تدل على التانيث في اسماء بني الانسان والحيوان اي الكائنات المنقسمة الى اناث وذكور مثل : مراة وهرة ونمرة وسعيدة وعاقلة — تانيثا لمرء وهر ونمر وسعيد وعاقل . وهي نفس التاء الملحقة بالفعل الماضي في قولهم : جاءت وذهبت — تانيثا لقولهم : جاء وذهب

وكانت التاء الملحقة بالاسماء تنطق صريحة فيما نعتقد حتى عند الوقف عليها في آخر الكلام كما هي الحال في الفعل الماضي (فعلت هي) . وما زال بعض العرب على ذلك اي ينطقون تاء التانيث في الاسماء حتى عند الوقوف عليها فيقولون حين يقراون في الفصحى : الشجاعت والحرارت والانسانيت — وهي احدى اللهجات في لبنان . ومثل ذلك يفعل الاتراك والفرس في الالفاظ العربية الثانية المستعملة في لغتيهما مثل: محبت امانت ، سلطنت ، انسانيت ، ملت .

وقد نطق بعض العرب اسماء الاناث بمد الفتحة قبل التاء ، ولا يزال على ذلك بعضهم كالمغتربين في نطق شربات وعنايات (اسم علم للانثى) ، ومع الزمن تخصصت هذه الصيغة المديدة لدى الاعربين بجمع المؤنث السالم ، مثل جميلات وراضيات وفائبات .

في اللاتينية :

وبعض العرب المعاصرين ينطقون تاء التانيث في لغاتهم الدارجة في بعض الاسماء ويهملونها في بعض ، كالعراقيين الذين ينطقونها في مثل: المساوات والحيات والشربت ، ويهملون نطقها في مثل : الحرية والتربية والصلاة .

واهمال نطق التاء في بعض الالفاظ منحدر من اصل عربي عريق فيما يظهر ، منشؤه ان بعض الاعربين صاروا يستطونها في الاسم عند الوقف عليها في آخر الكلام فقط — كما هي الحال في الفصحى الى يومنا . وبذلك زالت التاء وبقي منها اثر هو الهاء الساكنة ، ومن هنا صارت المعاجم العربية تسميها (الهاء) بدل (التاء) . والواقع انها ليست هاءا بالمعنى الصحيح فهي على الاغلب تنطق مجرد فتحة على آخر الاسم . ويظهر ان بعض اللهجات القدمى اتخذت ذلك قاعدة عامة لها حتى عند وقوع التاء في داخل الجملة ، وقد بقيت هذه القاعدة في بعض اللغات الآرية كاللاتينية والايطالية ، ففي اللاتينية يقال : filia (بنت) ، و amica (صديقة) ، و lupa (ذئبة) — تانيثا لقولهم filius و amicus و lupus . وهذه المؤنثات الثلاث توجد بنفسها في الايطالية — غير ان البنت تكتب figlia (وتنطق filia ايضا) . اما مذكراتها في الايطالية فهي : figlio و amico و lupo

واما في الفرنسية فان التاء تنطق صريحة في الالفاظ المؤنثة بها مثل toutes (جميع ، للمؤنث) و cette (هذه) و coite (هادئة) — ومذكراتها tous و ce و col يضاف الى ذلك في الفرنسية ان تصغير الاناث ايضا يتم بالحاق التاء في مثل : table (منضدة) و casse (صندوق) و française (فرنسية) — وتصغيرها : tablette و cassette و francette

اختلاط الوظائف :

صفوة القول ان التاء وردت فى معان مختلفة متعددة متميزة ذكرنا ما يحضرنا منها هنا باجمال ، ولا ندري ان كنا قد اغفلنا بعض حالاتها المهمة ، لكننا نتوقع على كل حال ان المستقبل سينتج بحوثا مفصلة فى هذا الموضوع بعد التتبع الطويل والاستقراء الشامل، وما نرجو لحديثنا هذا السريع الا أن يكون خميرة لذلك المستقبل .

ويكفينا الان ما تقدم بنا من مظاهر التاء التى سميناها بحسب وظائفها : التاء الزائدة ، وتاء التغيير، والتاء اللازمة ، والتاء المصدرية ، وتاء الحرفة ، وتاء التوكيد ، وتاء الافراد ، وتاء الجمع ، واخيرا تاء التانيث. افليس من العجب العجاب ان النحاة المشهورين بتدقيقاتهم المبالغ فيها فى بعض التوافه ، لم يميزوا بين حالات التاء المختلفة هذه بل احتطبوها جميعا ، خبط عشواء ، وكدسوها تحت اسم تاء التانيث !

وقبل ان نفرغ من حديث التاء وننتقل الى مظهر آخر من مظاهر التانيث فى العربية يجدر بنا ان نلاحظ ان الاعتباطات التطورية قد عملت عملها فى خلط وظائف التاء بعضها ببعض شانها فى مختلف التطورات اللغوية. اي اننا نجد للتاء اكثر من وظيفة واحدة فى الكلمة الواحدة احيانا ، مثل : تفعل انت وتفعل هي ، تفعلان انتما وتفعلان هما الغائبتان ، اقبلت الجارية واقبلت الفرسان. ومثل ذلك: المراة العدنانية والعرب العدنانية. بل قد تجتمع فى الكلمة الواحدة ثلاث وظائف مثل (النسابة) وهي تعني المراة النسابة او الرجل النساب او الرجال النسابين . وشبيه بذلك (السفارة) التى اكتسبت الآن معنى حديثا بالاضافة الى معناها القديم — فقد صارت السفارة تطلق على المؤسسة الرسمية التى يراسها السفير .

غير ان هذا الاختلاط فى المعاني لا يرفع الملامة من النحويين الذين لم يتفهموا شيئا من نشاطات التاء اصلا ، فقد كان عليهم — جزاهم الله رفعا ونصبا ووقاهم الكسر والجر — ان يميزوا بين بعضها وبعضها ويسموا كلا منها باسمه كما ميزوا مثلا بين حالات النصب الكثيرة فى الاسماء وسموا كلا منها باسمه .

العدد والمعدود

وناتي الآن الى تلك القاعدة الشذوذية التي حيرت الافهام واعتبرت من بدوات اللغة العربية ونزواتها البوهيمية ، وهي قاعدة تانيث العدد (من الثلاثة الى العشرة) مع الذكور وتذكيره مع الاناث ، لنتفهمها على ضوء تحليل وظائف التاء . فما تفسيرها يا ترى؟

مفتاح هذا اللغز هو التفريق بين وظيفتي الجمع والتانيث . فقبل كل شيء يجب أن نعترف بأن التاء فى (الثلاثة) واخواتها انما هي تاء جمع لا تاء تانيث، فحين قال اجدادنا البداة فى عهد جاهلي سحيق : سبعة فرسان ، لم يخطر لهم ان يؤنثوا الفرسان مثلما لم يخطر لهم ان يؤنثوا اليمانيين والغازين والخيالين حين سموهم : يمانية وغزاة وخيالة .

اما فى حالة عد الاناث فقد استثقلوا اجتماع التامين — تاء جمع العدد وتاء تانيث المعدود — فى مثل (خمسة بقراءه) فاسقطوا احدى التامين ، تخفيفا . ولقد كان التطور اللغوي منطقيا جدا هذه المرة اذ اسقط تاء الجمع ، لا تاء التانيث ، لان معنى الجمع مفهوم بذاته فى اسم العدد . اما لو انهم اسقطوا تاء التانيث من البقرات والفتيات والوالدات لتغير معنى التانيث الذى اراده القائل ، فلذلك امتنعوا منه .

وحذف تاء الجمع من العدد ينطبق كذلك على جميع اسماء الاخلاء (الجمادات) المنتهية بالتاء كالنخلات والهضبات والجفنات ، ثم سرى ذلك على جمع اسماء الاخلاء المؤنثة ، ولو لم تكن منتهية بالتاء ، كالعصي والدور والفؤوس والحروب .

هذا التفسير يؤيده لنا انهم وازنوا — لغرض التخفيف ايضا — بين التامين — وكلتاهما للجمع — فى الاعداد المعشرة ، فصاروا اذا نطقوا التاء فى احد شطري العدد اسقطوها من الآخر ، فقالوا : خمسة عشر حصانا وخمس عشرة فرسا ، اي انهم استعملوا تاءا واحدة لكل من المذكر والمؤنث فى كل من الحالتين .

لم يكن غرض القوم اذن تانيث الرجال ولا تذكير النساء ترضية لغرور المراة واعترافا ببأسها .

هـو وهـي :

هذا جانب من حكاية التانيث ، فلننتقل الآن الى الجانب الآخر منها لنتحسس ابعاده فى ضمير الغائب (هو) وتطوراته .

ان تانيث الاسم يعرف من صيغته مثل : جميلة وذلفاء وعطشى ، او من معناه مثل : مرضع وطالق وحامل ، او من الضمير الدال عليه مثل : هي ، هن .

والذي نعتقده ان العرب كانوا اول الامر يستعملون ضمير (هو) للدلالة على الذكر والانثى والخلو جميعا — انسانا وحيوانا وجمادا .. وما زال الامر على ذلك فى الفارسية التي ينطق فيها هذا الضمير بصورته البديئة (او — u)) ، اي كما كان ينطقه العرب قبل ان يبدلوا همزته هاءا . نعني ان العرب كانوا فى عهودهم اللغوية الاولى يقولون : هو الرجل، هو المراة ، هو الشمس ، هو القمر . ثم ظهرت فئة منهم نطقت (هو) بالكسر : (هي) بنفس المعنى . ثم اختلطت هذه الفئة من العرب بغيرها من الفئات العربية فصار المختلطون يقول بعضهم (هو) وبعضهم (هي) ، ثم نشا منهما جيل يستعمل كلا الضميرين بمعنى واحد . ومما يدل على ان الضمير (هي) كان يستعمل اولا للذكر انه ما يزال كذلك فى الانكليزية بنفس النطق (هي : he)) . كذلك اطلق الساميون القدامى فى ارض بابل ضمير (هي) — قبل ابدال همزته هاءا — بصيغة (ايا — Ea) على الاله الذكر (ماء الغمر)

وبمرور الزمن تخصصت فى العربية صيغة (هو) بالمذكر وصيغة (هي) بالمؤنث . وتظهر (هي) بمعنى التانيث فى اللاتينية (ايا : ea)) اي نفس اسم الاله (ماء الغمر) .

ومثل هذا التخصص مالوف فى التطور اللغوي حين تظهر لفظتان بمعنى واحد مع وجود معنى آخر لا لفظ له . فالمادة أن المعنى المحتاج الى لفظ يعبر به عن وجوده يختطف احد اللفظين المترادفين . وهكذا اختطف معنى التانيث (هي) واستاثر بها لنفسه .

فعندئذ تفاقمت فوضى التانيث والتذكير فى العربية . ذلك بان الجماد كذي الروح لابد من الاشارة اليه بضمير ما . وقد كان يقال للجماد (هو) و (هي) دون تمييز عندما كان معنى الكلمتين واحدا ، اي عاما لثلاثة اصناف : الذكور ، والاناث ، والاخلاء . وهكذا صار بعضهم يقول : هو الروح وهو العنق وهو السكين وهو الطريق وهو السبيل .. وبعضهم يقول : هي الروح وهي العنق وهي السكين وهي الطريق وهي السبيل ، اي انهم اضطروا الى تذكير الجماد الخلو او تانيثه لانهم لم يجدوا ضميرا ثالثا يخصونه به كما خص الانكليز مثلا ضمير it بالخلو الغائب المفرد (لكنهم استعملوا نفس الضمائر للمذكر والمؤنث والخلو فى الحالات الاخرى اي فى حالات الخطاب والجمع) . ومع الزمن استقر التانيث فى العربية لبعض الاخلاء كالنار والحرب والدار، واستقر التذكير لبعضها كالجبل والشهر والليل والنهار ، وظل بعضها الآخر دائما مترددا بين الحالين اي يؤنث ويذكر دون تمييز كالروح والعنق والسكين ..

من جهة اخرى نجد ان التاء ايضا قد تخصصت بالتانيث فى مثل الوالدة والمراة والسعلاة والجنية ، ومن هنا صارت العادة ان تعامل كل اسماء الاخلاء المنتهية بالتاء معاملة المؤنث وكانما توهم قدامى العرب — كما توهم النحاة من بعدهم — ان تاء البانة والركوة والخيمة والرابية ايضا تعني التانيث فقالوا : هي البانة وهي الركوة وهي الخيمة .

وبتعبير آخر ان التانيث (الحقيقي) قد تفاعل فيه ضمير (هي) فى مثل هي الاتان ، مع تاء التانيث فى مثل الذئبة والفتاة ، فصارت (هي) تستعمل كقاعدة عامة مع اسماء الاناث سواء اكانت منتهية بالتاء ام لم تكن ، ومع اسماء الاخلاء المنتهية بالتاء . وقد عوملت هذه الاسماء معاملة الاناث فى مختلف حالات الكلام ، فصاروا يقولون : هي الاتان وهي الشمعة وهي الغابات .

اما ما يدل على الذكر والانثى من الاسماء غير التالية مثل الفرس فيؤنث اذا قصدوا الانثى ويذكر اذا قصدوا الذكر .

واما الاسماء التي يجوز نطقها بالتاء وبدونها كالنجمة والليلة فقد انثوها مع التاء وذكروها بدونها فقالوا : هو النجم وهي النجمة وهذا الليل وهذه الليلة ، وذلك الماء وتلك الماءة . لكن الضفدعة انثوها فى كلتا الحالتين فقالوا : تلك الضفدعة وهذه الضفدع ، لانهم اعتبروها انثى فى كلتا الحالتين ، اما ذكر الضفدع فسموه الملجوم .

واذا كانت حياة الاستقرار والاجتماع في صعيد قد ادت الى ثبوت القواعد اللغوية ، مثل التأنيث بالفتحة كقاعدة عامة في اللاتينية ، فان حياة التنقل في المعربة وتكرار افتراق اهلها واجتماعهم على غير نظام قد جعل من المعربة مختبرا لغويا تقع فيه تجارب لغوية كثيرة التنوع والتعقيد دائمة التفاعل والتمخض والتولد . (وقد استمرت المعربة تصدر نماذج منها الى الخارج، لغات ولهجات، على السنة الاريين والحاميين والساميين ، منذ سحيق العصور) .

وبنتيجة ذلك التفاعل والتمخض والتولد في المعربة صار بعض القبائل يؤنث بعض اسماء الاخلاء كما رأينا ، وبعض القبائل يذكرها ، وبعضهم يؤنثها ويذكرها. فلهذا اختلف اللغويون فيما يؤنثون ويذكرون من اسماء الجمادات لان بعضهم يروي عن هذه الطائفة وبعضهم عن تلك .

وقد اخذ المحدثون من معاصرينا يميلون الى اعتبار (هو) ضميرا عاما للتذكير والتجريد من المنسل (1) معا ، فقل اليوم من يقولون (هي الطريق) واقل منهم من يقولون (هي السوق) فيما عدا قولهم: السوق السوداء والسوق المشتركة . واما كلمة (السلم) فلا نظن اننا قراناها مؤنثة لاحد من المحدثين ولا حتى المتنطسين منهم . واما (الرمح والغول) فلا نذكر انهما مرا بنا شخصيا مؤنثين في شعر او نثر حديث ولا قديم، بالرغم من ان اللغويين ادرجوهما ضمن الاسماء المؤنثة .

وفي اللهجة المصرية يؤنثون الامضاء والهناء مثلا وينطقونهما الامضة والهنة لانتهائهما بالفتحة ، وفي اللهجة المغربية يؤنثون الزيت لانتهائه بالتاء . وبعض العراقيين يؤنثون الراس والباب والبطن ، بل ان بعض ضعاف الكتاب من معاصرينا يفعلون ذلك ايضا ، وقد وجدناه حتى عند ذوي الاسماء الآفاقية (اي التي طبقت شهرتها الآفاق) .

هذه البلبلة التي كانت شغلا شاغلا للغويين القدامى ، هي التي حدت ببعضهم الى ان يقول بجواز التأنيث والتذكير في جميع اسماء الجمادات التي لا تدل صيغتها على التأنيث . واصوب من هذا هو الاتجاه الذي ينتحيه التطور في هذا الجيل كالذي نوهنا به ، اي تغليب التذكير على الاسماء الخلوة ، الا ما ورد في صيغة التأنيث او استقر في الكلام تأنيثه حتى في الدارجات كالشمس والارض والحرب والنار ..

ونشهد لقدامى العرب انهم اصابوا حين انثوا بعض الاسماء مع خلوها من علامة التأنيث كالظئر والمرضع والحامل ، لان هذه الصفات لا تكون الا في الاناث ، ولو انهم — العرب — شذوا حين عمموا صفة الولادة على الرجل . ويبطل استغراب القارىء لقولنا هذا اذا تذكر انهم يسمون الاب (الوالد) مع استحالة الولادة عليه . واضفاء صفة الولادة على الاب وهو منها براء ليس كذلك من باب مجاملة المراة او الخضوع لسطوتها ، وانما جاء من اطلاق (الوالدين) على الام الوالدة والاب ، كما اطلقوا (القمرين) على الشمس والقمر . وقد اطلقوا عليهما (الابوين) ايضا ، لكنهم لم يسموا الوالدة ابة كما سمو الاب والدا .

الا ان ذلك المنطق — في الظئر والحامل والمرضع — يطير هباءا في مثل : الخادم والعاثر والرسول والضيف وامثالها من الاسماء التي تطلق على الذكر والانثى ، اي ان الصيغة في هذه الاسماء يمكن اعتبارها خنثى ، وانما تكون ذكرا او انثى حين تميزها قرينة من الضمائر او غيرها حيث يقال : هي الخادم ، وهن العاثرات ، وتلك الرسول ، وهذه الضيف .. او : هو الخادم وهم العاثرون ..

تانيث الجموع :

والآن وقد رأينا التأنيث في حالتيه ، اي نشوئه من اضافة التاء اولا ومن استعمال ضمير (هي) ثانيا ، نأتي الى ظاهرة اخرى منشؤها اختلاط معنى الجمع بالتأنيث ، في كلتا الحالتين .

ان معاملة بعض الاخلاء من الجمادات معاملة الاناث قد سرت عدواها الى جموع تلك الجمادات ثم الى جموع كل الجمادات ، فصارت تؤنث بالتاء ويشار اليها بما يخص الانثى المفردة من الضمائر واسماء الاشارة والصفات ، ما تجتمع نماذجه في مثل قولك : تلك هي (الجبال) الشماء الزاهية التي تسر رائيها . فجميع الالفاظ في هذه العبارة خاصة بالانثى مع انها تدل على الجبال التي مفردها (الجبل) مذكر .

---

1) نقصد بالمنسل — زنة المبرد — آلة التناسل للذكر والانثى .

وتعامل الاخلاء احيانا معاملة جمع المؤنث السالم فيقال « انهن عصور متطاولات ودهور داهرات » .

فاذا اضفنا الى هذا جموع المؤنثات الحقيقيات من بني الانسان والحيوان علاوة على بعض أسماء الذكور التي تجمع بالتاء كاليمانية والخيالة ، وتقول الرجال وتفعل — مما ظنوه تأنيثا — اتضح لنا لماذا تغلب التأنيث على اكثر الجموع ، وعرفنا لماذا قال شعرور النحاة :

ان قومي تجمعوا وبقتلي تحدثوا
لا ابالي بجمعهم كل جمع مؤنث !

وما سميناه شعرورا لفئاة شعره لكن لانه زعم بالاضافة الى ذلك ان (كل جمع) مؤنث ، متجاهلا جموع الذكور مثل : هم الرجال ، فعلوا ، ويفعلون ، وفاعلون . ولو قد قال بدلا من ذلك « رب جمع مؤنث) لاحسن واصاب ، بمعنى أن (رب) للتكثير لا للتقليل .

لهذا فيما نظن موجز حكاية هذا التأنيث اللغوي الذي بلبل بال اللغويين والنحويين ، قديما وحديثا ، من شرقيين ومستشرقين — المسؤول فى احداثه ضمير (هي) الذي خدع العرب الاقدمين بمعنييه للتذكير والتأنيث ، وشريكته فى الجرم (التاء) التي خدعت العرب الاقدمين والنحاة من بعدهم بمعانيها الكثيرة المتشابكة .

علم الأصوات الحيوانية عند العرب

الأستاذ عبد الهادي الفضلي أستاذ اللغة العربية بكلية الفقه
"النجف الأشرف العراق"

يعزو تاريخ علم النفس وضع نظرية التعلم الشرطي الى العالم الفسيولوجي الروسي ايفان بتروفيتش بافلوف Pavlov المتوفى 1936 م .

وهي من مهمات نظريات التعلم ومن مهمات موضوعات علم النفس .

ويعني التعلم الشرطي : ذلك الترابط الآلي بين الاستجابات الطبيعية والمنبهات الصناعية الشرطية ، والذي تنوب فيه اشارات ورموز اشارة السلوك عن المنبه الاصلي .

وقد توصل اليها العلامة بافلوف من تجاربه التي اجراها على الكلب الذي كان يثبته على مائدة التجارب.

حيث كان يضع على لسان الكلب مقدارا من مسحوق اللحم المجفف ، قارعا جرسا كهربائيا قبيل وضع المسحوق في فم الكلب .

ولاحظ بعد أن كرر التجربة اكثر من مرة ان قرع الجرس الكهربائي وحده كاف في امراز لعاب الكلب .

واعاد التجربة مستبدلا قرع الجرس باضاءة مصباح امام الكلب وقبيل وضع المسحوق في فمه ايضا.

ولاحظ ان اضاءة المصباح وحدها بعد تكرار التجربة كافية في ان يسيل لعاب الكلب عند رؤيتها .

وثالثة اعادها وهو يربت على ظهر الكلب او كتفه وقبيل وضع المسحوق في فمه ايضا .

فكانت النتيجة ذاتها .

فاهتدى من هذا الى ان المنبهات البديلة او ما يسميها بـ (المنبهات الشرطية) تستدعي الاستجابة أو ما سماه بـ (الفعل المنعكس الشرطي) كما تستدعيها المنبهات الطبيعية .

وقد اطلق على تعلم الحيوان الاستجابة للمنبهات الشرطية مصطلح (التعلم الشرطي) .

وانتهى ايضا الى ان هذا اللون من التعلم موجود في جميع الحيوانات حتى احطها .. والى انه يستطاع بواسطة تفسير جميع مظاهر السلوك الانساني والحيواني (1) .

ونحن عندما نرجع الى تراثنا العلمي العربي نجد جذور هذه النظرية تبدأ وبتفصيل من قبل العلامة النحوي العربي رضي الدين الاستراباذي المعروف بـ (الرضي) والمتوفى عام 684 هـ ، وذلك في كتابه النحوي (شرح الكافية) عند دراسته موضوع (الاصوات) .

قال :

« وثالثها : **أصوات يصوت بها للحيوانات عند**

1) أصول علم النفس للدكتور احمد عزت راجح 281.

طلب شيء منها ، اما المجيء كالفاظ الدعاء نحـــو (جوت) و (قوس) ونحوهما ، واما الذهـــاب كـــ (هلا) و (هج) و (هجا) ونحوها ، واما امر آخر كـــ (سا) للشرب و (هدع) للتسكين .

وهذه الالفاظ ليست مما يخاطب به هـــذه الحيوانات العجم حتى يقال انها اوامر او نواه ـــ كما ذهب اليه بعضهم ـــ لانها لا تصلح لكونها مخاطبة ، لعدم فهمها للكلام كما قال الله تعالى : (كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الادعاء ونداء) (1) ، بل كان اصلها ان الشخص كان يقصد انقياد بعض الحيوانات لشيء من هذه الافعال فيصوت لها اما بصوت غير مركب من الحروف كالصفير للدابة عند ايرادها الماء ، وغير ذلك، واما بصوت معين مركب من حروف معينة لا معنى تحته ثم يحرضه مقارنا لذلك التصويت على ذلك الامر اما بضربه وتاديبه ، واما بايناسه واطعامه ، فكـــان الحيوان يمتثل المراد منه اما رهبة من الضرب او رغبة في ذلك البـــر .

وكان يتكرر مقارنة ذلك التصويت لذلك الضرب او البر الى ان يكتفي الطالب بذلك الصوت عـــن الضرب او البر لانه كان يتصور الحيوان من ذلـــك الصوت ما يصحبه من الضرب او غده فيمتثل عقيب الصوت عادة ودربة مضار ذلك الصوت المركب مـــن الحروف كالامر والنهي لذلك الحيوان .

وانما وضعوا لمثل هذا الغرض صوتا مركبا من الحروف ولم يقنعوا بساذج الصوت لان الصوت من حيث هو هو مشتبه الافراد وتمايزها بالتقطيع والاعتماد على المخارج سهل ، فلما كان الافعال المطلوبة مـــن الحيوانات مختلفة ارادوا اختلاف العلامات الدالة عليها فركبوها من الحروف .

وما ذكرنا من الترتيب يتبين منه كيفية تعليـــم الحيوانات كالدب والقرد والكلب وغير ذلك .

هذا .. وانا لا ارى منعا من ارتكاب صيرورة هذه الاصوات المقارنة في الاصل للضرب او البر لما استغنى بها الطالب عنهما اسماء افعال بمعنى الامـــر ـــ كما ذهب اليه بعضهم ـــ فتكون اوامر ونواهي ، لان الله سبحانه وتعالى جعل العجماوات في فهم المطلوب من هذه الاصوات بمنزلة العقلاء ، فلا بأس بأن تخاطب وتكلم بما تفهمه كالعقلاء » (2) .

وفي ضوء المقارنة بين هذا النص (الذي نقلتـــه بكامله ليفاد منه) وبين تجارب بافلوف ونتائجـــه .. نستطيع ان ننتهي الى ان الرضي كان سابقا في الاهتداء الى هذه النظرية (نظرية التعلم الشرطي) .

وربما افادها من ملاحظاته المتكررة لحيـــاة الحيوان وسلوكه حيث لم يذكر تاريخيا انه قام بتجارب مماثلة لما قام به بافلوف .

والنظرية كما تاتي نتيجة لتجارب تجري في معامل الترويض ، تاتي ايضا نتيجة للملاحظـــة المنظمـــة الدقيقة للسلوك .

ونستطيع ان نعلل عدم اعطاء اهتداء الرضـــي للنظرية الاهتمام الدراسي المطلوب ، بمجيئه سابقـــا بقرون لوجود علم النفس ، ولانه كان في مجال غيـــر نفسي وهو المجال النحوي .

وعامل آخر عدم دراسة نظريات الرضي اللغوية وغيرها من قبل الباحثين العرب او غيرهم ـــ فيمـــا اعلمه .

فقد خلف الرضي ثروة علمية ضخمة ، وذلك في كتابيه (شرح الكافية) في علم النحو العربي (وشرح الشافية) في علم الصرف العربي ، اللذين عالج فيهما مسائل ذينك العلمين ونظرياتهما معالجة واعية اتسمت بالاصالة في الراي والعمق في البحث والانتهاء الى آراء خاصة ذات قيمة مهمة في المجالين اللغوي والنحـــوي منحته لقب (المحقق) بين العلماء (ونجم الائمـــة) باستحقاق .

واخيرا :

للعالم بافلوف تاكيد النظرية بالتجربة العملية ، وبلورتها الى مصطلح اخذ مجاله العلمي .

---

1) 171/ البقرة .
2) شرح الكافية 80/2 و 81 .

ملاحظات حول النقد الأدبي

الدكتور محمد رجب البيومي "القاهرة"

يطيلون الحديث عن معنى النقد فى اللغة فيلمون بكل ما قالت المعاجم فى مادة نقد ومشتقاتها ثم يحاولون ان يعقدوا صلة ما بين كل معنى وما تعورف عليه الآن من معنى النقد الادبي ، وذلك جهد ان ابان عن حسن التصرف وبراعة الاحتيال فانه يكثر الحديث فى غير طائل ، والاوفق ان نختار من معاني الكلمة اللغوية ما يمت بالصلة القريبة الى المعنى الاصطلاحي بلا تزيد فى التفسير لنصل الى الحقيقة دون تصعيب .

واذا كان من أوضح معاني النقد فى كتب اللغة انه تمييز الجيد من الرديء ، تقول نقدت الدراهم وانتقدتها بمعنى انك ابنت الزائف من الصحيح ، وميزت الجيد من الرديء ، فان هذا المعنى الواضح هو القريب من مدلول النقد فى الاصطلاح الادبي لان الناقد لا يخرج عن كونه صيرفيا ماهرا ، يعرف الزائف من الصحيح ويميز الجيد من الرديء ، غير ان مادته هي الاساليب الادبية بمختلف فنونها واجناسها ، فهو اذن جوهري المعاني والالفاظ ، يزن الخواطر والمشاعر والتعابير بميزانه الادبي ويبعث بفكره وراء كل كلمة وخاطره مبينا مكان ذلك من البناء الفني المتكامل للجنس الادبي فهو بعمله هذا من المدلول اللغوي قريب قريب واذا كان الناقد الادبي يعمد الى تصحيح الخطأ وتقويم المعوج وفى ذلك من توجيه اللوم ضمنيا الى صاحب الاثر المنقود ما قد يقع منه موقع الالم وعدم الارتياح فان من معاني النقد اللغوية ما يمت بصلة قريبة الى ذلك ، اذ أن العرب قد يستعملون النقد بمعنى العيب والانتقاص فقد جاء فى قولهم نقدته الحية بمعنى لدغته ، ونقدت رأسه بأصبعي بمعنى ضربته وفيما يروى من حديث أبي الدرداء ان نقدت الناس نقدوك بمعنى ان عبتهم عابوك ومن هنا رجح بعض الباحثين غلبة معنى النقد على مدلول المؤاخذة والتخطئة مشيرا الى ان اللغة قد وضعت لفظ التقريظ لما يقابل المؤاخذة من المديح والاطراء اخذا من قول العرب قرظت الجلد اذا دبغ بالقرظ فحسن وزين وجمل وقد شاع معنى التقريظ اليوم شيوعا ظاهرا ، اذ نرى نفرا من الناس يحرصون على كتابة مقدمات لمؤلفاتهم تتضمن المديح الخالص دون ان تتعرض — الا فى القليل — لمخالفة صريحة فى الراي والاتجاه ، ونحن لا نرفض التقريظ اذا صدر عن راي وامتقاد ووافق موضعه من البحث الرائع والعمل الممتاز ، فهناك من الآثار الادبية ما هو جدير بالتقريظ الجميل ، ولكن المشاهد المؤلم أن اكثر من يتجهون الى التقريظ لا يضعونه الموضع الصحيح فربما رجح عندهم البهرج وشال الصحيح .

اذن فتمييز الجيد من الرديء ، والعيب المنتقص كلاهما من مدلول المعنى اللغوي لكلمة النقد فاذا اتجهنا الى المعنى الادبي للنقد عند العرب وجدناه يستعمل فى القديم بمعنى التحليل والشرح والتمييز والحكم فالنقد لا يخرج لديهم عن دراسة الآثار الادبية وتفسيرها وتحليلها ثم بيان مداها من الاصابة والخطأ مقدرين درجتها الفنية شارحين اسباب الاستحسان

والاستهجان وذلك ما يراه المحدثون اذ يقولون عن النقد انه التقدير الصحيح لاي اثر فني مع بيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة الى سواه ، واذا كان النقد الادبي اليوم في جوهره هو دراسة الاسلوب فكرة وتصويرا وتعبيرا واحساسا مع الحكم عليه فان ذلك ما يلتقي بمعنى النقد في كتب الادب القديمة من ايسر السبيل .

واذا كانت الكتب المؤلفة في النقد العربي القديم، هي الجامعة لمذاهب العلماء والادباء في الفن ، والحافلة بآراء شيوخ الادب في النثر والشعر ، فاننا لا نصل منها الى تحديد اول من اطلق كلمة النقد على مدلولها الادبي من هؤلاء ، واقدم نص وردت فيه هذه الكلمة يرتفع الى البحتري حين تحدث عن ابي العباس ابن ثعلب فقال عنه : « ما رايته ناقدا للشعر ولا مميزا للالفاظ » ولكن رواية البحتري جاءت على لسان عبد القاهر في«دلائل الاعجاز» فلعله روى المعنى دون اللفظ، واظهر من نص على هذه الكلمة صراحة هو ابو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي من علماء القرن الرابع (337) هـ حين سمى كتابه نقد الشعر وصرح بانه يبحث في تخليص جيده من رديئه ، وقد سبقه الى هذا المضمار محمد بن سلام الجمحي (232) هـ في كتابه «طبقات الشعراء» والجاحظ (255) هـ في «البيان والتبيين» وابن قتيبة (276) هـ في «كتاب الشعر والشعراء»، الا ان هؤلاء الثلاثة لم يشيروا الى كلمة النقد اطلاقا حتى جعلها قدامة اسما لكتابه فتعورفت واشتهرت، وترددت بعدذلك في ماكتبه الآمدي والجرجاني والزمخشري وابو هلال وابن رشيق حتى اصبحت علما على من ادبي طائر الصيت ، ويخيل الى ان خلف الاحمر (180) اول من اشار اليها من قريب دون ان ينص على لفظها الصريح وكانه حوم ولم يقع ، فقد روى صاحب طبقات الشعراء (1) ان قائلا قال له : اذا سمعت انا بالشعر استحسنه فما ابالي ما قلت فيه انت واصحابك فقال له : « اذا اخذت انت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف انه رديء هل ينفعك استحسانك له » والصيرفي في اللغة هو الناقد وقد قرنه خلف الاحمر بمن يفحص الشعر ويزنه بميزانه الصحيح ، ثم صار الفاحص ناقدا دون تفريق . هذا الناقد الذي يجلس من الاثر الادبي مجلس القاضي فوق منصة القضاء ، يحلل البواعث ويكتنه السرائر ويتعمق المعاني ما موقفه من النص المنقود ؟ أيقتصر في نقده على ايضاح مشاعره الذاتية ازاء النص فيجيء حكمه النقدي صدى لشعوره النفسي ومعبرا عن مدى استجابته الشخصية للنص المدروس أم يتقيد بقواعد علمية مرسومة تعارف عليها السابقون وجعلوها مناط الاحتذاء والترسم لقد طال النقاش حول الذاتية والموضوعية فانبرى الذاتيون ينادون بان الناقد ليس آلة في يد المقررات السابقة يسير في ضوئها ، ويمشو الى نارها ويحرص على التزامها دون انحراف ، فان له من مشاعره الخاصة وثقافته الثرة ، وبصيرته الناقدة ما يستطيع به ان يضع بعض المقررات الجديدة التي تفتح اتجاهات مغلقة ، وتشير الى طرق حديثة في مجال التعبير والتصوير ، وبذلك يتقدم الادب في شتى مجاليه ويضيف اللاحق الى السابق ما يطرد به النمو الادبي نحو الكمال هذا بعض ما يقوله الذاتيون ، اما انصار النقد الموضوعي ، فيرون ان الاهواء الشخصية تتحكم ، والميول النفسية تسيطر فاذا تجرد الناقد عن كل مصطلح مقرر امكنه تحت هذه الميول المتحكمة ان يمدح المخطيء ويذم المصيب ولن يعدم من اوجه التحلل والافتعال ما يظهر نقده مظهر المحايد المتجرد ، واذا استطاع بعض الحصفاء ان يدركوا مآخذ الضعف في انحرافه فان الكثرة من القراء سينخدعون بطلائه ، ويسيرون في تياره وربما احتذى الناشئة حذوه فاندفعوا الى محاكاة ادب هابط رفعه ناقد مغرض لحاجة في نفسه فامتد ضرره السيء الى نطاق بعيد هذا بعض ما يقوله الموضوعيون ، وتلك قضية تلزمنا ان نقول ان الحدود ليست فاصلة بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي ، اذ ان النقد الذاتي مهما استجاب لتاثيره النفسي وتجاوبه الشعوري ومهما عبر عن انفعاله الخاص نحو اثر يقرؤه ويتذوقه فانه يصدر في تجاوبه واستجابته عن حصيلة قراءات سابقة تتفق على استحسان الجيد واستهجان الرديء ، وهو بعد لم يستطع ان يشق طريقه في ميدان النقد بحيث يصبح ذا تاثير كبير على قرائه الا بعد رسوخ في النظر المستقيم وادمان على البحث الجيد ، ومواصلة للدراسة المنقبة عن مطاوي المعارف ومجاهل الآراء ، وهو بكل هذه الدراسة الموضوعية لا يستطيع ان يكون ذاتيا يتجرد عن جميع ما قرره السابقون من احكام ، كما ان الناقد الموضوعي مهما التزم القرارات المعلومة وتقيد بالمعارف المرسومة ونهج منهج المحافظين على قضايا الفكر ومذاهب البحث فانه انسان يحس ويتاثر

1) ص 8 طبقات فحول الشعراء .

ويستجيب ، وله ذاتيته التي تدعوه الى التفاعل مع النص تفاعلا يسير به الى تحبيذه فى ضوء ما يعلم من المقررات فعنصر الذاتية قريب منه قرب الموضوعية من صاحبه ؟ فليست هناك حدود فاصلة تجعل الناقد الموضوعي ينعزل انعزالا تاما عن الناقد الذاتي ، غير اننا نلحظ السمة البارزة لدى الناقد فاذا غلبت الذاتية على احكامه عد من انصارها واذا غلبت الموضوعية عليه كان ناقدا موضوعيا ، ومن خير الادب ان يوجد الناقد الذاتي والناقد الموضوعي معا ليبتكر الاول ويجدد ويدعو الى آفاق جديدة تفيض بالضياء فيطرد النمو الادبي وتتسلسل الحلقات الجديدة على تناسل الزمان ، أما الناقد الموضوعي فيقف حائلا دون الشطط الجامح ، وحاجزا دون التهور فى الراي والاسراف المغرق ، وسيمر الزمن فى دورته لينشأ فى الجيل اللاحق من يزن آراء الذاتيين والموضوعيين معا ، فيرمي بالزبد ويبقى الصريح .

واذا كنا نحب الادب ونحرص على الاستمتاع بصوره والافادة من افكاره والالتذاذ بموسيقاه فان حبنا للادب يدفعنا تلقائيا الى حب النقد ، اذ ان النقد يتولى شرح الاثر الادبي وتحليله فيسلط اشعته القوية على زواياه الخافية ، ويهدي القارىء الى مفاتيح دقيقة قد تغيب عن ذهنه فيجيء عمله مكملا لعمل الاديب ، وقد يضيق كثير من المنشئين بهؤلاء النقاد ، ويتبرمون بما يبدون من ملاحظات واذكر اني قرأت قصة غريبة تهدف الى السخرية من النقاد وتصفهم بالفشل والجدب وتتحداهم ان يضعوا اثرا من الآثار الفنية التي يعملون فيها معاولهم الهادمة ولعل كاتب القصة ممن تعرضوا الى نقد متتابع ازعجه واقلق راحته ، فاندفع يثأر لنفسه من قوم يحملون معاول الهدم وادوات البناء معا ، لان الناقد حين يهدم اثرا فنيا انما يدل على نواحي ضعفه ومواضع تهافته ليتجنبها من يزاول الانتاج وهو فى الوقت نفسه يدل على طريقة الانشاء الجيد هادما بانيا فى وقت واحد وكل ناقد يعمد الى الهدم فقط دون أن يشير بالعلاج المسدد لا يؤدي رسالته كما يجب أن تكون ، والقارىء ظافر حين يقرأ النص ثم يطالع نقده لانه حين قرأ النص قد خرج عنه لا محالة بفكرة ما دقيقة أو مضطربة ، فوزنه بميزانه الشخصي الذي تخلقه الطبيعة فى نفس كل قارىء يقرأ ويحكم فاذا قرأ بعد ذلك نقدا جيدا لهذا الاثر ، فانه يوجهه الى ما فاته لدى قراءته الاولى من ملاحظات وربما دفعه الى نهج يلتزمه عند القراءة فتنمو فى نفسه بذرة ناقد حقيقي يشرئب للنمو ، وقد يشق طريقه الى الميدان ، أو يكتفي بما اتيح له من قوة الملاحظة وسعة الافق حين درس وجهة النظر الجديدة فيما طالع ودرس ، واذا كانت فائدة القارىء عظيمة فان فائدة صاحب الأثر الفني اعظم وادسم ، لان كل صاحب عمل نظري أو فني يحب أن يستطلع آراء المتخصصين فيه ، فهو يشعر فى أطوائه برغبة ملحة الى الاستماع لكل ما يدور حوله.من وجهات النظر المختلفة ، فاذا صادف ناقد مخلصا لهدفه فانه يكمل نقصه بما يبدي من اعتراض أو مؤاخذة ، ولن يضيره فى شيء أن يحصي الناقد اخطاءه فى دقة وتعليل لانه اذا آلمه من هذه الناحية فسيسره حين يتعرض بالتحليل الكاشف الى مواطن الابداع فى فنه وموضع النبوغ فى نظراته ، وقد يكون سفيره الى القراء، اذ يوثق صلاتهم به حين يفتح عيونهم على منافذ جديدة فى انتاجه لم تكن لتتاح للكثرة القارئة دون ناقد نزيه ، وعلى أن من الخطر كل الخطر ان يصبح الاديب تلميذا لناقده يخضع لتوجيهه ويرضى بقبول توصياته ، اذ ان من الناقدين من تشمخ نفوسهم الى الاستعلاء فيدعون انهم اساتذة الادباء مع انهم فى حقيقة نفوسهم لا يعيشون على غير تراث هؤلاء التلاميذ المزعومين.فلولا ان الشاعر او الكاتب قد أبدع أثره الفني ما وجد الناقد مجالا للحديث ؟ وفى الناس من يشترط فى الناقد ان يكون اديبا منشئا زاول الانتاج الفني ليكون ابصر بمضايقه، وادرى بمنعرجاته وقد يكون ذلك ميسورا لدى بعض الموهوبين.من النقاد، الا انه ليس أمرا عاما لدى الجميع ، وقد كان الرافعي رحمه الله يشترط فى ناقد الشعر أن يكون شاعرا ، وهو اشتراط عسير التحقيق من ناحية وغير ضروري من ناحية أخرى اذ ان أكثر نقدة الشعر المجيدين فى القديم والحديث ليسوا بشعراء ولم يمنعهم ذلك عن تاليف الكتب الناجحة والمقالات الحاسمة فى فن الشعر ومآخذه على ان الناقد من الاديب قريب غير بعيد اذ أن ميدان الفن الادبي هو الانسان والطبيعة فالاديب اما ان يتعرض للنفس الباطنية بما يموج بها من تيار العواطف والنوازع فيصدر عن الذات الداخلية ناظرا الى العلاقات البارزة فى الصلات الاجتماعية والمتناقضات البشرية والموافقات الانسانية ومتخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم الخفية فى غبطة وارتياح ، واما ان يتعرض للطبيعة من حوله صامتة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم

الخفية فى غبطة وارتياح ، واما ان يتعرض للطبيعة من حوله صامتة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من هذا المحيط الزاخر مسرحا بديعا لخياله الخالق ، وهو فى نظريته الداخلية والخارجية لا يقدم للناقد شيئا غريبا عنه ، فهو انسان مثله يرى ويحس ويتصور ويحكم ، ولئن فاته ابداع المصور المنشىء فلديه ابداع المحلل الشارح وقد تكون المقالة النقدية بانسجام بنائها وتسلسل افكارها وابماض لفتاتها وسر ايحائها ذات متعة وجدانية لدى المتذوقين .

ولكن اي ناقد الذي يمتعنا بفنه الادبي كما يقنعنا بنظره الفكري هذا؟ اننا نقرأ كل يوم فى الصحف والمجلات — حتى الرصينة منها — فصولا تتسم بسمة النقد الظاهرية ولكنها لا تؤدي وظيفته الحقيقية فكم من ناقد يتعرض الى قصة او ديوان او مؤلف فلا يلج الى خوافيه ولا يفسر مراميه — مخالفا او مؤيدا — بل يكتفي بعرض عام يلم به من يقرأ مقدمة المؤلف فى كتابه ، حتى قيل لكل موظف فى مجلة او صحيفة انه يستطيع ان يكون ناقدا ، وقد يكون عرض ابواب الكتاب والاشارة السريعة الى مضمونه مما يفيد القارىء بعض الافادة ولكن صاحب هذا العرض لا يمت الى النقاد بسبب وثيق مهما اخذ مظهرهم الخارجي فى حديثه ونحن نشعر الآن بانخفاض المستوى الادبي فى التاليف عما كان عليه فى حقبة قريبة ، ومرد ذلك فى بعض اسبابه الى ضحالة النقد الادبي ، وفقد الناقد الموجه ، الذي يملك القدرة على التسديد والتوجيه ، وليست الصفات المفروضة فى هذا الناقد المسدد بالامر المعجز ، فهي مما يدخل فى طوق نفر من الموهوبين لو تركوا الكسل الوادع ونشطوا الى العمل الدءوب .

واول صفات الناقد الهادف قوة البصيرة المستندة الى الذكاء اللامح ، فهو صاحب الراي الممتاز فى صفوة ما تنتجه العقول الممتازة من بيان ولابد ان يجد لديه من النفاذ والعمق ما يسعفه بالتفسير الهادف ، والملاحظة القوية كما يمده برصيد هي من التجربة الفنية والدراية الشخصيةبالبواعث والغايات، ومبلغ ذلك كله من نفسه التي تتوهج بالفكر وتزخر بالعاطفة والاحساس والتصور وتلك ذخائر ثمينة يلمسها صاحب الاستعداد الاصيل فى نفسه ليتصل بها الى ما يريد من التقييم والتقويم .

وهذه البصيرة المستندة الى الذكاء فى حاجة ماسة الى الاطلاع المستمر على احدث ما يجد من النظريات والآراء الدائرة فى محيطه الفني ، لان سعة المعرفة تفتح آماق النظر وتسلح صاحبها بالقوى عدده الماضية ، وكلما زادت هذه المعرفة منحت جناح صاحبها ريشا يحلق فى آفاقه المترامية ، واذا كنا نرى الآن بعض من يدابون من النقاد على الاطلاع ويحرصون على اقتطاف اشهى الثمار من الحقل العلمي ثم لا يبلغون باطلاعهم الواسع ما يريدون من صدق النقد وكمال التوجيه فذلك لان الاطلاع والواسع وان تنوعت روافده لا يفيد الناقد اذا عدم البصيرة القوية المستندة الى الذكاء اللامح ، اذ ان هذه المعارف المختلفة اغذية جيدة تفيد الجسم اكبر فائدة ولكن على شريطة ان توجد الاسنان القاضمة والمعدة الهاضمة بحيث تتحول الى دم حار قوي يمنح الجسم نشاطه ويجدد انسجته وخلاياه بالذين يمعنون فى الاطلاع الدائب دون ان يتسلحوا بالذكاء اللامح والخبرة الحصيفة لا يعطون الصورة الامينة للناقد المنشود .

وتاتي بعد قوة البصيرة وسعة الاطلاع صفة ثالثة للناقد الجيد وهي تجرده الخالص من ميوله الذاتية واهوائه الشخصية بحيث ينسى عصبيته لما يعتنق من مذاهب حين يتجه الى النص بالنقد اذ ان هذه الميول الخاصة تضع على الحقائق ستارا يحجب كثيرا من لالائها الساطع ، ونحن نعلم ان الانصاف الادبي خلق عزيز المنال لا يرقى اليه غير ذوي العزم من اصحاب المبادىء النبيلة ولكنه على صعوبة مناله موجود متحقق لدى قلة تتسم به وتصدر عنه فيما تدلى به من الاحكام ومن غرائب النفس البشرية ان صاحب التعصب الذهني قد لا يلتفت فى بعض احواله الى تعصبه بل يتجه اليه لا شعوريا تحت تاثير عوامل قوية بعيدة الخفاء فى منطقة التاثير الباطني فهو صادق بينه وبين نفسه حين يعلن اليك تجرده النزيه فى نقده اذا اردنا بالصدق موافقة النقد للاتجاه الشعوري فى راي الناقد ولكنه غير صادق حين نحلل اعماقه الدفينة التي قد يجهلها جهلا تاما لندرك ما التعصب على عينيه من غشاء ، وعلى القارىء ان يدرس ناقده دراسة وافية ليعلم مذاهبه التي يتمسك بها فى مختلف انائين الراي من سياسة وادب واجتماع ما دام يصدر عنها لا محالة ، فالتعصب المذهبي كان ولا يزال مما يضع الحوائل الكثيفة دون الصواب الصريح اذ ان صاحب الاتجاه الديني او السياسي او الاجتماعي لا يستطيع التخلص من مبادئه

الفكرية فى سهولة مفرطة ليجنح الى الحكم النزيه على اثر أدبي لا يرتضي منحاه وفى تاريخ النقد العربي امثلة كثيرة لشيوخ يعتنقون مذاهب خاصة فى الحديث والقديم تشل عقولهم عن التفكير الصحيح ، فهناك من يتعصب للجاهلين وحدهم ، ولا يكاد يفضل غيرهم فى مجال الاستشهاد وهناك من يفسح صدره فيضم الاسلاميين والامويين الى دائرة رضاه ويقف موقف السخرية مما احدثه ادباء العباسية من انتاج ، كما وجد أيضا من شيوخ النقد القديم من ينزع عنه رداء التعصب ، وينظر الى النص الادبي نظرة مجردة عن التعصب لاتجاه معين يصدر عنه فيما يقول ولعل ابن قتيبة قد افصح عن نفسه وعن غيره حين قال فى كتابه عن الشعر والشعراء : « ولم اقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل الى الفريقين واعطيت كلا حقه وورمت عليه حظه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل فى زمانه ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شرف خارجية فى اوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخطل يعدون محدثين ، وكان ابو عمرو بن العلاء يقول لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك من يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هانىء فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له واثنينا عليه به ولم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

ولابد ان نشير الى صفة رابعة للناقد الجيد وهي الصفاء النفسي الذي يطبعه بطابع الهدوء الوادع ويمنحه اعتدال المزاج ، واطمئنان الاعصاب فلا يثور لمخالفة او يهتاج لنقيصة بل ينظر الى الاثر نظرة الحكيم العالم بالبواعث المعطوف على الانسانية فى ضعفها وكبوتها ، فهو مع النص المنقود دارس متزن يعرف دوافع القول ، ويلقى صاحبه بابتسامة الود حين يشرح وجهة نظره ويضع نفسه مكانه مصورا ما اشتجر فى صدره من الاحاسيس حين رسم خلجاته فى ما قدم من انتاج ، ولا نريد بذلك ان ينقلب الناقد تقريظا مجاملا ، بل نريد أن يكون هذا الود الانساني مدعاة الى تفهم الاثر على حقيقته من ناحية وعاملا على قبول المنقود له وانتفاعه بما يحمل من تسديد وتوجيه، فما أضر بالنقد فى حديثه وقديمه غير قوم راوا الاستعلاء والسيطرة باب المؤاخذة والنقض فشنوا حربا طاحنة كان الاولى أن تكون مسامرة هادئة حتى لقد وتر عند الناقدين أن الشدة العنيفة هي طريقة التصويب والتقييم ، كما انتقلت العدوى الى جمهرة القراء فأخذوا يتابعون أصحاب القسوة المفرطة معجبين ، وقد تعجب حين ترى بعض المتزعمين فى ميدان النقد قد نالوا بسلاطتهم المغرضة ما لم ينله الشرفاء من امناء الكلمة وأرباب الهدوء المتزن وان كان مع هذه الجمهرة المشغوفة بقسوة النقد ثلة منصفة تنفر من الضجيج المفتعل ، وتسد اذنيها لدى الفرقعة الصاخبة ، وهي طائفة المستنيرين من ذوي النظر البعيد ، ومن الحظ الحسن ان يكون هؤلاء على قلتهم اداة الترجيح الحقيقية فى المعركة اذ يقولون فيسمعون .

ونحن فى عصر تقدمت فيه العلوم الانسانية فتشعبت فروعها واتسعت ميادينها وأصبحت تمد المثقف المعاصر بزاد دسم يعينه على النظر الثاقب والفكر الصحيح، واذا كان الناقد ملزما كل الالزام ان يلم الماما حسنا بخير ما ينتجه الفكر الانساني من علم وفلسفة، لتتسع آفاقه الفكرية ، فقد شهدت المعارك الادبية فى هذا العهد نقاشا حادا حول صلة هذه العلوم الانسانية بالنقد المعاصر ، فذهب فريق من الكاتبين الى تقعيد النقد ودعمه على أسس علمية ترتكز على هذه العلوم بمعنى أن تكون من علوم النفس والاجتماع والجمال أسس صالحة للنظر النقدي اذ ان عالم النفس حين يلم بالنفس الانسانية ويعلم نوازعها المتباينة وتياراتها المتصارعة وما تسببه العقد النفسية من صراع ، وما تمليه الغرائز من أهواء وميول فانه يستطيع على ضوء هذه المعرفة النفسية أن يحلل النص الادبي تحليلا يبرز مكامن القوة وأسباب الضعف فى جملته وتفصيله، كما ان عالم الاجتماع حين يرصد موقف الاديب من مجتمعه واثر المجتمع فى تكوين الاديب وتلوين مشاربه، وتنازع اهوائه فانه يلمس اثر ذلك فيما قدم من انتاج أدبي ، وربما التمس له بعض العذر فى ما يخالف وجهة النظر العامة بعض المخالفة ، وكذلك عالم الجمال الذي درس أصوله والم بمقاييسه وعرف مدى ما توصل اليه فى البحث عن ماهية الجمال وميزان الشيء الجميل فانه بمقاييسه الجمالية يستطيع أن يزن الاثر الادبي ميزانا علميا لا تميل به النوازع

الخاصة في شيء ، هذا ما ذهب اليه فريق من الباحثين وتطاحنوا من اجله مع فريق آخر يرى ان الدعوة الى تقعيد النقد الادبي ودعمه على اسس علمية ترتكز على العلوم الانسانية خطر داهم يحيط بالنقد الادبي ، لانه يصرف الناقد عن التذوق الفني الخالص الى اصطلاحات علمية تلتقي على دراسته ظلمة مبهمة ، لا تساعد على ارتقاء ذوق او تفهم احساس اذ يرون ان عمل الناقد الاول هو دراسة النص الادبي وتفسيره في افقه الادبي المتذوق بحيث يقف الناقد ليسجل خواطره الذاتية محللا مفسرا دون ان يتعالم بمصطلحات تقف كالصخور الثقيلة في طريق القارىء دون جدوى . هذا بعض ما تنازع حوله الفريقان باذلين جهودهم الشاقة في التدليل والتعليل ، فاصحاب الراي الاول يرون ان العلوم المختلفة تتشابك وتمتد لتقدم للذهن البشري غذاء يسدد نظره وينير طريقه ، ولابد من الالمام بها لنصل الى الحقائق الادبية دون انحراف ، فان العصر الحاضر هو عصر الدراسات التجريبية في كل مجال ولابد أن تطبق هذه الدراسات على الانسان ليفهم على ضوئها منازع انتاجه وبواعث خواطره ، وذلك مما يدعو الى تثقيف الناقد تثقيفا بصيرا ، لترتفع البحوث الادبية الى المستوى المنهجي ذي القواعد المضبوطة ، والموازين الدقيقة ، أما الذين يخالفون ذلك فهم فيراي دعاة التثقيف العلمي انفعاليون لا يصبرون على بحث بل يسرعون الى الاستجابة الى تاثراتهم السريعة عند القراءة العاجلة مما يدفعهم الى الشطط في الحكم والانحراف عن الجادة ، ولن يسكت اصحاب الراي الثاني عن خصومهم فهبوا يقولون انهم ينسون وظيفة النقد الحقيقية وهي دراسة النصوص الادبية ، وتحديد كل معنى وكل لفظ مع ايضاح صلة الافكار وارتباطها وملاءمة الشكل للمضمون وكل اقحام للمعارف الانسانية على هذه الدراسة مما يبعد بالناقد عن ميدانه ، ولسنا نقول بعدم جدوى هذه المعارف الانسانية للناقد فهي توسع مداركه وتفسر غوامضه دون نزاع ، ولكننا نقول ان اقحامها في النقد مما يطمس بريقه ويضعف تاثيره وهم بذلك يتفقون مع اصحاب الراي الاول في جدوى هذه الدراسات كثقافة عامة للناقد ، ويختلفون معهم اختلافا يصل الى حد الضراوة والعنف في محاولة استخدام مصطلحاتهما العلمية واساليبها النظرية في عملية النقد ذاته ، ونحن معهم في أن النقد الادبي يجب الا تتكدر مشاربه بهذه التقسيمات النظرية والمصطلحات العلمية بل يظل في مستواه الفني واضحا مشرقا يخاطب الذوق والعقل والعاطفة دون غشاء ، ولدينا المثال البارز على فساد التفريع العلمي في مجال النقد الادبي بما نعرفه من انحدار علوم البلاغة في عهودها الاخيرة على يد العقليين من امثال السكاكي والقزويني والسعد وغيرهم ممن جانب مذهب عبد القاهر في الاستشفاف الذوقي المستند الى الموهبة البيانية والخبرة الادبية اذ ان هؤلاء العقليين جعلوا من بحوث البلاغة الادبية مجالا للمنطق والفلسفة ثم خلف من بعدهم خلف نظر الى هذه المباحث نظرة المماحكة والتبرير فخنقت البلاغة خنقا فيما كتبوه من متون وحواش وتقريرات؟ فالراي الفصل فيما نشب من عراك حول هذه العلوم الانسانية ان يلم بها الناقد الماما يزيد من ثقافته وعمقه على ان يبتعد عنها كل الابتعاد في مجال التطبيق الادبي اذ يقف امام النص الفني وجها لوجه دون ستار، وقد ذهب معارضو اقحام هذه النظريات العلمية في مجال النقد الادبي الى الاستشهاد باقوال اساطين النقد الأوربي مثل لانسون الفرنسي حين يقول فيما ترجمه عنه الدكتور محمد مندور « ان الاصطلاح العلمي عندما ننقله في الادب لا يلقي غير ضوء كاذب ، بل يحدث أن يلقي ظلمة ، وامعن في الروح العلمية موقف اولئك الادباء الذين لا يدعون بناء اي شيء على انموذج غيره ، بل يقصرون همهم على رؤية الوقائع الداخلة في مجال بحثهم ، والعثور على العبارات التي لا تخلف شيئا خارجا عنها ولا تضيف اليها الا اقل ما يمكن والشيء الذي يجب أن ناخذه من العلم ليس كما قال فردريك وهو هذه الوسيلة او تلك بل روحه » . واذا كان الدكتور محمد مندور في طليعة من نادوا بالابتعاد من اقحام العلوم الانسانية في مجال النقد الادبي فقد ايد وجهته بما ترجمه عن اساتذة النقد في فرنسا من مقالات وكتب تناقش هذه المسائل ، كما لم ينس اجداده العرب حين بحث عن اقوالهم المتصلة بهذا الموضوع فنقل من ابن قتيبة قوله في مقدمة «ادب الكاتب» (1). ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الاسلام برايه نظر من جهة النظر لاحتباه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه ان ينظر في علم الكتاب واخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها

1) النقد المنهجي عند العرب لمندور ص 27 — النقد المنهجي ص 115 .

فغضب لذلك وعاداه وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولامثاله المسلمون وقل فيه المناظرون له . ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله ، الكون والفساد ، وسمع الكيان والاسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والاخبار المؤلفة ، راعه ما سمع وظن تحت هذه الالقاب كل فائدة ولطيفة فاذا طالعها لم يحل منها بطائل انما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه ، وراس الخط النقطة ، والنقطة لا تقسم، والكلام اربعة ، أمر وخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الامر والاستخبار والرغبة وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر . والآن حد الزمانين مع هذيان كثير ، والخبر ينقسم الى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه ، فاذا اراد المتكلم ان يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلامه كانت وبالا على لفظه وقيدا للسانه وعيا فى المحافل وغفلة عند المتناظرين » ، ولن نعلق على نقل الدكتور مندور عن ابن قتيبة بشيء سوى ان صاحب « ادب الكاتب » قد ذكر ما يدور من اصطلاحات العلوم فى عصره مما تداوله علماء المنطق والفلسفة والكلام من امثال الجوهر والعرض والكيف والكمية ، ولكل عصر مصطلحاته وقواعده ، فما يذكر اليوم من مصطلحات علوم النفس والاجتماع والجمال شبيه بما دار فى عصر ابن قتيبة من غوامض التعريفات ولم يكتف الدكتور مندور بقول ابن قتيبة بل عززه بما ذكره ابو القاسم الآمدي فى الموازنة بين الطائيين حيث قال بعد نقل متشعب :

« واذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة — طريقة السهولة والوضوح — وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لما يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان وحكمة الهند ، أو ادب الفرس ، ويكون اكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ونسج مضطرب، وان اتفق فى تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه قلنا له قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فان شئت دعوناك حكيما او سميناك فيلسوفا ولكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك اديبا لان طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم فان سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء ، وينبغي ان تعلم ان سوء التاليف ورديء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحتاج مستمعه الى تامل وهذا مذهب ابي تمام فى معظم شعره ، وحسن التاليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كانه احدث فيه فرابة لم تكن وزيادة لم تعهد وذلك مذهب البحتري » .

وواضح ان الآمدي يتحدث هنا عن الشاعر لا عن الناقد وقد يظن ظان ان الاستشهاد فى غير موضعه ؛ ولكننا نقول ان النقد الادبي فى حقيقته الاصيلة — عمل ادبي كالشعر ، وكاتب النقد كناظم القصيدة يجب ان يقدم نقده واضحا شفافا بعيدا عن غموض الغويص من اللغة والدقيق من المصطلحات ؛ واذا كان للشاعر ان يثقف بالدراسات الانسانية كما يثقف الناقد فان مصطلحات هذه الدراسة لا يجوز ان تنتقل الى القصيدة الشعرية كما لا يجوز ان تنتقل الى الكتابة النقدية سواء بسواء .

واذا كنا نعرف ان النقد الادبي يقوم على الذوق المستشف البصير بمراقي النبوغ ومهاوي الضعف فى الاثر الادبي ، فليس لكل قاريء ان يقيم من ذوقه الخاص ناقدا يصدر الاحكام الادبية ويوزعها ذات الشمال وذات اليمين كما يشاء ، ولكن صاحب الاستعداد الفطري بالطبيعة والمكتسب بالقراءة والموازنة وسعة الخبرة هو الذي يستطيع النفاذ الى النص الادبي تحليلا وتفسيرا وحكما ، وهو القادر على ان يندمج فيما يقرأ اندماجا يوحي له بكل ما يمن من تقدير او مؤاخذة ، مستعينا بعاطفته وعقله وحسه على اداء وظيفته النقدية ومستجيبا الى هواتف نفسه فيما توحي به من ارتياح او نفور ، وفق ما ادى اليه تمرسه الطويل ومزاولته المستمرة فى محيط العمل الفني فذوق الناقد لا يقف به عند مجرد الاستحسان او الاستهجان بل يهديه الى حيثيات ما يصدر من حكم يكمن وراءه الذهن الصافي والقريحة الخصبة والحس المتيقظ لادق الخلجات وابعد اللوامح ، ونقد يخالف الناقد الذواقة زميله الذواق فى حكم ، ويكون كلاهما صحيح النظرة سليم الاتجاه لان الحلبة الادبية تتسع لاكثر من اتجاه ، ولان الطبيعة البشرية تفترق فى مدى الاستجابة وقوة الايحاء وفق ما لابس الناقد من خبرات قد تختلف فى بعض تجاريبها عن خبرات زميله، ومن هنا نجد الناقدين الكبيرين يحكمان على القصيدة او المسرحية او الرواية بما قد تفترق به الاتجاهات ، ومن البعيد ان يبلغ الاختلاف بينهما درجة التضاد والتباين وان وقع ذلك فهو من الندرة بحيث لا يمثل قاعدة مطردة اذ ان المسلم به انه توجد مع عوامل الخلاف عوامل اخرى للاتفاق تحول دون التضاد الصريح ، انما يكون هذا الاختلاف بين الناقدين

الكبيرين غالبا فى درجة الحكم ونسبته فهو يترجح بين الحسن والاحسن أو الجيد والاجود او الضعيف والاضعف ، وهذا حين يكون النقد فنيا تاثريا لا مذهبيا عقائديا حيث يلتزم الناقد باتجاه ديني او اجتماعي او سياسي يدعو اليه ، فمن الممكن اذن ان يصل الخلاف بين الناقدين الى درجة التضاد ، ومن حسن الحظ ان النفوس اصبحت تضيق بالنقد المذهبي فى مجال الادب الخالص ، وتراه عامل تعصب لا يهدف الى الحكم المجرد النزيه انما النقد ذوق خالص مثقف يستوحي النص دون تقيد أو تضييق ، وهذا الذوق هبة عليا تمنح لذوي المواهب وتصقل بالقراءة والنظر والتمرس البصير ، ويهمنا أن ننقل عن ناقد عربي كبير رأيه الخاص فى تقدير الذوق الموهوب وارتكاز النقد الادبي عليه ارتكازا يجعل كل تعليم دائب لا يكاد يغني عنه شيئا ذلك هو ضياء الدين بن الاثير حيث يقول فى مقدمة « المثل السائر » « اعلم ايها الناظر فى كتابي ان مداد علم البيان على حكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وان كان فيما يمليه عليك استاذا واذا سئلت مما ينفع به قيل لك هذا ، فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا ، واهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك ، وما مثلي فيما جهدته لك من هذه الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به، وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال .

هذه خطرات أمهد بها للحديث عن النقد العربي فى اطواره المتعاقبة لنعطى القارىء أضواء تهديه فى ارتياد طريق ممتدة الشعاب ، وهي بعد خلاصة مركزة لبعض ما يدور حول هذا الفن من آراء تشغل النقد والناقدين .

الحضارة الإسلامية

بين الماضي ... والمستقبل (١)

الأستاذ أحمد عبد الرحيم السايح "القاهرة"

يمتاز الاسلام بانه دين الحضارة الانسانية الكاملة : بمعنى انه كان منذ نزوله دين عبادة ودين معاملة .

وانه انشا لونا من الحضارة عرف باسمه . وهو الحضارة الاسلامية .

ومفهوم كلمة الحضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما فى تاريخ الحياة العربية الاسلامية . والمفهوم الاصيل لكلمة الحضارة فى اللغة العربية انها : —

تعنى حياة الحضر والاقامة الثابتة فى المدن والقرى وعكسها البداوة . وهي حياة التنقل من البادية . ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر منذ كانت بادية وكان حضر .

وكان اول من تصدى لهذا التمييز على اساس من الدراسة والتسجيل والتحليل العلمي هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون . **بل ان هذا العالم العربي هو اول من عالج شئون الحضارة بطريقة علمية تحليلية .**

على انه اذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على انها ذلك النمط من الحياة المستقرة . والذى يناقض فى مضمونه البداوة . فينشيء القرى والمدن ويضفي على اصحابها فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وادارة شؤون الحياة .

اذا كان ابن خلدون قد بلور هذا المعنى التاريخي واعتبر الحضارة غاية العمران فان مفهوم **الحضارة فى العصر الحاضر قد امتد الى الوان من المعنى** ، هي ابعد واوسع مما رءاه ابن خلدون فى عصره ، وفى بيئته العربية فى انتقالها الاجتماعي والسياسي والمدني من البادية الى الحضر .

ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ « مدني » بمعنى « اجتماعي » فان مفهوما اخر ظهر واتصل بها ، اصبح الآن يعرف باسم المدنية .

وابن خلدون نفسه كان سباقا ايضا فى هذا المجال اللفظي فاستعمل كلمة « **التمدن** » وكان يعني بها « **التحضر** » .

على ان تلك المفاهيم اللغوية انما نشات فى بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية . ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية الا فى جهات قليلة جدا خارج العالم العربي .

ولذلك فان **لفظ الحضارة فى مفهومه العالمي ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد اصبح اكثر اتساعا مما كان يدل عليه فى مفهومه اللغوي والتقليدي** واذا كان اصل معنى الحضارة « بفتح الحاء وكسرها » الاقامة فى الحضر . فان المعاجم اللغوية الحديثة تعرف الحضارة فى استعمالها المولد

المعطاء بانها : **مظاهر الرقي العلمي والفني والادبي والاجتماعي والاقتصادي في العصر .**

وقد يكون من المفيد معرفة مفهوم لفظتين اخريين لهما في الحياة الانسانية شان كبير واثر واضح . وهما : **الثقافة والمدنية .**

فاصل مادة **التثقيف** في اللغة العربية : التشذيب والتهذيب والتقويم والحذق والفطانة والمعاجم اللغوية تعرفها في الاستعمال المحدث بانها : العلوم والمعارف ، والفنون التي يطلب الحذق فيها. ونستطيع ان نقول انها : تشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر ، وهي حصيلة الحياة الانسانية في مجالات الحياة كلها . وتجمع انماط الحياة الروحية والفكرية واللغوية والادبية والفنية . ولها صورها التي تتعدد وتتلاقى بين الشعوب والتي يتصل بعضها بتراث للانسانية مشترك ، ويتصل بعضها الآخر بحياة جماعات بذاتها دون سواها .

ومادة مدن وتمدن متصلة بالمدنية والعيش فيها والاخذ باسباب الحضارة وقد اتصل لفظ المدنية في المفاهيم الجارية بالجانب المادي والمظهري من الحياة. وذلك من حيث مقوماتها الطبيعية ومنشئاتها الملموسة .

وكذلك من حيث الانماط المعيشية في اسسها المادية . وفي صورها المحسوسة في حياة المجتمع . وما يتصل بهذه المظاهر المادية والمحسوسة في حياة الجماعة من قواعد ونظم واعراف .

والحضارة بمفهومها الحديث هي : الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة ومجموع الحياة في صورها وانماطها المادية والمعنوية .

وبعبارة اخرى هي : الخطة العريضة التي يسير فيها تاريخ كل شعب من الشعوب على الارض ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة ومنها الاطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الانسان او الجماعات الخاصة من مرحلة الى مرحلة .

ولئن كان الاسلام قد **امتاز بانه دين الحضارة الانسانية من حيث تقديس حرية الفكر ، واعزاز حرية الانسان وكرامته . وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظلال اخاء شامل ، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الاخلاقية الرفيعة .**

فان واقع الامر يبين للدارس والباحث والمفكر ان الحضارة الاسلامية استمدت مقوماتها ومناصرها ووجودها واسباب نمائها من الاسلام ذاته .

واذا كان ظهور الاسلام قد سبق في الجزيرة العربية وما جاورها حضارات اقدم منه . كما سبقته ايضا في البلاد التي انتشر فيها الوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلي او الاقليمي .

فان الاسلام بطبيعته الذاتية استطاع ان يضفي على البلاد التي شملها لونا مشتركا من الفكر الديني والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية حتى اصبح هناك قدر حضاري مشترك بين المسلمين في مختلف الاقطار وبلاد الدنيا .

دعائم الحضارة الاسلامية :

1) ان الاسلام قد انطوى على **طاقة روحية** جعلت منه قوة فاعلة بل ان فاعليته في هذه الناحية شملت حياة الافراد والجماعات من جميع الجوانب. فهي ثورة روحية وثورة في العبادة والنفوس وثورة في الحياة العملية والمعاملات . وثورة في النظم الاجتماعية بل وفي نظم الحكم وصلة الحاكم بالمحكوم وكذلك في تشريعات الجماعة والاسرة .

والشيء المهم في هذه القوة الفاعلة انها كانت اصلاحا جذريا يمس اساس الاوضاع في حياة الناس .

2) ان الاسلام كان منذ يومه الاول **دين دعوة** له رسالة يجب على المسلم ان يبلغها الى الناس كافة . وكانت حياة الشعوب واتصالاتها قد اهلتها لان تتلقى الرسالة الالهية التي فرضت على اصحابها ان يبشروا بها بين الناس شرقا وغربا .

وفكرة الدعوة في العقيدة الاسلامية قد واتتها ظروف الانتشار في النطاق العالمي وبالتالي تمكن الاسلام من ان ينشر طابعه الحضاري كعقيدة وكنمط للحياة .

3) كان الاسلام **دينا سهلا غير معقد** ولا مركب في عقيدته ونظمه وتعاليمه وكان في الوقت

ذاته ، دينا مباشرا يتصل فيه الانسان بخالقه دون وساطة .

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اذا سالت فاسال الله واذا استعنت فاستعن بالله » وقد كانت البساطة في العقيدة الاسلامية شاملة للعبادات ، والمعاملات جميعا .

وما نظن دينا يطلب الى الفرد شهادة ابسط من شهادة الاسلام على عمقها وعظمتها « لا اله الا الله محمد رسول الله » عبارة سهلة رائعة تقف بالانسان على عتبة الاسلام موقفا سهلا .

وكانت القاعدة الثابتة لدى من بشر بالاسلام ، ان الدين يسر لا عسر « ومن هنا كان الاطمئنان الروحي والفكري اول ما يستشعره من يدخل في دين الله خصوصا وان اعتناق العقيدة كان لابد ان يأتي مباشرة دون وساطة او وكالة . على انه من الحق ان نذكر ان هذه البساطة لم تنته بالضرورة الى ذلك القدر من المرونة الذى قد يشوه التطبيق .

ولعل المقوم الاصيل الذى لم يجعل البساطة تنقلب الى مرونة مشوهة ، هو ان **القرءان كان وعاء للعقيدة كلها** . حفظها على مر العصور واضفى عليها الطابع المشترك في مختلف البيئات وتحت مختلف الظروف .

4) كان الاسلام **دينا رحبا يقبل الاجتهاد** ، ويدعو اليه في حدود اصول العقيدة . وكان يدعو الى سبيل العقل كما يدعو الى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة الى النظر والى المعرفة اساسا من اسس الدعوة الاسلامية وكان التفتح البصير مفتاح الدعوة الحضارية .

والاسلام في رحابته الحضارية استطاع ان يمتص الوان الحضارة في البلاد التي انتقل اليها وان يسبغ عليها طابعا اسلاميا شاملا .

5) كان الاسلام **دينا للدنيا والآخرة معا** وفي هذا قد اختلف عن كثير من الديانات والعقائد التي ينبع بعضها في ماديات الحياة ثم يضفي عليها مسحة من العبادة او الفلسفة ويتبع بعضها الآخر في مجال الروحية التجريدية .

وقد ترتب على ما اتصف به الاسلام من **جمع بين الروح والمادة** انه اصبح دينا رحبا حيا يلائم حياة الناس ومنطق التطور . كذلك اصبح الاسلام اكثر التصاقا بالحياة في مفهومها الحقيقي وصورتها الواقعة . وفي الوقت ذاته اصبحت العقيدة على اتصال دائم بالبناء الحضاري في مجال المدنية من جهة والثقافية والروحية والعقلية بل والاجتماعية من جهة اخرى .

6) **كان الاسلام دين قيم وضوابط سلوكية مادية ومعنوية** . وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الافراد ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات .

فالاسلام اعطى نظاما متكاملا للحياة سواء من وجهة نظر الفرد أم من وجهة نظر الجماعة . وهذا النظام شمل علاقات الافراد وكثيرا من نواحي الحكم ذاته .

وقد يكون من ابرز القيم التي استند اليها نظام الحياة الاسلامية فكرة القيمة الذاتية للانسان . واستنادها الى فكرة المسؤولية الفردية « كل نفس بما كسبت رهينة » « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ثم فكرة الاخاء التي تجعل الانسان المسلم ينتمي الى جماعة المسلمين ويحس بانه عضو من اعضاء الجماعة المسلمة يعمل لمصلحة الجماعة والجماعة تسعى للارتفاع بمستوى الفرد . فهو جزء من كل يكمله ويكتمل به ويعطيه ويأخذ منه ويحميه ويحتمي به .

وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح الانساني العام .

والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للافراد باعتبارهم مدينين بوجودهم لله مسئولين امامه عن اعمالهم « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » والاسلام حينما جعل الفرد مسئولا عن اعماله والمسئولية ـ هنا تقع عليه وحده ـ الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الانسان الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والقدرة على الدفع والبناء . وفي الوقت نفسه الانسان لبنة من لبنات المجتمع الانساني يعمل لمصلحة الجميع .

والاسلام لا يعترف بالفردية التي يدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغما عنه كما في الشيوعية لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

7) البيئة بعواملها المحلية وموقعها الجغرافي **قد ساعدت على اعطاء الحضارة الاسلامية ما كان لها من طابع ومن مكانة** . ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها منطقة وصل بين اطراف العالم عند ملتقى القارات الثلاث في العالم القديم . ومن شواطئها تمتد بحار الشمال بادئة بالبحر المتوسط ، وبحار الجنوب بادئة بالبحر الاحمر والخليج العربي . وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب سببا في أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير في وسائل المواصلات وفي ظهور دور الوساطة الذي كتب للعرب ان يقوموا به ولم يكن الامر في ذلك بالطبع مجرد التوسط الجغرافي على اهميته . وانما كان الامر اوسع واعمق .

فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ، ومن ناحية السلوك الانساني ، ومن ناحية الاعتدال ، في كل ما يتصل بالمادة والمعنى في الحياة . وهي امور اتصلت كلها بطبيعة البيئة العربية . ومن هذه البيئة الوسط انتشر الاسلام شرقا وغربا بالبر والبحر على حد سواء .

8) القرءان الكريم ذاته وذلك ان القرءان لم يكن كتاب دين ، يحث على العبادة والتوحيد . وما يتبعها من عقائد وعبادات واوامر ونواهي ، كان دستورا **من اعظم الدساتير الصالحة التي عرفتها الانسانية في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن وذلك بما تضمنه من القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الانساني السليم** .

ولقد كان اول اثر من ءاثار القرءان في الفكر الانساني اهتمامه الواسع بالعلم وذلك ان العلم اساس التقدم ومرءاة نهضة الامم وعنوان حضارتها . وقد كانت عناية القرءان بالعلم تفوق حد الوصف ، تامل القرءان وتدبر ءاياته تجده يدعو الى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون واحداث الماضي . والقرءان نفسه مشتق من القراءة والقراءة ادنى مفاتيح العلم للانسان واول مانزل على محمد عندما كان يتحدث في غار حراء خمس ءايات هي قوله تعالى « اقرا باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ».

ففي هذه الآيات الخمس بدا الوحي الالهي بالقراءة في اول آية وكررها مرة اخرى في الآية الثالثة واوضحها مؤكدا ما رمى اليه من معنى وهو التعليم وزاد التاكيد بذكر القلم ثم لفت النظر الى الاصل الذي خلق الله منه الانسان وهو العلق وفي قوله تعالى « علم الانسان ما لم يعلم » ما فيه من مكنون اسرار هذا الكون مما سيعرفه الانسان عبر مسيرته في هذه الحياة وحتى نهايتها .

واول قسم في القرءان اقسم به رب العزة في ثاني ءاية نزلت بعد الامر بالقراءة صدر بحرف من حروف الهجاء وكان بالقلم وبما يسطر العالمون « ن والقلم وما يسطرون » فاول سورة نزلت من القرءان سورة العلق ومن العلق يخلق الانسان وكانت السورة التالية في النزول بسورة العلق هي سورة القلم « وبالقلم يكتب ويتعلم الانسان » .

فانسانية الانسان لا تكون الا بالخلق ولا تتم الا بالعلم « الرحمن علم القرءان، خلق الانسان علمه البيان » .

وما الطف قول الشاعر :

اذا افتخر الابطال يوما بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة
مدى الدهر ان الله اقسم بالقلم

والقرءان دائما يهتف بالانسانية « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » والقرءان يرفض ان يقف بالعلم عند حد بل يفتح للانسانية باحة ليس لها نهاية .

ولقد وضع الاسلام القواعد السليمة لوزن المعلومات . وتمييز صحيحها من زائفها فقرر ان المسائل لا تاخذ طابعا علميا ولا ترتقي الى درجة معلومات الا اذا قامت عليها بينة واستندت الى دليل ومن ثم كان القرءان ينادي دائما « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، « هل عندكم من علم فتخرجوه » « ائتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم » « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » .

وهذه الآية الاخيرة تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند الى حجة سمعية او رؤية بصرية او براهين عقلية وهي طرق الاستدلال التي تنحصر في المعقليات والسمعيات والمحسوسات .

وهذا الميزان الذى وضعه الاسلام يدفع الناس دفعا الى تلمس الادلة . ويمشي بهم فى طريق النور والمعرفة ومظاهر الكون والرقي .

ولقد دعا **الاسلام الناس ان يمعنوا فكرهم فى هذا الكون الفسيح** وينعموا النظر فيما حوى من عجائب ، ليستغلوا ما حواه من موارد ويستكنهوا اسراره واسباب الحياة فيه قال تعالى « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدا الخلق » .

وقال تعالى « قل انظروا ماذا فى السماوات والارض » ولم يكتف القرءان بهذا بل ردد كلمة « العلم » بجميع اشتقاقاتها وتصريفها فى سوره وءاياته زهاء سبعمائة وخمس وستين مرة وهذا وحده يكفي لتقدير المنزلة التى رفع القرءان « العلم » اليها . وكلمة العلم فى الاسلام عامة تشمل مختلف قطاعاته وتعدد اغراضه ومراميه .

وهذا كله دليل على ان **الشخصية الانسانية لا يرقيها شيء غير العلم** « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

والقرءان مليء بالايحاءات لتنمية القوى العقلية المفضية الى النظر فى البراهين الدالة على قدرته سبحانه وتعالى الداعية الى التفكر والتامل فى هذا الكون العجيب الذى يمتليء بالظواهر الطبيعية التى تسير فى نظام ودقة عجيبين .

9) اللغة العربية نفسها فهي : من اعرق اللغات العالمية منبتا واعزها جانبا واقواها جلادة ، وابلغها عبارة واغزرها مادة وادقها تصويرا لما يقع تحت الحس ، وتعبيرا عما يجول فى النفس وذلك لمرونتها على الاشتقاق ، وقبولها للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب

نزل القرءان الكريم بلسانها فجعلها اكثر رسوخا واشد بنيانا واقوى استقرارا وبفضل القرءان صارت ابعد اللغات مدى واوسعها افقا واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذى تعيشه الانسانية .

واستطاعت فى ظل عالمية الاسلام ، ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات وترتفع حتى تصل ارقى اختلاجات النفس .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية عن تصويره بالاحرف والكلمات تصويرا صحيحا حي المقاطع واضح السمات بارز القسمات .

هذه اللغة فتحت صدرها لتراث الانسانية الخالدة ومعارف البشرية الرائعة كما اتسعت لمقومات الامة الانسانية الاسلامية التى شرقت بالحضارة وغربت .

برزت الى الوجود قوية تتمتع بقوة لغة بالغة اشدها ، فما عرف التاريخ لها طفولة وما بدت الا لتكون لسان الحضارة الاسلامية فى ظلال القرءان .

ولقد اشترك مع اللغة العربية لغتان اخريان بكونهما لغتين عموميتين لافكار دينية وعقائدية ومذاهب سياسية انتشرت بين شعوب مختلفة ؛ وهاتان اللغتان هما اللغة اليونانية واللغة اللاتينية .

فقد كانت اللغة اليونانية تستعمل من « كمبانيا » فى ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية ومن نهر الراين الى جبل الاطلس .

واستعملت اليونانية من اقاصي صقلية الى شاطيء دجلة ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة لكن ما اضيق ذلك الانتشار اذا ما قوبل بانتشار العربية التى امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء وجنوب ءاسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتار فقد استولت لغة العرب الكتابية على جميع انحاء الشرق الاسلامي .

لقد امست اليونانية واللاتينية فى صف اللغات الميتة منذ هبطت مدنيتاهما فما الذى حفظ اللغة العربية حية ؟

قالت الكاتبة « مي » ان الذى كان باعثا على قيام الحضارة العربية الاسلامية هو الذى ما زال حافظها الى اليوم وهو القرءان، لقد كان الاسلام يرمي الى التوحيد سواء فى الدين والسياسة واللغة .

لذا ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حيا فمن ذا الذي لا يعرف للقرءان فضله فى بقاء اللغة العربية حية ؟ ومن ذا الذى يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام ؟ من ذا الذى لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية وبانها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم .

لقد اندثرت جميع اخواتها السامية من ارامية وكنعانية وكلدانية وسريانية واشورية وغيرها فى حين بقيت هي على رغم ما مر بها من عصور الركود وما فتئت تفيض قوة وحيوية .

انها الرابطة النفسية التى تربط بين اهل البلاد والصيغة الجميلة التى تودعها مكنوناتها العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة وسمت مبادىء ومثلا عليا لم تضق بها ولم تنكل عن احتمال اعبائها بل فى ظل حضارة الاسلام مرنت وامتصت وتفاعلت ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم لها من خارج محيطها حتى تعملقت واتسعت ءافاقها وانتشرت ظلالها وفضت فى دورانها العظيم على كل ما يقف فى طريق انبعاثها وتفوقها وكل ما يعرقل انطلاقها ويثقل اجنحتها عن التحليق والارتفاع واستطاعت بقوتها الذاتية ان تقشع اللهجات الغامضة وتخرج من كل جولة ــ جالتها فى صراع ــ بغذاء مفيد ودماء جديدة وقدرة فائقة وطاقة خلاقة .

هذه اللغة دعمها القرءان اذ اخذت تفرض سلطانها فى بيئات جديدة فى اقطار الارض ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من اواسط ءاسيا حتى جبال البرانس فى شمال اسبانيا ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها او تحول بينها وبين سيادتها .

وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القرءان وقد يكون من اسبابه قوتها وجمالها الفني بحيث لم تستطع ان تقف لها لغة من لغات هذه البيئات ومهما تكن الاسباب فانها اصبحت لغة قوية لامم وشعوب قد تختلف وتتباين فى اجناسها واصل نشاتها ولكنها لا تلبث ان تعيش لها وبها وتحيا فيها حياتها المعنوية الادبية والعقلية .

والعربية ما تزال لغة الشرق الاسلامي من الخليج الى المحيط الاطلسي تتوهج جذوتها وترسل اشعتها وشررها الى كل مكان حتى فى امريكا تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء فى المجلات والآثار الادبية .

وواضح انها اجتازت آمادا واحقابا متطاولة من الزمن وقد المت بها خطوب كثيرة ولكنها وقفت فى طريقها كالصخرة فى مجرى السيل يلم بها ثم يزايلها ، وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور بل لقد تطورت اطوارا كثيرة بحكم ما تلقت من ثقافات الفرس واليونان والهند ومصر واسبانيا اللاتينية . فوسعتها جميعا وتمثلتها تمثلا منقطع النظير وكانما اصبحت نهرا كبيرا تتدافع اليه جداول شتى من المعرفة والفكر وهو لا ينحرف ولا يغير وجهته بل يجري غزيرا زاخرا متفتقا مقتحما كل ما يصادفه من حواجز وسدود بين الامم والشعوب ، ولقد وحدت العربية بين هذه الامم والشعوب فاذا هي عالم واحد مهما تدانت وتباعدت ومهما شرقت او غربت .

لغة كريمة انضجها الزمان المتطاول واخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ.

لغة تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتها خطرات النفوس وتتجلى معانيها فى اجراس الالفاظ تتمثل فى نبرات الحروف كانما كلماتها نبضات القلوب ومشاعل الحياة ، فالمعاني المحسة والمعقولة مبينة فى الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه ادراكا للفرق الدقيق بينهما فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف ءالة الضرب وموضعه من الجسم واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صفة دلت العربية على كل حلية فى الانسان وكل صفة فى عينيه وحاجبيه وانفه وفمه واسنانه وغيرها باسماء خاصة وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل فى المفردات يتجلى فى التركيب مدهشا ، فكل كلمة لها فى الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت فقل تحس بها الكلمة نفسها فتعطي او تاخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصلية لها اقوى الاصوات وهو الضم والاخريات لها الفتح والجر .

وما هذا الا ضربا من الحياة فى الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة، فيها مادة ووزن فخذ المادة او اخلقها او استعرها من لغة اخرى ثم صبها فى قالب من قوالب الاسماء والافعال وصورها بالقوالب او الاوزان، فمن سمع

فاعلا اومفعولا ادرك ان هذا الوزن فحركاته وسكناته له معنى يلازمه فى المواد كلها وبهذا امتازت العربية واستبانت خصائصها حتى نفت من نفسها كل كلمة اجنبية ما لم تخضع لاوزانها وقوانينها وللاسماء اوزان وللافعال اوزان فما لا تزنه هذه الاوزان فهو اجنبي وبهذا بقيت على الدهر المتطاول نقية .

ولقد اختبرها التاريخ الطويل فلم تعجز ولم تعي ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقفه من صناعة بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والامم المختلفة غير كارهة ولا مكرهة .

ولقد اراد الله لها ان تكون لغة كتابه وترجمان وحيه وبلاغ رسالته فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورا فى كلمات وءايات وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب وما استقام له ادراك واحساس .

وتقلب الزمن وتوالت المحن وثارت الفتن والعربية ثابتة ناضرة وامحت لغات وخلقت لغات وبدلت لغات وحرفت لغات والعربية هي العربية لم تمح ولم تتغير ولم تبدل .

ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق العربية لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الامم الاخرى واولتها من العناية والحفاوة اكثر مما اولت لغاتها احيانا فصارت **لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ما بين اقصى المغرب واقصى المشرق ولا تزال على تبدل الاحوال وتوالي الغير لغة ادب وعلم فى كثير من الامم الاسلامية غير العربية .**

وما تزال لغات هذه الامم مترعة بالفاظ العربية وما تزال تستمد من العربية الحروف والكلمات .

وقد حوت العربية على مر العصور ادبا لا تحويه لغة ادبا مواطنة ما بين الصين الى بحر الظلمات كما يقول العلماء ــ وزمانه اربعة عشر قرنا من الزمان .

ولا نعرف فى آداب العالم قديمها وحديثها ادبا اتسعت به المواطن هذا الاتساع وامتدت به الاعصار هذا الامتداد .

انتشرت العربية وحدها بقوتها الخاصة وبقوة الاسلام وقوة القرءان وبهذا **استطاعت العربية ان تكون لغة عالمية لاول مرة فى التاريخ الانساني .**

ولاول مرة تجد فى التاريخ لغة تنتشر بهذه القوة فقد **انتشرت اليونانية فى جميع البلاد الشرقية ولكنها لم تصل الى اعماق الشعوب** ولم تغير لغة من اللغات التى كانت قائمة فى تلك الايام فى بلاد الشرق **ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغات غلبتها وتعمقت شعوبها .**

والرومانيون استطاعوا ان ينشروا اللاتينية فى المغرب الاوربي فى فرنسا وفى بريطانيا وفى اسبانيا وحاولوا ان يجعلوها لغة منتشرة فى شمال افريقيا فلم يفلحوا .

ولكن العربية استطاعت ان تقهر اليونانية فى الشرق وان تقهر اللغات الشعبية التى كانت منتشرة فى هذه البلاد وان تقهر اللغة الفارسية نفسها ، ثم ان تقهر اللاتينية فى المغرب العربي وفى الاندلس وان تصبح هي اللغة العالمية التى يتكلمها الناس فى الشرق والغرب جميعا .

هذه اللغة منذ تم لها الانتشار لم تكن لغة حديث فحسب ولكنها كانت **لغة حديث ولغة سياسة ولغة ادارة ولغة الدين** وكانت فى الوقت نفسه **لغة التفكير والانتاج الادبي والعصري** وفى اقل من قرنين كانت **هذه اللغة قد استطاعت ان تسع كل الثقافات التى كانت معروفة فى العصور القديمة .**

اساغت ثقافة اليونان على سعتها وعمقها وصعوبتها واساغت فلسفتهم وعلومهم وطبهم وفنونهم .

واساغت ثقافة الفرس وثقافة الهند بعد ذلك الثقافات التى كانت متوارثة بين السامية

فالعربية : **اداة الفكر الحي** نقل الناس اليها كتب السماء المنزلة مثل التوراة ، والانجيل والزبور وسائر كتب الانبياء من السريانية والعبرانية .

ونقلوا اليها ما جاء به الحكماء وسائر ذلك من كتب الفلسفة والطب والنجوم والهندسة والحساب.

10) وبجانب هذا وذاك كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الاسلام وانتشرت عقيدته . ثم بالعنصر البشري والتكوين السكاني للمجتمعات الاسلامية .

فاما من العصر فان الاسلام كان ختام الاديان السماوية وكان بذلك رباطا لها من الناحية

التاريخية . كما كان في الوقت ذاته تصحيحا روحيا لصور من الديانات السابقة التي شوهها الزمن . وكان على الاسلام أن يصححها وينقيها ويرد اليها اصالة الفكر التوحيدي .

ولقد كان هذا كله مصدر قوة ودفع للفكر الاسلامي وما اتصل به من حضارة . وكذلك كان الامر بالنسبة لتصدي الاسلام لمعتقدات غير سماوية.

فهذا التصدي كان الحافز الاصيل للفكر الاسلامي والنظم الاجتماعية في ان تحتفظ باصالتها من جهة وان تجدد حيويتها وتوسع نطاق رحابتها ومرونتها من جهة اخرى .

ومن هنا انطوى التفاعل الاسلامي مع الوان الحضارات التي التقى بها على قوة غلبت كل التحديات فانتشر طابع الحضارة الاسلامية في فعالية لم يعرف لها مثيل .

ومما يذكر ان **قوة الاسلام في انتشاره وترسيخ معالم حضارته قد تضاعفت بفعل مقوم انساني آخر عظيم هو تنوع السلالات التي دخلت في الاسلام .**

ثم هناك ظاهرة اخرى ترتبت على كل هذه الجوانب والعوامل وهي ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمني في الحضارة الاسلامية .

ان هذه الحضارة تمتاز بان كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحي رسالة السماء التي تمدها بالروح والقوة والتماسك . وتوجهها الى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للعمل وعن المادية الجامحة الفاسدة

فالحضارة الاسلامية :

1 – في نظام عقيدتها تقوم على توحيد الله وافراده بالعبادة والتعظيم والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة .

2 – وفي نظامها السياسي تقوم على الشورى والنزول على رأي الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الانسان والتزود بكل اسباب القوة والمنعة ، والدفاع عن مقدسات العقيدة والوطن .

3 – وفي نظامها الاخلاقي تقوم على خلوص النية ونقاء الضمير والتمسك بقيم الخير والحق والتزام الآداب الفردية والاجتماعية التي تسير بالانسانية الى الكمال والتقدم

4 – وفي نظامها الاجتماعي تقوم على الاسرة المتماسكة القائمة على ركائز من المودة والرحمة والاخلاص والاحترام والتعاون والتعارف . وقيام كل راع بمسئوليته .

5 – وفي نظامها الاقتصادي تقوم على تبادل المنافع واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية .

6 – وفي نظامها التشريعي ، تقوم على اصول رئيسية واسعة . وقد تمثلت هذه الناحية في ثروة من الفقه الاسلامي . تجلت فيها عبقرية الحضارة الاسلامية وتمثلت فيها حرية الاجتهاد الفكري .

7 – وفي نظامها الثقافي تعتمد على طلب المعرفة ايا كانت واستخدام العقل في كسب المعارف وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة . واعتبار الثقافة ايا كان مصدرها ومهدها تراثا عاما للانسانية .

8 – وفي نظامها الفكري تقوم على حرية الفكر واستقلال الارادة . فلم تنهض العقول ولم تتحرك الا بعد ان عرفت ان لها حقا في طلب الحقائق

ونستطيع ان نصل الى ان الحضارة الاسلامية:

1 – وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الاقدمين وما اضافت اليه من صنع عبقريتها المبدعة الخلاقة .

2 – انقذت العالم القديم مما كان يعيش فيه من فوضى وانهيار واضطراب في الحضارات واستعباد وظلم اجتماعي .

3 – اعطت العالم حضارة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد في اسمى صورها ومجتمعا جديدا يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمي بين الجميع

4 – اعطت الانسانية ذخيرة حية ضخمة من المعارف افاد منها الغرب في عصر الاحياء والنهضة ، واعتمد عليها العالم الاسلامي في يقظته الحديثة وفي بناء نهضته المعاصرة .

5 ـ وضعت بعض اصول المنهج العلمي الحديث كطريقة الشك عند الغزالي والاحاطة بجميع جوانب الموضوع ايجابا وسلبا . ولقد جاء في رسائل اخوان الصفا دستور علمي ينحصر في تسعة احكام . وهاهي كما جاءت في الرسالة السابعة :

السؤال الاول هل هو :
يبحث عن وجود الشيء او عن عدمه

السؤال الثاني ما هو :
يبحث عن حقيقة الشيء

السؤال الثالث كم هو :
يبحث في مقدار الشيء

السؤال الرابع كيف هو :
يبحث عن صفة الشيء

السؤال الخامس اي شيء هو :
يبحث عن واحد من الجملة او عن بعض من الكل

السؤال السادس اين هو :
يبحث عن مكان الشيء او عن رتبته

السؤال السابع متى هو :
يبحث عن زمان كون الشيء

السؤال الثامن لم هو :
يبحث عن علة الشيء المعلول

السؤال التاسع من هو :
يبحث عن التعريف للشيء .

6 ـ فتحت للانسانية آفاقا جديدة في البحوث الانسانية كفلسفة التاريخ والاجتماع عند ابن خلدون . وعلم البصريات على يد «ابن الهيثم» وابتدا مرحلة جديدة في تطور علوم الرياضة على يد « الخوارزمي » و « عمر الخيام » .

7 ـ ساعدت بآدابها على نهضة الاداب في اوربا وفتحت آفاقا جديدة امام شعراء الغرب وكتابه .

8 ـ ساعد حلفاؤها وقادتها بسلوكهم الاخلاقي وبنماذج المروءة والشرف التي تحلوا بها على اشاعة المثل الاخلاقية الرفيعة مما كان قدوة لمن احتك بهم في السلم او في الحرب .

ولقد تلمست اوربا انها حضارة المسلمين العلمية فاستقت من روافدها المعرفة والفلك والجبر والهندسة والكيمياء والطب والفلسفة والزراعة وسائر انواع الفنون الحضارية وبنى رجال اوربا بما تعلموه في معاهد المسلمين بالاندلس وبما نقلوه من علوم اسس النهضة الحديثة التي ظهر نجمها في القرن الثامن عشر وازدهر في القرن التاسع عشر وتالق في القرن العشرين .

والاسلام بدعوته الى العلم هو الذي خرج رجال الحضارة وجهابذة العلم واساتذة الدنيا وعمالقة العلماء امثال :

ابن الهيثم والكندي والفارابي وابن سينا والبيروني والفرغاني والطوسي والبغدادي والدينوري والرازي والقزويني والانطاكي والزهراوي والغافقي والخوارزمي والصوفي وجابر والجاحظ وابن البيطار وابن النفيس وابن حيان وابن حمزة والادريسي والمسعودي وابن بطوطة وابن زهر .

وهذا **ابن الهيثم** (965 ـ 1039) يبحث في السهول والاودية ويجول فيها طولا وعرضا حتى يضع قواعد علم الضوء .

وابن الدجيلي يسهر على قمم الجبال العالية يحدق في الكواكب والنجوم ليحدد افلاكها ويعرف ابعادها ويقيس محيط الكرة الارضية بالاجهزة الدقيقة .

وابن النفيس يجري التجارب والاختبارات حتى يثبت ان الدم ليس سائلا مستقرا في الاوردة والشرايين المبثوثة في الكائن الحي . بل هو سائل متحرك يدور في جميع أجزاء الجسم وذلك قبل ان يكتشف (هارفي) الدورة الدموية بثلاثة قرون .

وابن مسكويه الذي يسبق فلاسفة اوربا وعلماءها بثمانية قرون في علوم الاخلاق والفلسفة والتهذيب والبيلوجيا .

وجابر بن حيان يحلل عناصر الطبيعة وتفاعل المواد المختلطة حتى يضع اصول علم الكيمياء ، وابن يونس يسبق العلماء في اختراع بندول الساعة (الرقاص) .

هذا كله في الوقت الذي كانت اوربا فيه تعيش في ظلمات الجهل والفوضوية والهمجية والتاخر ولم ينقذ اوربا من ورطتها التي كانت واقعة فيها الا نور

الاسلام وما زالت أسماء العلماء والمصطلحات التى اعطاها هؤلاء العلماء المسلمون لغرائب العلم ما زالت حية نابضة فى جميع اللغات رغم ما نالها من تحريف وتغيير ، ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة العربية الاسلامية باعزاز كما شهد لها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه الذين لا يبغون من بحوثهم ودراساتهم الا مرضاة العلم فى ذاته . والذين لا تسيطر عليهم العصبية الهوجاء والسطحية العمياء .

واننا نسوق الى العربي بعض النقول التى جاءت على لسان فلاسفة العالم والتى تشهد صراحة وضمنا لمجد الحضارة الاسلامية .

والواقع أن الاسلام ليس فى حاجة الى اقوال هؤلاء فهو قوي بذاته لكننا ناتي بها لما نراه من ان كثيرا من كتابنا ومؤرخينا يغمطون حق حضارة العرب. وان شئت بعبارة أقرب فقل انهم يجهلونها ولا يعرفون عنها الا النذر اليسير والى هؤلاء واولئك بعض اقوال كواكب الاستشراق والبحوث العلمية والدراسات الواسعة .

قالت الكاتبة الالمانية الدكتورة (سيجريد هونكه) ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها ابناء الصحراء من العدم من اعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ الحقل البشري فسيادة ابناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها وان الانسان ليقف حائرا امام هذه المعجزة العقلية الجبارة والتى يحار الانسان فى تحليلها وتكييفها .

وقالت ايضا : « وان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية وان الدين الذى فى عنق اوربا وسائر القارات للعرب كبير جدا »

وقال العلامة «كاربنسكي» ان الخدمات التى اداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وان الابحاث الحديثة قد دلت على تعظيم ديننا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى.

وقال الفيلسوف الفرنسي « الكسي لوازون » : خلق محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل للاخلاق وكتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسالة تتعارض مع الاسس الاسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرءان والقوانين الطبيعية .

وقال العلامة « دربير » المدرس بجامعة (هارفارد) بامريكا فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل باول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة 638 ميلادية اي بعد موت محمد بست سنوات ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استانسوا بجميع الكتب العلمية وقدروها حق قدرها .

ولو اردنا ان نستقصي كل نتائج هذه المعركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم .

« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم فقد استفادت منها فنون الزراعة فى اساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وسنن النظم الزراعية الحكيمة وادخال زراعة الارز وقصب السكر والبن وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل من انواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ويجودون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها واننا لندهش حين نرى مؤلفاتهم من الآراء العلمية وما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر .

ويقول فى مواطن اخرى : « ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوربيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك اوربا وامراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها .

وقال العلامة « سديو » فى كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها اينما حلت اقدامهم وتسربت عنهم الى اوربا فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها . وقال العلامة « جيبون » المؤرخ الانجليزي :

« كان من اثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمي فى المسافة الشاسعة بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة، ويروى عن وزير لاحد السلاطين انه تبرع بمائتي الف دينار لتاسيس جامعة علمية فى بغداد ووقف عليها خمسة عشر الف دينار سنويا وكان عدد طلبتها ستة ءالاف لا فرق فيهم بين غني وفقير .

وقال « دربير » : أول مدرسة انشئت للطب فى أوربا هي المدرسة التى اسسها العرب فى (بالرم) من

ايطاليا واول مرصد اقيم فيها هو ما اقامه المسلمون فى اشبيلية باسبانيا وانهم رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما اخرى لم تكن موجودة من قبلهم .

ولقد امتاز العرب فى الجمع بين فروع العلم والادب وفاقوا غيرهم فى هذا الميدان ومن يطلع على كتب محمد بن موسى الخوارزمي يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والادب .

وانظر الى كتب البيروني تجد ان الادب والرياضيات اجتمعا متعانقين .. قال العلامة «درابرا» : « لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا عن الاسلوب الذى توخوه في مباحثهم وهذا الاسلوب هو الذى اوجب لهم الترقي الباهر فى الهندسة والمثلثات .

وقال الكاتب الهندي « فسواني » : التهذيب العربي هو الذى انشأ فى آسيا واوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة .

ان هذه الاقوال التى جاءت على لسان علماء افذاذ لمرضاة العلم فى ذاته تشهد صراحة وضمنا وجملة وتفصيلا لحضارة المسلمين ومدى فاعلية الحضارة الاسلامية الانسانية التى لمست الانسانية فيها معاني السيادة ومست القلوب فيها معاني السعادة واعتلت فى ظلها صروح المجد .

هذه الحضارة ستظل خالدة خلود الابد باقية بقاء الدهر مدوية دوي الآذان لا ينضب لها معين ولا ينتهي لها مدى ولكن ذلك رهين برجوع العرب الى منابع عزهم ، هذا واذا كانت الحضارة الاسلامية لها من الدعائم والركائز المشرفة ما وصل بها الى ذروة ما قدر للانسانية من التقدم ولها من التعاليم والقيم والآداب ما يسمح لها ان تكون لها فلسفتها الخاصة بوجودها .

فهل يمكن لهذه الحضارة ان تعود الى اشراقها من جديد فتساهم فى اعطاء الحضارة الانسانية ذخيرة من القوة والقدرة .

الحقيقة التى لا يسوغ انكارها أن آداب وتعاليم الاسلام كفيلة بان تجعل العالم الاسلامي فى وضع يسمح له بأن ينمي فلسفته الخاصة به والتى تنبع من الفكر الاسلامي . ويتضح ذلك من الحقائق التالية :

اولا ـ ان العالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا . مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بانها :

1 ـ تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان . بعيدة عن القطبين ومسالمة من الاعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين. ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

2 ـ وانها تمتلك من شواطيء البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانى العالم كما بها من الانهار والمنابع ما يجعلها من اخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

3 ـ وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء.

4 ـ وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

5 ـ وان التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة فى منأى عن الانشقاق الملحوظ فى المذاهب الاخرى ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك امور تجعل العالم الاسلامي قوة ايجابية مهيبة الجانب مخطوبة الود . يتهيب العدو بأسه ويخشى سلطانه وتجعله ايضا مهيأ للاسهام فى بناء الحضارة الانسانية واعادة صنع الحياة وانقاذ البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

ثانيا ـ واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع وما لهما من خصائص ومميزات وما لهما من كنوز وخيرات الى الحديث عن الاسلام نفسه فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التى جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتحه .

العقيدة التى تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ ارقى صوره واشكاله عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذى لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله . « قل هو الله

احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا احد » .

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان ان يتعلق بالمخلوقات او يدعو ويعبد غير الخالق الذى أبدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس « اذا سالت فاسال الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » . والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسانية ومصالحها الحيوية فى حدود الحق والفضيلة وباعتبار انه دين توحيد واجتماع امكن للاسلام ان يقيم المجتمع على اسس القيم الاخلاقية العليا وان يرضي مطالب الروح والجسد حتى ترافقا فى اعتدال وكونا حقيقة الانسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين السمو الروحي والتهذيب الاجتماعي امكن للاسلام ان ينتشر فى اركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المباديء .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة الرائعة التى تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتغذي العقل وتوقف الغريزة عند حدها وتعطي كل مطمع من مطامع الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعلاء من اخص خصائصها انها تبعث فى روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر وروح الثقة فى غير اغترار وشعور الاطمئنان فى غير تواكل .

ثالثا ــ ان الاسلام متصل بشؤون الحياة والحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التباور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ولا يتعارض مع طبائع الامم فى حركتها الداخلة الممتدة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ويتدخل فى جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبالاضافة الى انه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة فى الارض بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والمودة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة أوجز : انه ما من شيء يهم الانسانية ويشغل بالها وياخذ قسطا من عنايتها الا وله فى الاسلام هدى وبيان واهتمام وما من شيء يلامس حياة الناس او يتعقبها الا وله فى الاسلام عرق ينبض واصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة وجامعة اللغة العربية واشتراك المجتمع فى مظاهر العبادات والعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

رابعا ــ ان تعاليم الاسلام الغراء صالحة لكل زمان ومكان وفى الاصلاح الاسلامي من كليات وجزئيات ما هو كفيل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والاخلاص ولكن ذلك رهين برجوع المسلمين الى منابع عزهم ومجدهم والتمسك بأسمى القيم الاخلاقية الاسلامية والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابعة بالسمو والمليئة بالجدوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها .

قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية ــ كما كانوا من قبل ــ اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث الاسلام على الاخذ بها . »

وقال العلامة دامبري : « ان روح نظام المسلمين هو الدين والذى احياهم هو الدين والذى يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتى : « ان الشرق الاسلامي هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما انه فى فجر طور جديد فى حياته السياسية وهو دور يمكن ان نسميه دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا ان نتكهن ان ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم فى خدمة المدنية والانسانية » .

والدكتور سمث استاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية اوهايو يرى انه لو امكن اثارة التماسك الاسلامي فى سبيل اغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية لامكن ان تصير هذه الوحدة قوة ايجابية فى العالم ..

(يتبع)

نقد الكتب

الدكتور ممدوح حقي
رخبير في المكتب الدائم ،

امامي الآن ثمانية دواوين لشمانيـة شعراء من الكويت . وقد قراتها جميعا بلهفة لاني ما كنت اتصور ان هذه الدوة العربية الصغيرة بحجمها ، القليلة بعدد سكانها ، قادرة على ان تنتج مثل هذا العدد الضخم من الشعراء ، في مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن، ولو كان في المجلة متسع لنقدها وتقريظها تفصيلا لفعلت ، وانها لجديرة بذلك ، ولكني مضطر الى عرضها مجملة ، تعريفا بها ، ولئلا يفوت قراءنا العلم بالنهضة الادبية المتوثبة في هذا القطر الحبيب .

ولاحظت ان ثلاثة من هذه الدواوين انشئت باللهجة الكويتية ، ويسمونها هناك « **اللغة النبطية** » فهمتها كلها ولم يفتني منها الا القليل النادر ، وهذا ما يؤكد لي بان اللهجات العربية، مهما تباعدت الاقطار فيما بينها ، هي متقاربة جدا سواء بمفرداتها ام بتراكيبها . كما اني لاحظت ارتفاعا بمستواها عما كنت اعهده فيها قبل بضع سنين ، وهذا دليل واضح على الاتجاه الطيب الذي تتجه اليه اللهجات العامية في جميع بلاد العرب نحو اللغة الفصحى . ومع اني اعجبت بشاعرية اصحاب هذه الدواوين الثلاثة ، السادة : **وليد جعفر في « آهات قلبي »** و**عبد الله عبد العزيز الدويش** ، و**صقر النصافي** ، فاني لا اراه اكثر من شعر محلي .

اما الدواوين الخمسة الاخرى ، فلغتها عربية فصيحة على تفاوت فيما بينها قليل

1 ـ **ديوان صقر الشبيب** 460 صفحة من القطع الكبير .

2 ـ **نفحات الخليج** ، **عبد الله سنان محمد** 260 صفحة من القطع الكبير .

3 ـ **بيت من نجوم الصيف** ، **علي السبتي** 172 صفحة من القطع الصغير .

4 ـ **النور من الداخل** ، **محمد الفايز** 260 صفحة من القطع المتوسط .

5 ـ **الطين والشمس** ، **محمد الفايز** 98 صفحة القطع الصغير .

اما الاول والثاني فشعرهما اتباعي النسيج ، البيت فيه شطران والقافية موحدة . الا ان موضوعاتهما متلاحمة مترابطة كانها قصة ذات مقدمة وموضوع ونهاية ، وفي ذلك تفوق حسن على كثير من الشعراء الاتباعيين المعاصرين ، لولا ان لغتهما ليست من القوة بحيث تشبه لغة كبار الشعراء .

واما الثلاثة الاخيرة ، فقد سلكت طريق الشعر الحر ، اصابت في بعضه وضعفت في بعضه الآخر . وموضوعاتها على العموم رومانسية تذكرنا بشعراء النهضة الاوائل في لبنان وسوريا ومصر .

وفي طريقة العرض ميل الى الرمزية ، فديوان الطين والشمس مثلا ، يعرض الشاعر في كل صفحة ثلاثة ابيات ، واحيانا بيتا واحدا ، واحيانا صورة رمزية كرجل مصلوب ، او رجل عريان قاعد على راس تل وفوق راسه غراب ... وكلها من الرسم القريب من السريالي . والديوان كله يقرأ بنحو نصف ساعة!!

الا ان شاعرية هذا الشاب قد تستوقفك احيانا للتامل والتفكر .

واحب ان اشير هنا الى كتابين آخرين تلقيناهما من الكويت كذلك هما :

1 ـ دراسات كويتية ـ فاضل خلف 154 صفحة من القطع الكبير .

2 ـ ادباء الكويت في قرنين ـ خالد سعود 288 صفحة من القطع الكبير .

وهما كتابان جيدان يوضحان كثيرا مما غمض في تاريخ الكويت الادبي ، ويشرحان كثيرا مما تعقد على الدارس فهمه. وقد اتكأت عليهما وساعداني مساعدة مجدية في تفهم شعراء الكويت فصيحهم ونبطيهم .

اما الكتاب الاخير الذي وقفت عنده كثيرا على صغر حجمه (93 صفحة من القطع الصغير) فهو « **مقالات عن الكويت ، لأحمد البشر** » فقد عرض جزءا من تاريخ الكويت الادبي القديم وجلا ناحية لم يسبقه اليها احد : اثبت بان **جبل كاظمة** الذي دفن فيه غالب بن صعصعة والد الفرزدق ، ما هو الا المكان المسمى الآن «**امليرة**» قرب الجهراء. وان «**الفرزدق**» نشأ بين قومه هناك ، وانه كان يثوب اليه بعد كل سفر . وعلى هذا **فالفرزدق سيد شعراء بني امية الاوائل ، ما هو الا شاعر كويتي** ، واذا لم يكن للكويت من فخر في تاريخها الادبي الا انها انجبت مثل الفرزدق لكفيت بذلك فخرا .

الموسيقى لغة الروح

الأستاذ ابراهيم الدرويش المصري
مفتش التربية الموسيقية في سوريا

علي الدرويش علم من اعلام الموسيقى فى القطر العربي السوري .

ياخذ موقفنا من الموسيقى اوضاعا ثلاثة :

1 ـ نستمع اليها كوسيلة لترفيه والطرب ، والاستماع الفني .

2 ـ نبحثها كعلم وفن وصناعة ومهنة .

3 ـ نبحثها فى اثرها العام كثقافة وتذوق وتوعية وتوجيه ، وفى اثرها التربوي الخاص ، وهو ما يهمنا فى هذه الكلمة .

الموسيقى فن رفيع بل لعله ارفع الفنون . هي لغة الروح المجردة عن المادة ، المنطلقة من سلاسل الحياة وقيودها . هي لغة نبيلة تستطيع ان تانس اليها كل روح ويطمئن اليها كل قلب لانها**الصدى الذي يعبر عن مشاعر لا تستطيع لغة الكلام ان تجاريها فيها.** وارتباط الموسيقا هذا الارتباط الوثيق بالعاطفة الانسانية يجعل تاثيرها امضى واكثر من غيرها من الفنون الجميلة فى توجيه الروح والقلب وفى تفتح الطاقات وتفجيرها ، كخطوة اولى فى سبيل توجيه الفكر البشري .

لان تاثير الموسيقى لا يزول بتاثير النفحة واللحن المنبعث من الآلة الموسيقية او من الحنجرة البشرية ، اذ انها تنقل المشاعر الى عالم جميل علوي يستسيغه العقل ويعمل فيه بحرية وحيوية .

ولما كان التفكير يتاثر بالمؤثر الخارجي وبالظروف الآنية التي ينشط فيها ، فان النتيجة التي يصل اليها فى حالة التاثر بالموسيقى ، هي نتيجة لا شك انها من مقومات الفهم التام والجمال المجرد الذي يتجه ناحية الخير .

ولم يعد اثر فن الموسيقى محصورا فى اطراب الاذن واشباع الحواس ، كنوع من الترف والكماليات كما كان شائعا فيما مضى ، بل تعداه الى تادية خدمات جليلة فى كل ميدان من ميادين التربية والمادة والمجتمع .

وكانت الحرب العالمية الاخيرة اختبارا قويا لقيمة هذا الفن فى ميادين عدة كالتوعية والتوجيه والترقية .

ولقد ادت الموسيقى دورها من قديم كوسيلة للدعاية المثمرة . فقبل قرن مضى تقريبا كانت « بولونيا » لا تعدو كونها امة مستعبدة تتناوب حكمها دولتان قويتان ، روسيا والمانيا وكانت اخبار كفاح شعبها الباسل ـ نظرا لتاخر وسائل المدنية آنذاك ـ تصل مشوهة لا تلفت ولا تثير الا عطفا وقتيا . لقد اخفقت السياسة وفشلت الدعاية فى لفت انظار العالم الى نصرة بولونيا الجريحة ولكن الموسيقى نجحت فيما اخفقت فيه جميع الوسائل ونجح موسيقى فى استدرار العطف على امته واثارة ضمير الانسانية فى صالح بلاده. فقد صور شوبان فى مقطوعته(البولونية)

كفاح شعب جريح وصور في الحانها نداء الحق المهضوم فاذا بهذه المقطوعة الموسيقية تسدي خدمة لم تسدها السياسة قط الى شعب مناضل مكلم . وتحررت بولونيا لان موسيقى (شوبان) قد حركت الضمير البشري .

ومندي اكثر من مثال على ان **الموسيقى تستطيع باشراف الدولة ان توجه الجماهير والشباب والاجيال في التربية والتوعية الهادفة** ، توجيها كليا .

مثالنا على ذلك موسيقى (فاكنر) الالماني التي ادت دورا هاما في حياة المانيا ، فقد اوحت مقطوعاته الى الشعب الالماني روح النضال والكفاح في سبيل البقاء والاتحاد ، وكانت عاملا قويا في تكوين المانيا ايام حرب السبعين ، ثم استخدمت ثانية في النهوض بالمانيا بعد هزيمتها في الحربين العالميتين الاولى والثانية فقد ادخلت في البرامج الدراسية وفي الشهادات العامة وبثت في نفوس الشعب الالماني فوجهته الى التفاني في محبة الوطن والقومية وخدمت اغراض السياسة ايضا .

وقس على ذلك نشيد (المارسيلياز) الذي كان من عوامل حماية الثورة الفرنسية وقد الف كلماته ولحنه الثائر (روجيه دي ليل) . وانا شيد معركة بور سعيد العربية عام 1956 واخص بالذكر نشيد (الله اكبر) ، ثم بعض اناشيد الثورة في الجمهورية العربية السورية . وهناك امثلة لا حصر لها .

ولم يقتصر عمل الموسيقى على الميادين الروحية بل تعدتها الى الميادين العملية ، اذ ان استخدامها في المصانع خلال الحرب الاخيرة وما بعدها ، قد ادى الى زيادة الانتاج زيادة كبيرة ملحوظة .

ولا اغالي اذا قلت بان الدول الكبرى كالولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ومعظم الدول النامية واخص بالذكر سويسرا التي ظهر فيها المربي (جاك دلكروز) **مؤسس مدرسة التعليم والتربية الموسيقية** عام 1913 ـ كانت سباقة في ادخال الموسيقى كوسيلة من وسائل التربية ، فقد اثبتت الاختبارات العلمية الدقيقة ان **الموسيقى تلعب دورا هاما في تكوين شخصية ونفسية الطفل في سنيه الاولى وفي دور المراهقة والشباب ايضا .**

ولذا اصبحت **الموسيقى من مقومات الحضارة الحديثة** كعلم وفن وصناعة ومهنة ووسيلة خطيرة من وسائل الدعاية والتوجيه والتوعية والتربية والتعليم .

كما ان الموسيقى تريح العقل كما يريح الاستجمام الجم لماتبثه من نشاط فكري نشاهد اثره واضحا جليا في تفكير الطفل وزيادة قابليته للفهم والاستيعاب .

وهكذا نلمس للموسيقى آثارا ثلاثة في التربية:

1 ـ اثرها في التوجيه والتربية العامة للشعب .

2 ـ اثرها في تربية الروح القومية والمحبة للانسانية .

3 ـ اثرها التربوي في المدرسة .

لهذا كان لا بد لنا اذا ما اردنا ان نقوم على تربية جيل جديد يتوقف عليه ازدهار شان امتنا **ان نأخذ بعين الاعتبار مسالة ادخال الموسيقى بصورة جدية في وسائل التربية كعنصر اساسي للتربية النفسية والخلقية وتقريرها في مناهج التعليم العام بجميع مراحله** واعتبارها في الشهادات العامة ، والعمل على افتتاح المعاهد الموسيقية لرعاة الموهوبين والمعاهد الشعبية لتثقيف الهواة ، وتنظيم الامور الموسيقية والعناية بها باخلاص ونزاهة في كل من الاذاعة والتلفيزيون . على ان يكون هدفنا دوما توجيه فن الموسيقى توجيها سليما للتاثير على عقلية رجال ونساء الغد بما فيه دعم بناء الامس .

واري ان تكون الموسيقى قطعة من حياة الطفل ذكرا كان ام انثى وخاصة في مرحلة رياض الاطفال والتعليم الابتدائي ، واري ان تربي غرائز الطفل ونفسيته تربية موسيقية وخلقية قويمة بتوجيه فني تربوي ، يستطيع أن ينفذ الى مشاعره ويسمو بها .

وبهذا تسهل مهمة المربي والمربية لان الموسيقى اداة فعالة في تدريب عقلية الطفل وتهذيب نفسيته وتوسيع مداركه في الطريق التي ترسمها قواعد التربية .

ولنضرب مثلا للمجهود العربي في هذا المجال بحياة علم من الاعلام الموسيقى في القطر العربي السوري **هو الاستاذ علي الدرويش** : فقد ولد وتوفي في حلب 1884 م ـ 1952 م .

كان جده الاكبر من اصل مصري عربي ، خلف ولدا اسماه ابراهيم ، كان ابراهيم هو والد علي الدرويش يشتغل بتجارة الاقمشة وقد نشا نشاة عصامية دينية ، تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب

والمدارس الدينية وكان ذا صوت حسن ومن اتباع الطريقة المولوية «التكايا المولوية » في العهد التركي العثماني ، فكان لذلك اثر كبير ورثه عنه ابنه الصغير علي ، وعندما كان الفتى الصغير علي يدرس في المدرسة الاشرفية الابتدائية ، ينتهز العطل المدرسية وخصوصا ايام الجمعة ليزور والده في التكية للاستماع الى حفلاتهم الخاصة ، فكان يستمع طويلا الى اناشيدهم وموسيقاهم الصوفية ويعجب بها ومن هنا نشأ تعلقه بالموسيقى وشغفه بها .

انس شيخ التكية « عامل جلبي » بالشاب علي صوتا جميلا وميلا قويا للموسيقى فاوكل اليه مهمة اداء الاذان في شهر رمضان .. ثم طلب من والده ان يلقنه الحان الطريقة المولوية واغانيهم كي يشترك ابنه علي في حفلاتها وكانت تضم جدران التكية المولوية في ذلك الحين « عثمان بك » الملقب « كجوك عثمان » مؤذن السلطان عبد العزيز سابقا الذي نفاه السلطان عبد الحميد عند توليه الحكم وعلى يدي « عثمان بك» تلقى علي دروسه الاولى في مبادىء الموسيقى وقواعدها الاولية . ثم زار مدينة حلب في هذه الفترة من الزمن موسيقار تركي من اشهر نافخي « الناي » يدعى « شرف الدين بك » وقد اخذ عنه علي الشاب دراسة النفخ بالناي ؛ وفي تلك الاثناء كان يجمع ما بين دراسته في المدرسة اثناء النهار ودراسته الموسيقية في التكية اثناء الليل . وعندما انهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة العثمانية للعلوم الدينية سابقا وهي « الخسرفية » والكلية الشرعية حاليا وكان من اساتذتها المرحوم الاستاذ الكبير الشيخ بشير الغزي . وعندما انهى دراسته في هذه المدرسة بعد اربع سنوات كان ما زال منكبا على دراسته الموسيقية وقد لقب بالشيخ علي لتقدمه في الفن الموسيقي على اقرانه وتفوقه فيه ، ثم لدراسة في المدرسة العثمانية ولقب بالدرويش ايضا لانتسابه الى الطريقة المولوية فاطلق عليه الشيخ علي الدرويش ، وكان يطلق عليه ايضا « علي دده » بالتركية لانتسابه الى الطريقة المولوية . لذلك فقد اتقن هذا الشاب اللغتين العربية والتركية وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة .

وقد عينه بعد ذلك شيخ التكية (عامل جلبي) في وظيفة (قدوم زادباشي) رئيس جماعة الموسيقيين في « المطرب » وهو المكان الذي كان يجلس فيه جماعة العازفين والمغنيين اثناء حفلاتهم الخاصة ،

وبقي في هذا العمل زهاء عشرة أعوام متوالية ، كان خلالها دائم البحث والتنقيب عن أصول الموسيقى ودقائقها بصورة عامة والموسيقى والالحان والمؤلفات العربية التركية بصورة خاصة . لذلك فان الشيخ علي تأثر كثيرا بأساليب والحان الموسيقى التركية التي طعم بها الموسيقى العربية بمؤلفاته والحانه، وقد لحن **عددا كبيرا من الالحان باللغة العربية** ومن الالحان الآلية كالبشارف والسماميات ؛ ومن الالحان المولوية باللغة التركية وهي الحان مطبوعة بطابع الخشوع والوقار والمعروفة باسم « آيين شريف » ومن الحانه آيين كردبلي حجاز كار وغيره ..

رحل الشيخ علي رحلته الاولى من حلب الى امارة المحمرة في ولاية البصرة وقد ارسل في طلبه امير المحمرة على راس فرقة موسيقية غنائية وذلك بعد ذيوع شهرته خارج البلاد السورية،وعندما سافر الى المحمرة كان عمره حوالي السابعة والعشرين عاما بعد ان استقال من وظيفته في المولوية نهائيا . وكان تاريخ سفرهالى المحمرة وعودته منها ما بين عام 1912 الى عام 1914 م . وقد عاد الى بلده حلب في بداية الحرب العالمية الاولى فقد امضى في ضيافة (الامير خزعل) سنتين كان فيهما موضع حفاوته واكرامه مع اعضاء فرقته الموسيقية .

انتهز فرصة وجوده في تلك البلاد فزار البصرة وبغداد وطهران ومنها سافر الى الهند وحل في كراتشي وبومباي ثم قفل راجعا الى حلب ابان الحرب العالمية الاولى أيام حكم السلطان رشاد كما ذكرت.

وفي عام 1914 حتى عام 1923 م . سافر الى البلاد التركية قاصدا استنبول بصحبة شيخ تكيه حلب « عامل شلبي » وهناك في استنبول اتم الشيخ علي دراسته العالية في الموسيقى في معهد « دار الالحان » الشهير . وقد عين بعد ذلك مدرسا للموسيقى في مدينة « قسطموني » وهي مركز ولاية قسطموني الواقعة شمالي تركيا قريبة من شاطىء البحر الاسود . وقد الف في مدينة قسطموني فرقة موسيقية نحاسية اعضاؤها من طلبة المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع والميتم الاسلامي كانت هذه الفرقة تعزف في المناسبات الرسمية وغيرها . وكانت اقامته في مدينة قسطموني تسع سنوات تزوج خلالها من هناك .

وقد انجز في هذه الفترة كتابا في دراسة الموسيقى من تاليفه في خمسة الى سبعة ابواب .. ثم

عاد بعد ذلك الى مدينة حلب تاركا فى قسطموني اجمل الذكرى وخلف عددا من التلاميذ اصبحوا اساتذة من بعده .. وعندما عاد الشيخ علي الى اهله وذويه فى حلب كانت سوريا حينذاك تحت الانتداب الفرنسي . مكث ثلاث سنوات الف خلالها الكثير من الالحان الغنائية والآلية..مثل سماعي عجم عشيران وسماعي نهاوند ولونقا فرحفزا وغيرها . وقد بحث فى هذه الفترة من الالحان العربية القديمة التى اشتهرت بها سوريا وخاصة مدينة حلب فجمع من التراث العربي الشعبي القديم وغيره ودونه وسجله بالعلامات الموسيقية الحديثة كالموشحات والقدود والادوار وفاصل « اسق العطاش » ورقص السماح مع تدوين الحانها .

ثم انتسب عضوا عاملا الى نادي « الصنائع النفسية » وكان من اعضائه الاساتذة المرحوم شرف الدين الفاروقي والدكتور فؤاد رجائي والاستاذ سعد الدين القدسي مؤسس النادي وغيرهم .

وفى هذه الفترة سافر على راس فرقة موسيقية الى استانبول ، نال هناك نجاحا باهرا ثم عاد مصطحبا معه عددا ضخما من الكتب والمؤلفات الموسيقية فى شتى الفروع والاختصاصات فى اللغات التركية والعربية وغيرها ، وفى عام 1927 م حتى عام 1931م رحل الشيخ علي الى القطر المصري ، بعد تسلمه دعوة رسمية من النادي الموسيقي الشرقي بمصر الذي اسس فى القاهرة عام 1913 م . ذهب لتدريس الموسيقى هناك بعد ان اتفق اعضاء النادي المذكور الذي شمله الملك فؤاد الاول برعايته وعلى راسهم رئيس النادي مصطفى بك رضا ، على شراء كتاب مؤلف فى الموسيقى للشيخ علي وتدريسه مدة اربع سنوات بصورة مبدئية على ان يكون للنادي الحق فى نشر الطبعة الاولى من هذا الكتاب . وتعرف اثناء اقامته فى مصر على كثير من الشخصيات الفنية وغيرها . ودرس عليه فى هذه الاثناء بعض المشهورين الان كالاساتذة : محمد عبد الوهاب ، رياض السنباطي والسيدة ام كلثوم . وكان الشيخ علي يعود الى حلب خلال عطلة النادي صيف كل عام . وفى عام 1931 م اي قبل انعقاد مؤتمر الموسيقى العربية بسنة واحدة تعرف الشيخ علي فى مصر بمستشرق انجليزي يدعى البارون ديرلنجيه والذي دعاه هذا الاخير للعمل معه فى تونس لاتمام ابحاثه فى الموسيقى العربية بعد ان اعجب بمقدرته الفنية ثم استحصل له من طريق النادي الموسيقي الذي كان يعمل فيه على اذن ملكي صادر فى سراي راس التين بالاسكندرية فى 18 تشرين الاول عام 1931م. وذلك للسفر مع ديرلنجيه الى تونس للعمل معه على اتمام ابحاثه فى الموسيقى العربية .

وقد اشترك الشيخ علي فى عام 1932 م . فى مؤتمر الموسيقى العربية الذى عقد فى مدينة القاهرة بدعوة ملكية رسمية . هذا المؤتمر المشمول بالرعاية الملكية والذي اشترك فيه نخبة من اساتذة الشرق والغرب ودام انعقاده قرابة شهر . سافر الشيخ علي الى تونس ومكث هناك من عام 1931 م حتى عام 1939 اي حتى بداية الحرب العالمية الثانية . عندما سافر الى تونس عام 1931 م . كما ذكرت سابقا ومكث هناك عدة اشهر ، عاد الى القاهرة بعد ان طلب رسميا لمؤتمر الموسيقى العربية واثر انتهاء هذا المؤتمر سافر الى تونس صحبة البارون ديرلنجيه للعمل معه على اتمام ابحاثه ودراساته حول الموسيقى العربية بعد ان ترك القطر المصري نهائيا ، وبعد شهرين من وصوله الى تونس الخضراء ، تعاقد مع وزارة المعارف التونسية فى معهدي العطارين والرشيدية لتدريس الموسيقى . **فمكث فى تلك الديار زهاء ثمان سنوات كان يطوف خلالها مع دير لنجيه فى جميع البلاد التونسية وشمالي افريقيا للبحث عن الالحان الباقية من آثار الاندلسيين** الذين هاجروا قديما الى تونس والقيروان واكثرهم من سكان قرطبة وغرناطة واشبيلية وقد كلفت هذه الابحاث البارون ديرلنجيه مبالغ طائلة ولكن الشيخ علي وفق اثناء ذلك الى **جمع وتدوين اربعة عشر « نوبة اندلسية » وعشرين ملحقا لهذه النوبات وجملة موشحات اندلسية** . وقد استطاع الشيخ علي الاحتفاظ لنفسه بنسخة من هذه النوبات والموشحات الاندلسية لتكون فى حوزته .

وقد اسس الشيخ علي عند عودته الى مدينة حلب خلال العطل الصيفية مع رهط من اصدقائه من هواة الموسيقى حوالي عام 1934 م . ناديا موسيقيا لتدريس الموسيقى ونشرها باسم « النادي الموسيقي بحلب » وكان مقره وقتئذ فى باب النصر. ثم انتسب عضو شرف فى نادي « دوحة الميماس للموسيقى والتمثيل » فى مدينة حمص وكان فى تلك الاثناء عضوا عاملا فى حزب الكتلة الوطنية الذي كان يتزعمه الزعيم الراحل ابراهيم هنانو ضد الانتداب الفرنسي، فلحن الكثير من الاناشيد الحماسية والوطنية فى مناسبات عديدة . فاذا ما انقضت العطلة الصيفية عاد الشيخ علي الى مقر عمله فى تونس .. وقد عمل

ايضا فى الاذاعة التونسية وقام من تونس مع بعض الاصدقاء برحلات الى اوربا وحضر بعض الحفلات الموسيقية لدور الاوبرا والسنفوني اذ كان يعجب جدا بتلك الموسيقى التي وصلت الى ما وصلت اليه فى تطورها من الرقي والكمال .

وفى هذه الاثناء توفى البارون دريلنجيه ماسوفا عليه بالنظر لخدماته الجلى للموسيقى العربية وقبل مغادرة الشيخ علي الديار التونسية انعم عليه باي تونس آنذاك بوسام الافتخار من الدرجة الثالثة تقديرا له على خدماته للموسيقى العربية فى المملكة التونسية .

وفى ابتداء الحرب العالمية الثانية عام 1939م قفل الشيخ علي راجعا الى وطنه تاركا آثارا طيبة واصدقاء وتلاميذ اصبحوا **عمداء النهضة الموسيقية فى تونس** ومنهم الاستاذ صالح المهدي رئيس اللجنة القومية للموسيقى حاليا ، وعندما عاد الى حلب الف كتابا فى الموسيقى بعنوان « النظريات الحقيقية فى علم القراءة الموسيقية » .

وفى عام 1942 م . عين الشيخ علي عميدا ومدرسا فى المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق .

وفى عام 1944 م . سجل فى محطة الاذاعة فى القدس بفلسطين نخبة كبيرة من الموشحات القديمة ثم عمل مدرسا فى معهد الفنون الجميلة فى بغداد من عام 1945 حتى عام 1951 م . وقد سجل فى اذاعة بغداد ايضا عدة تسجيلات من الموشحات القديمة وبقي هناك زهاء ست سنوات ، وفى عام 1946 م . كان الشيخ علي الدعامة الكبرى فى تاسيس المعهد الموسيقي فى حلب ولدى عودته الاخيرة الى الوطن عام 1951 م . عاد الى عمله السابق فى المعهد الموسيقي ، هذا المعهد الذي اسسه المرحوم الدكتور فؤاد رجائي ثم عين الشيخ علي الى جانب عمله فى المعهد مستشارا فنيا فى دار الاذاعة السورية فى حلب الى ان وافته المنية فى مدينة حلب يوم الخميس المصادف فى 12 ربيع الاول 1371 هـ . الموافق فى 26 تشرين الثاني عام 1952م عن عمر ناهز الثامنة والستين وقد شيعت جنازته فى حفل رهيب مشى فيها بعض الهيئات الحكومية وقد جاء خصيصا من اساتذة المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق للاشتراك بتشييع جنازته الى جانب اساتذة وطلاب المعهد الموسيقي فى حلب حشد كبير من الجمهور ، ودفن فى مقبرة آقيول بحلب .

واورد هنا مقتطفات من قصيدة شعرية للشاعر التونسي محمود بورقيبة يمتدح بها ضيف تونس حينذاك المرحوم الاستاذ علي الدرويش عنوانها :

ـ رابطة الفن بين تونس وشقيقتها سوريا ـ

يقول الشاعر محمود بورقيبة :

لعمدة الفن اجلالي واعظامي
الى «العلي »الى ذي المركز السامي

الى الذي حل بالخضراء فاغترفت
من فنه علم اوزان وانغام

الى الذي كان يلقي من شبيبتها
دوما عواطف تقدير واكرام

الى ان قال :

« علي » بلغ لسوريا الشقيقة من
خضرائنا كل تبجيل واعظام

وعد لتونس يا استاذ عودة از
هار الربيع لها فى عذب ابتسام

وانشر باجوائها فنا رفعت له
راسا كريما فاضحى شامخ الهام

الى أن قال :

سر عمدة الفن نحو الشام وابق لنا
الذكرى العزيزة ذكرى خير ايام

واحمل الى الشام من خضرائنا ارجا
عربون ود عميق بالحشا نامي

والشرق فى صدره لا زال يجمعنا
والفن قد ربط الخضراء بالشام

المعلمة العربية

- التحقيق العلمي عند الدكتور مصطفى جواد
  للاستاذ محمد ابراهيم الكتاني
- الفكر العلمي العربي في شخص العباس بن فرناس
  للاستاذ سعيد الديوه جي
- اعلام اللغة : احمد فارس الشدياق
  للاستاذ محمد جميل بيهم
- تاريخ جامعة الدول العربية
  للشيخ طه الولـــي
- عروبة فلسطـين
  للدكتور اسعد حومـد
- دراسة حول نهاية الادب للنويري
  للاستاذ عبد الحليم الندوي

التحقيق العلمي

عند الدكتور مصطفى جواد

محمد ابراهيم الكتاني ، الأستاذ في جامعتي القرويين
ومحمد الخامس « المغرب الأقصى »

اوفد المكتب الدائم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ليمثله في حفل تابين المرحوم الدكتور مصطفى جواد ببغداد وقد القى الاستاذ باسم المكتب الدائم المحاضرة الآتيـــــة :

ان الناظر في كثير من آثار الفقيد الدكتور مصطفى جواد رحمه الله ، ـــ ولو كان معجلا ، يتجلى لـه بوضوح متانة ثقافته واتساعها وعمقها ، واطلاعه الواسع ، واستقلاله الفكري ، ومعرفته الكبيرة بالكتب

فهو ذو ثقافة لغوية متينة . شديد الحرص على سلامة التعبير العربي من المسخ والانحراف عن النهج السليم . وهو في نفس الوقت **شديد العناية بمسايرة اللغة العربية لركب التطور ، ومواجهة المشاكل التي تعترض سبيلها** ، وهو اذا كان عارفا بالتراث معتزا به قادرا له حق قدره ، فانه في نفس الوقت يفرق عن معرفة واسعة بين ما هو من جوهر العربية وذاتيتها القائمة على اساس المقدسات التي لا تحتمل تطورا ولا تبديلا . وما هو من اجتهادات المجتهدين التي يحـــق لغيرهم ان يناقشهم فيها وان يدلي من جهته بتجربته الخاصة ، حسبما جرت عادة الباحثين في عصـــور ازدهار الفكر العربي . وهو بهذا **التفكير الاصيل المتحرر** في نفس الوقت ، **يواجه مشكلة المصطلحات** ومشكلات نحو العربية وصرفها : من الجمود وعدم الابـداع ، ويعنى بالجمود اتباع قدماء النحويين في سرد القواعد من غير عرضها على كلام العرب وشعرهم الخالي من الضرورة .

ويذكر من اسباب اختلال النحو اختلالا فاحشا فصله عما يسمى (علم المعاني) الذي كان من النحو ، ومنها الاخذ من نحو البصريين دون الكوفيين ؛ مع ان مذهب البصريين مناف لطبيعة اللغات .

وفي (الصرف) يبين بطلان فكرة (المطاوعة) و (المصدر الصناعي) و (عدم النسبة للجمع) .

وفي مشكلة معجمات العربية ومفرداتها يذكر ان **اللغة العربية محتاجة الى معجمات تستوعب الفصيح وغير الفصيح ، والقديم والمولد ، والعربي والمعرب** ، مما ورد في كتب المسلمين الى زمن انقطاع التاليف المتقن .

ويذكر ان **الكلمة العربية لها قيمتان دائما ، قيمة معجمية لا حياة فيها ، وقيمة استعمالية حيوية** ، وانك اذا تصفحت هذه المعجمات اللغوية المتداولة قلمـــا تجد الشواهد القرآنية لاستعمال الكلم مع انها اقـدم الشواهد تسجيلا واصحها .

فالمعجمات ينبغي فيها ان تاخذ وجوه استعمـال الكلمات في القرآن الكريم ، وتجب **دراسة القـــرآن دراسة لغوية ودراسة نحوية عودا على بدء** . ففي ذلك نعش للعربية من كبوتها وتقوية وتوسيع .

ويقرر ان **من اعظم ميسرات العربية علـــى طالبيها والكتاب الناشئين وضع (قواعد عامـــة) تغنيهم في كثير من الاحيان عن مراجعة المعجمـات** ، وقدم 16 قاعدة امثلة لما يقترحه من القواعد .

وكل هذا فى مقدمة محاضراته عن (**المباحث اللغوية فى العراق**) وقد اشار فى اواخرها الى مؤلفاته فى هذه الموضوعات : (**المعجم المستدرك**) الذي نشر منه شيئا فى (مجلة المجمع العلمي العراقي تحت عنوان (**مبحث فى سلامة اللغة**) و (**الصبح النذير ، للمصباح المنير**) و (**قل ولا تقل**) و (**فقه اللغة العربية**) على حسب مباحث العلم الحديث فى المباحث اللغوية ، وقال : ان فيه مباحث من قبيل الابداع ، لا التحسين والاتباع ، (وكتاب التلقيب والابدال) قال : وتغلب عليه الجدة والاستنباط . و (نهج السداد ، فى كلام النقاد) و (معجم الجمل العربية ــ الفرنسية) وحقق ونشر بالاشتراك (الجامع الكبير) لابن الاثير فى البلاغة . وقد كان يعرف الى جانب العربية والفرنسية الفارسية والالمانية.

وهو كذلك **ذو اطلاع واسع فى التاريخ وفروعه** المختلفة من تاريخ الحوادث والتراجم والحركة الفكرية ووصف البلدان واقوال الرحالين والادباء فى ذلك .

وقد نشر فى هذه الموضوعات كثيرا من المؤلفات والبحوث والدراسات ، وحقق كثيرا من المخطوطات

مثل دراسته عن (ابن الفوطي / وعن (بقية الادارسة بمصر) ، وعن (أصفهان ، معقل الادب العربي فى ايران) و (معجم مواضع واسط واعيان واسطيون من حملة العلم والاثر) و (الثقافة العقلية والحال الاجتماعية فى عصر ابن سينا) و (الفتوة واطوارها واثرها فى توحيد العرب والمسلمين) و (جاوان القبيلة الكردية المنسية ومشاهير الجاوانيين) و (علم ابن النديم باليهودية والنصرانية) وكلها نشرت بمجلة المجمع العلمي العراقي ، و (سيدات البلاط العباسي)

كما نشر بالاشتراك (دليل خارطة بغداد) وحقق وعلق ونشر (الجزء التاسع من الجامع المختصر ، و (نساء الخلفاء) كلاهما لابن الساعي . و (تكملة اكمال الاكمال) لابن الصابوني ، و (المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي) والقسم الرابع من (تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى) . وهذه الآثار ــ وغيرها ــ من آثار الفقيد الى جانب كونها تدل على سعة ثقافية وتنوعها وعمقها واصالتها ، تتسم فى الغالب بطابع التحقيق العلمي ، من جهة .

وتدل من جهة اخرى على ما كان يتصف به الفقيد من الكثير من اخلاق العلماء، من **التثبت والتحري والدقة فى التعبير** ، وعدم القاء الكلام على عواهنه ، **والعفة فى المنطق** ، والتواضع وعدم الدعوى .

وكما يتجلى فيها بوضوح **شغفه الكبير بالكتب** ومعرفته الواسعة بمطبوعها ومخطوطها ، والصحيح والسقيم من طبعاتها ، وما هو منسوب خطأ لغير مؤلفه ، ومن هو مؤلف بعض من جهل مؤلفه منها وما هي قيمتها ، وما هو تام منها وما هو ناقص، والموجود منها وامكنة وجوده ، وما هو مجهول المكان ، فان ذلك يتجلى ايضا فيما نشره عن الكتب من دراسات ومقالات لا تعد ، مما يؤكد صحة ما قاله الفقيد رحمه الله عن الكتب والمخطوطات فى الحديث الذي نشرته مجلة (اقلام) فى الجزء الاول من السنة السادسة بقلم الاستاذ سالم الآلوسي : (انها عماد حياته وسر بقائه) .

وقديما قيل : (العلم معرفة المظان) فمن لم يعرف المراجع التي تناولت الموضوعات المختلفة وقيمة هذه المراجع من الناحية العلمية ، لم يستطع معرفة ما يحتاج معرفته او لم يكن على ثقة من صحة ما يجده فيها .

ومن امثلة تحقيق الفقيد العلمي فى دراسته للكتب، بحثه القيم عن (**الضائع من معجم الادباء**) لياقوت الرومي الحموي ، فقد بين فيه وقوع النقصان فيه ، وفى مواضع لم يتنبه لها ناشره مرجليوث ، وفقدان القسم الثاني من الجزء الثالث والشك فى كون الجزء الرابع اصلا او مختصرا فقط ، وان السابع مختصر فقط ثم شك فى ان يكون كل من الجزاين الرابع والسابع منتزعين من (معجم الشعراء) لياقوت الحموي ، ان لم يكونا جزاين منه ، ثم عقب بذكر تراجم تعتبر ضائعة من معجم الادباء عثر عليها من مطالعاته وتصفحاته ، وقد وقفت منها على 46 ترجمة فى العددين السادس والسابع من مجلة (المجمع العلمي العراقي) وقال : له صلة ، فما ادرى انشر شيئا بعد ذلك اولا ؟

ويعتبر ميدان تحقيق المخطوطات من ابرز ميادين التحقيق العلمي .

وغير خاف انه كان للعرب والمسلمين فى عصور ازدهار الحضارة العربية والثقافية الاسلامية تقاليد رائعة فى ميدان تحقيق المخطوطات ، فقد كان المؤلف يكتب تاليفه ويصححه ، ثم يمليه على الطالب وهو يكتب ثم يقرأ الطالب على المؤلف ما كتبه والمؤلف يمسك نسخته ، فيصحح الطالب بين يدي المؤلف ما

عساه يكون قد صدر منه اثناء الكتابة من خطا ، وبعد فراغ الطالب من مقابلة جميع الكتاب مع المؤلف يكتب له المؤلف بخط يده وتوقيعه على نسخته شهادة بان الطالب قد قرأ عليه هذا الكتاب وقابله معه حتى اصبحت نسخته هذه طبق اصل المؤلف ، ويضيف المؤلف لذلك ما مؤداه اعترافه بان هذا الكتاب من تاليفه وانه موافق على صحة هذه النسخة باذنه لهذا الطالب (واجازته) له ان يروي عنه هذا الكتاب ؛ وهكذا يفعل هذا الطالب عندما يصبح استاذا مع طلبته ؛ فتتفرع عن نسخة المؤلف الأصلية فروع طبق الأصل بقدر من قراوها على المؤلف وقابلوها معه واجاز لهم روايتها عنه ؛ ثم تتفرع عن كل نسخة من هذه النسخ المطابقة لأصل المؤلف نسخ عديدة طبق الفروع المنسوخة منها ، وهكذا دواليك .

وقد عرف تاريخ الثقافة الاسلامية نسخا اصلية مصححة ومقابلة استمرت الاجيال المتعاقبة في مختلف الاقطار تتناقلها وتقابل عليها الفروع المستنسخة منها ، وتتصل روايتها عن مؤلفها او ناسخها بالسند المتصل جيلا بعد جيل ، وكان اهل العلم يتنافسون ويتغالون في الحصول على هذه النسخ ويعرفون لها قيمتها . على انه لا نكران انه كان الى جانب هؤلاء المتثبتين المتحرين المتقنين طائفة اخرى من النساخ الجاهلين الذين لا ذمة لهم ، مما استحقوا معه ان يسموا بالماسخين !

وظهرت المطبعة العربية أول مرة في اوروبا وقام اعاجم غير مسلمين بطبع بعض المخطوطات العربية لاغراض خاصة . وعلى نطاق محدود ، وكانت عندهم امكانيات مادية كافية ، ولم يكن بعضهم يخلو من معرفة وروح علمية .

وعندما انتقلت المطبعة العربية الى البلاد ذات الثقافة العربية قامت بعض المؤسسات الرسمية باسناد مهمة تصحيح المطبوعات العربية الى طائفة من اهل العلم ، فنشرت مخطوطات مهمة لا تنقصها الصحة في كثير من الاحيان ، ولكن تحول نشر المخطوطات الى عملية تجارية كان نكبة عظيمة للكتاب العربي مسخته مسخا شنيعا ، مما دفع بعض المخلصين للتراث العربي في بعض البلاد العربية الى القيام بحركات لانقاذ الكتاب العربي بنشره نشرا علميا .

ولكن هؤلاء المحققين لم يسلكوا منهجا واحدا في التحقيق ، وزاد الأمر تعقدا تسرب جماعة من انصاف المتعلمين الى الميدان — وفيهم من يحملون شهادات عليا من جامعات أجنبية — وقيامهم بأعمال مشوهة باسم التحقيق العلمي ، ممن دعا الى وضع رسائل عن المنهج العلمي لتحقيق المخطوطات ، فيما الاصيل وفيما المنقول .

وقد كان الفقيد — رحمه الله — من ابرز العاملين في ميدان **التحقيق العلمي للمخطوطات** ، ولكننا لا نعرف له رسالة خاصة أو مقالا عن المنهج العلمي لهذا التحقيق (1) وبالرجوع الى بعض اعماله في هذا الميدان نستطيع استخلاص بعض آرائه في الموضوع .

وسنتخذ عمله في رسالة (نساء الخلفاء) لابن الساعي التي نشرتها (دار المعارف) بمصر بدون تاريخ ضمن سلسلة (ذخائر العرب) رقم 27 مرجعا في هذا البحث .

1) اسم الكتاب

سمى المؤلف كتابه (جهات الخلفاء من الحرائر والاماء) وسماه صاحب (كشف الظنون) (نساء الخلفاء) فجمع المحقق بين الاسمين بتقديم الثاني لوضوح معناه ، وتاخير الاول نظرا لعدم استمرار استعمال كلمة (جهة) فيما كانت تستعمل فيه .

2) مؤلف الكتاب

لم يكتب اسم المؤلف على النسخة الوحيدة المعروفة من الكتاب .

وقد نسبه الاستاذ مكرمين خليل مدرس التاريخ بجامعة استانبول الى كمال الدين عبد الرزاق المعروف بابن الفوطي المؤرخ ، فتصدى المحقق لبيان بطلان هذه النسبة التي لا دليل عليها لا في الكتاب ولا خارجه ، وقدم أربعة أدلة على انه لابن الساعي لا لابن الفوطي استغرقت خمس صفحات .

ثم بين خطأ اهمال كتابة اسم المؤلف على الكتاب ، وذكر ان المؤلف المعروف في زمن قد تذهب شهرته او كثير منها في عصر آخر واورد امثلة على ذلك

3) التعريف بالمؤلف وعصره

لقد كان الترتيب الطبيعي يقتضي تاخير التعريف بالمؤلف وعصره الى ما بعد اثبات انه ابن الساعي لا

(1) علمت بعد القاء هذا البحث في المهرجان التابيني ان له بحثا مخطوطا في الموضوع .

ابن الفوطي ولا غيره ، ولكن المحقق راى ان الادلة التي قامت له على انه ابن الساعي تنفي كل احتمال ممكن في انه لغيره ، لذلك تجاهل هذا الاحتمال أولا وتصدى للتعريف بعصر المؤلف والمؤلف فاورد ما قاله ثمانية من الرحاليين والمؤرخين عن الحالة السياسية في عصر المؤلف . واورد قائمة باسماء بعض الشعراء والعلماء ، بمعنى العلم الصحيح ، والمؤرخين .

وفي كلامه على سيرة المؤلف ، ذكر مولده ، واشار الى عدم وجود ذكر لوالده في التاريخ ، وبين معنى الساعي وسماع المؤلف للحديث ، ودراسته الادب والتاريخ ولبسه خرقة التصوف وشيوخه .

ثم ذكر ان بعض من ذكروا المؤلف التبس عليهم اسمه ابن الساعي بابن الساعاتي ، وبين غلطهم .

وان ابن الساعي عرف بالخازن ، وبين معناه وذكر اسماء بعض من كانوا يختلفون الى دور الكتب في هذا العصر ، وان ابن الساعي الف اكثر كتبه في ايام الدولة العباسية ، وان العباسيين كانوا يجيزونه عليها ، واضاف : وهذا يطعن في حياده عند اهل التحقيق والتدقيق !

ثم ذكر بعض من استمد من تآليفه ، وقيمته كمؤرخ وضعف طعن من طعن فيه ، ثم اورد قائمة باسماء مؤلفاته ومن ذكر كل واحد منها .

ويقع هذا التصدير في 40 صفحة بالحرف الصغير بينما تقع الرسالة بتعاليقها في 92 صفحة اغلبها بالحرف الكبير .

هذا — وقد سبق للمحقق ان حقق ونشر (الجزء التاسع مع المختصر ، في فنون التواريخ وفنون السير) لابن الساعي . وصدره بمقدمة ترجم فيها المؤلف ، وذكر نظم الدولة العباسية في اواخر عهدها، والخلافة على عهد الناصر لدين الله فيعتبر عمله في تصدير (نساء الخلفاء) تتميما لعمله السابق .

4) مصدر النسخة وصفتها

ذكر المحقق — في التصدير — كيف علم بوجود النسخة ومكانها ، وكيف تم تصويرها ثم اخراجها على الورق وقيامه بنسخها ، ووصف خط النسخة وذكر تاريخها .

5) اصلاح اخطاء النسخة

ذكر المحقق انه صحح ما في النسخة من خطأ النسخ ، فالناسخ نقل في عدة مواضع ما لم يفهمه من الكتاب ونسخ ما هو غير واضح ، الى اخطاء املائية يرتكبها .

وقد حدث خلل في النسخة : وهو ان قسما من اخبار احدى المترجمات ادغم في اخبار ترجمة اخرى، فاستوجب ذلك تنبيها واصلاح الخلل ، ولم ينبه على ذلك احد قبل المحقق .

ونشير الى ان من محققي المخطوطات من يحافظون على ما في النسخة كما هو صوابا وخطا ، ثم يعلقون في الحاشية ببيان الاخطاء ووجه الصواب فيها ، ومنهم من يصلح الاخطاء ، في الاصل ويذكر في الحاشية ما كانت عليه في المخطوط ، ووجه اصلاحها .

وقد سلك الفقيد هذا المسلك الاخير في (نساء الخلفاء) اربعا وعشرين مرة ، منها ما هو خطأ نحوي ، ومنها ما هو خطأ في الاعلام ، ومنها ما اصلحه اعتمادا على المصادر ، ومنها ما اصلحه لعدم مناسبته المقام ، ومن امثلته :

ومطربها (بمعزفه) ... يؤوب الى نوائحها . مكان (بمعرفة) قال : لا محل للمعرفة فيه ، وانما العبرة في صيرورة المطرب بمعزفه الى النوائح !

ولكن المحقق ابقى اخطاء اخرى على حالها ونبه على خطئها مثل (الرزازين) التي هي تصحيف الزرادين و (قصر الخلافة) والصواب قصر (الرصافة) (وظفرسي) الداعي العلوي ؛ وهو قريب من ظفر ابن الداعي العلوي .

وتارة يبقى الخطأ على حاله ويضيف كلمة (كذا) اليه . هذا كله فيما اتضح فيه وجه الخطأ ؛ اما ما كان محتملا فانه يبقيه على حاله ويذكر الاحتمال في التعليق؛ فقد وردت في المخطوط — مثلا — كلمة (فتلبتها) ويجوز ان تكون (فقبلتها) كانها فعلت ذلك احتراما لمهديها .

6) هل الكتاب تام أم ناقص ؟

استظهر المؤلف في تعليق (ص 53) انه ناقص .

7) هل التزم المؤلف شرطه ؟

ختم المحقق تصديره بان المؤلف لم يلتزم شرط

كتابه بتضمينه اياه نساء الخلفاء ، فقد اضاف اليه من نساء السلاطين والامراء .

8) شكل الكلمات

ويولي الفقيد رحمه الله عناية خاصة للكلمات التي تحتمل الخطأ عند النطق بها فيشكلها بالحركات مثل : العكبري ، وبغا والدبيثي ، والسهروردي ، والجنابذي ، وخمارويه ، وبنفشا ، والصلح .

وضبط شمة بفتح الشين والميم ، فرارا من قول من قال : ان تسكين الميم من كلام المولدين — وان لم ينبه على ذلك — .

واحيانا يناقش المصادر فى ضبطها لبعض الكلمات .

فعربب ضبطها الذهبي بالضم . ولكن ورد فى الجزء الثامن عشر من الأغاني شعر يدل على ان العين مفتوحة والراء مكسورة .

وبنان بضم الباء وضبطها مصححوا كتاب الاغاني بدار الكتب المصرية بالفتح .

9) تفسير الكلمات المحتاجة الى تفسير

سمى المؤلف كتابه (جهات الخلفاء) — جمع جهة وهي كناية عن زوجة الخليفة او حظيته ، او زوجة السلطان او حظيته ، استعملت كذلك فى العصر السلجوقي وما بعده، واريد بها احيانا السيدة المتزوجة مطلقا . ووردت كلمة (البدنة) فى كلام المؤلف واحمد ابن ابي طاهر وابي جعفر الطبري ، بدون تفسير ففسرها واستعمل المؤلف كلمة (الغابرين) بمعنى الباقين وهذا هو الوجه الفصيح فى استعمال الغابر وهو الوارد فى القرآن الكريم ، وأما استعمال الغابر بمعنى الماضي وكونه من الاضداد كما عند ابن الانباري فناشىء — من رأى المحقق — من تصحيف العابر بالعين المهملة .

10) التعريف بالامكنة الوارد ذكرها فى النص

اذا ورد ذكر مكان ، وكل الامكنة الوارد ذكرها من بغداد ، فان المعلق يعين المحل الذي كانت توجد فيه .

فتصور دار الخلافة ومرافقها كانت فى الشارع المعروف اليوم بشارع المستنصر بالله فى بغداد الشرقية .

ومحلة نهر عيسى تسمى اليوم محلة السوق الجديد من الجانب الغربي من بغداد وما قاله ياقوت عن نهر عيسى مأخوذ من تاريخ الخطيب البغدادي ، واكثر ما فى تاريخ الخطيب مأخوذ من كتاب انهار العراق لابن سرافيون .

والظاهر ان سوق الخبازين كان مجاورا لدرب الخبازين المعروف اليوم بدرب العاقولية بشرق بغداد ويعرف بسوق الحيدر خانة .

ومن المعروف ان المحقق الف فى هذا الموضوع بالاشتراك — كما سبق القول — (دليل خارطة بغداد) .

11) التعريف بالاشخاص

يعلق المحقق — غالبا — على اسم المترجمة فى الكتاب بذكر مراجع ترجمتها ، وبعض المراجع التي لها فيها ذكر ، مطبوعة ومخطوطة ، مع ذكر الجزء والصفحة ومكان الطبع وتاريخه — غالبا فى كل ذلك — ويذكر فى المخطوط — زيادة على الجزء والصفحة — المكتبة التي يوجد بها ورقمه ، والمكتبة التي توجد بها صورة عنه ان كانت هي التي رجع اليها ، ويكرر ذلك كلما ورد ذكر الكتاب .

وقال عن واحدة انه لم يجد لها ذكرا فى كتب التاريخ والادب التي وصلت اليها يده سوى كتاب واحد

وقال عن اخرى انه لم يقف على ذكر لها فى كتاب آخر .

ولكنه لم يشر الى مراجع 16 ترجمة ، فالظاهر انه لم يقف على ذكرهن من غير ان ينبه على ذلك .

12) الرجوع الى المراجع التي احال عليها المؤلف

من ابسط قواعد التحقيق العلمي ان يتأكد المحقق مما ينقله المؤلف من مرجع من المراجع . فيعرف هل هو موجود فيه أولا ، واذا كان موجودا فما هو مقدار مطابقته لما نقله عنه المؤلف .

وقد نبه المحقق على عدم وجود بعض ما ذكره المؤلف فى المصدر الذي رجع اليه .

فقد نقل المؤلف عن الجهشياري فلم يجد المعلق الخبر في المطبوع من كتاب (الوزراء والكتـــاب) لان المطبوع ناقص كما هو معلوم .

ونقل المؤلف عن ابن الجوزي فلم يجد المؤلـــف الخبر في (المنتظم) لانه انتهى قبل ذلك التاريـــخ ، فالظاهر ان هذا الخبر من (درة الاكليل) .

ونقل المؤلف عن ابي بكر الصولي فاستظهـــر المعلق ان المؤلف اخذ هذا القول مما ذكره ابو الفرج في اخبار ابي العتاهية .

واورد المؤلف كلاما مضطربا فاصلحه المعلق من (مروج الذهب) . والذي جرت به عـــادة محققـــي المخطوطات وعليه درج النقيد في كثير من تحقيقاته ، (تلخيص مجمع الآداب) مثلا ، بيان جـــزء المصـــدر والصفحة الذين يوجد فيهما ما نقله المؤلف .

ولكنه اهمل هذا في تحقيقه (لنساء الخلفـــاء) فقد ذكر المؤلف في ترجمة (عنان) ان لها اخبارا مدونة ذكرها ابو الفرج الاصفهاني في (كتاب الاغاني) وذكر المعلق في مراجع ترجمتها الاجزاء : العاشر والعشرين والثالث والعشرين المخطوط . ولكنه لم يذكـــر في اي جزء من هذه الاجزاء يوجد انه ما نقله المؤلف .

وكذلك في ترجمة عريب ، وبدعة الكبيرة .

وكذلك فيما نقله عن (كتاب بغداد) لاحمد بن ابي طاهر ، ونقل عن كتاب (الورقة) لابن الجراح فذكر المعلق ان المطبوع منه ناقص ، ولكنه لم يشر الى ما اذا كان ما نقله المؤلف موجودا في المطبوع اولا . الى غير ذلك .

13) التعريف بالمراجع

وقد يضيف المحقق التعريف بالمرجع الذي نقل منه المؤلف فقد نقل عن تاريخ ثابت بن سنان بن قرة ، فنقل عن القفطي التعريف بهذا التاريخ ، وبيان المدة التي ارخها واهميته .

14) ايضاح المبهمات

فالحافظ ابو عبد الله البغدادي هو محب الدين محمد ابن النجار وابو القاسم الارجي هو يحيـــى بن اسعد بن بوش ، وابو احمد الامين هو عبد الوهاب ابن سكينة ، وابو محمد الجنابذي هو عبد العزيز بن محمد بن الأخضر ، ومحمد بن داود هو ابن الجراح ، والمشهور بابي عبد الله الحنبلي في عصر ابن النجار هو ابو عبد الله محمد بن مكي بن ابي الرجاء الملقب تقي الدين .

15) التنبيه على أوهام المراجع

ويولي النقيد رحمه الله عناية بالغة للاوهـــام الواقعة في المراجع فيهتم بالتنبيه عليها وبيان الصواب فيها ، فقد نسب ابن خلكان للسمعاني انه ضبط كلمة جهير بالضم وهو غلط ، مع ان الوارد في (الانســاب) هو الفتح ، وكذلك ما في مختصره (اللباب) .

وبنان بضم الباء، وضبطها محققوا كتاب الاغاني بدار الكتب المصرية بفتحها .

وظن ابن تغرى بردي ان ابن الساعي كان حنفيا مع انه شافعي ، وقد نبه المحقق على ما يمكـــن ان يكون السبب في ظنه هذا .

وذكر علي بن الحسن الخزرجي ابن الساعـــي فسماه ابن الخازن والصواب الخازن .

وعن مؤلفات ابن الساعي (الاحاديث الثمانية). وقد ورد في بعض المصادر (اليمانية) من غلط النسخ او الطبع .

ولابن الساعي كتابان في نساء الخلفاء ، وقـــد حسبهما الذهبي وبعده الصفدي وتابعه ابن تغـــرى بردي كتابا واحدا .

وسمى المؤلف احد شيوخـــه عبد العزيـــز بن المبارك ، وجاء في (تذكرة الحفاظ) للذهبي : عبـــد العزيز بن مسعود ، وهو خطا ، ولم يصحح هذا الخطا مصححوا « معجم البلدن » (طبعة دار صادر ببيروت) .

وذكر ياقوت باب المحول من الجانب الشرقي من بغداد والصواب الغربي .

وتردد صاحب مختصر بغداد في نسبـــة خبـــر للمعتضد او المعتمد والصحيح انه المعتمد .

ولقب ابن النجار في (النجوم الزاهرة) بمجـــد الدين بدلا من محب الدين وهو من خطا النسخ وعدم التصحيح في الطبع !

وذكر ابن جبير دار ابي الفرج ابن الجوزي ، مع انها مدرسة بنفشا وكان يسكن فيها لأنه كان مدرسها يومئذ .

وكان انشاء تربة عون ومعين ايام الناصر . واخطأ الصلاح الصفدي فنسب عمارات الناصر ومنها تربة عون ومعين الى ابيه محمد الظاهر .

ووقع في ترجمة ثابت بن سنان في تاريخ الحكماء للقفطي اضطراب في تاريخ وفاته : حيث ذكر مرة انها كانت سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، ومرة سنة خمس وستين وثلاثمائة . وورد اسم (شاهفرند) في تاريخ الطبري وفي الكامل شاه آفريد ، وفي بعض نسخ (مروج الذهب) للمسعودي (سارية) وهو تصحيف .

ورجح ابن خلكان ما ورد عند العماد في (الخريدة) على ما ورد عند السمعاني لظنه ان بينهما تعارضا ، فبين المحقق انه لا تعارض بينهما .

وورد ذكر ابي بكر ابن العلاف ، فذكر المعلق مصادر ترجمته وقال : وهو صاحب الابيات المشهورة في رثاء المبرد ، وليست هي لثعلب كما ذكر الكمال بن الانباري في (نزهة الالباء) .

16) التعريف بمؤلفي بعض المخطوطات الغفل

نقل المحقق من (ذيل تاريخ بغداد) لابن الدبيثي، نسخة كمبردج ، وزاد : ولم يعلم المفهرس انه تاريخ ابن الدبيثي وقد حققنا ذلك وتأكد لنا .

17) التنبيه على الخطأ في نسبة بعض المؤلفات لغير مؤلفيها

تقدم انه بين ان (نساء الخلفاء) لابن الساعي لا لابن الدبيثي ، ومن مؤلفات ابن الساعي (اخبار الخلفاء) ، واما هذا المطبوع المسمى (مختصر اخبار الخلفاء) فهو مدسوس عليه نحله اياه بعض المزورين الذين اعتادوا التزوير في كل امورهم وشؤونهم !

و (المحاسن والاضداد) منسوب خطأ للجاحظ.

وكتاب (الذخائر والتحف) مجهول المؤلف ، وقد نسب الى القاضي الرشيد ابن الزبير ، وكتب تحته (القرن الخامس الهجري) . قال المحقق : وكل ذلك خطأ على خطأ !

وذكر محقق الكتاب الدكتور الفاضل محمد حميد الله انه مع سعيه لم يعثر على ترجمة القاضي الرشيد ، مع انه مترجم بتفصيل في مصادر اوردها المحقق . وهو من اهل القرن السادس لا الخامس . ثم قال : ونسبة الكتاب المذكور اليه — وهو من تاليف القرن الخامس — خطأ مبين يجب اصلاحه ، ولعله من مؤلفات ابن بابشاد المشهور .

و (طبقات الشعراء) منسوب لابن المعتز .

18) التنبيه على نقصان بعض الكتب

الظاهر ان ترجمة عبيد الله بن احمد بن ابي طاهر فقدت فيما فقد من (معجم الادباء) .

والمطبوع من (كتاب الوزراء والكتاب)للجهشياري ناقص كما هو معلوم ، وما اكثر المفقود منه !

والمطبوع من (كتاب الورقة) (بعناية دار المعارف !) وتحقيق الاستاذين الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج خال من الترجمة التي نقلها ابن الساعي فالنسخة ناقصة .

وقد ورد في (اخبار النساء) خبر منقول عن (الورقة) لا يوجد في المطبوع .

وفيما نقل عن احمد بن ابي طاهر لاذكر له في المطبوع منه المعروف (باخبار بغداد) .

ونقل عن تاريخ هلال بن محسن الكاتب لاذكر له في المطبوع منه الملحق (بتاريخ الوزراء) لهلال المذكور ، فهو ناقص .

19) التنبيه على خطأ تسمية بعض المؤلفات

كان الفقيد قد صحح قديما مخطوطا فغفلا من التسمية وتسمية المؤلف ، سماه في المطبوع (الحوادث الجامعة) لكمال الدين ابن الفوطي ، وقد صدره ناشره بمقدمتين اولاهما بقلم صديقنا الاديب الكبير محمد رضا الشبيبي رحمه الله ، وقد جاء فيها : (ومن رأيي — وقد تصفحت الكتاب — انه كتاب (الحوادث والتاريخ) لمؤلفه ابن الفوطي ، وزاد : وان لدينا من الادلة ما يكفي في نسبة هذا الكتاب الغفل الى العلامة المذكور .

وثانية المقدمتين بقلم الفقيد ، مصحح الكتاب والمعلق عليه ، وقد اورد اسم (الحوادث الجامعة) بدون نقاش .

وذكر اول من نسبه لمؤلفه فى عصرنا .

ولكنه فى تعاليقه على (نساء الخلفاء) يقول : الكتاب الذي سميناه (الحوادث الجامعة) استرجاحا نظهر انه غيره !

20) التنبيه على قيمة بعض الطبعات

ينقل المحقق عن (وفيات الاعيان) طبعة بلاد العجم ، ثم قال عنها انها اصح من الطبعات الاخرى .

21) اضافة ملحق للكتاب

اضاف المحقق الى (نساء الخلفاء) ملحقا اورد فيه اخبارا متعلقة ببعض المترجمات فى الكتاب وردت فى(الذخائر والتحف) السابق الذكر .

22) الفهارس وقائمة المراجع

الفهارس مفاتيح الكتب ، فالكتاب الذي لا فهارس له تكون الاستفادة منه صعبة وفى نطاق محدود . ولهذا كان وضع الفهارس من اهم ما يقوم عليه المنهج العلمي لتحقيق المخطوطات .

وقد اختلف موقف الفقيد من هذه القاعدة فهو تارة يضع الفهارس اللازمة والمتنوعة ، مثل ما فعل فى جزء (الجامع المختصر) .

حيث اضاف له خمسة فهارس احدها للكلمات المفسرة وآخر عمراني للاخلاق والعادات والشؤون الاجتماعية ، وفى (تكملة اكمال الاكمال) لابن الصابوني حيث اضاف له اربعة فهارس ، ثالثها للفوائد الشاردة وفى (الجامع الكبير) لابن الاثير ثمانية فهارس .

وفى (دليل خارطة بغداد) فهرسان .

وتارة اخرى يكتفي بفهرس مختصر مثلما فعل فيما سماه (الحوادث الجامعة) .

ومثل جزاي (المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي) حيث ذكر فى الاول مراجع التصحيح والايضاح والتراجم ، وفى الاخير ثبتا مختصرا للمترجمين فى الجزء ، ومثل القسم الثالث من الجزء الرابع من (تلخيص مجمع الآداب) لابن الفوطي حيث اقتصر على فهرس ابواب هذا القسم الثالث من الكتاب ، ووعد ان يثبت فى القسم الرابع والاخير منه الفهارس العامة التفصيلية للجزء الرابع كله ، ولم اقف الا على القسم الثالث وحده .

ولكنه تارة ثالثة لا يضع فهرسا بالمرة مثل سيدات البلاط العباسية و (نساء الخلفاء) .

واذا كان مظهر (سيدات البلاط) لا يدل على طابع تحقيق علمي ، لخلوه من التعليقات والمصادر فاحرى الصفحات وما يتبعها ، الى جانب الصورة التي على الغلاف !

فان النسخة التي وقفت عليها من (نساء الخلفاء) خالية من الفهارس والمراجع ، فما ادري استطت من هذه النسخة فقط ، ام ان المحقق راى ان صفر الرسالة فى غنى عن الفهارس ، او انما الغيت من طرف الدار) اقتصادا فى النفقات ! !

22) اخطاء الطبع

قلما يسلم مطبوع من خطأ مطبعي ، و (نساء الخلفاء) التي بذل محققها رحمه الله جهودا فى التحقيق والضبط لم تسلم من خطأ مطبعي !

ومن امثلة ذلك فى ص 60 بفتح الواو والصواب الميم ، وفى 135 السادس والصواب الخامس ، وفى 124 الجبازين والصواب الخبازين ، وفى 120 واثرت والصواب واقرت .

وكثير من محققي الكتب يوردون فى آخر الكتاب جدولا للخطأ والصواب ولم يرد فى (نساء الخلفاء) شيء من ذلك !

23) نماذج مصورة من الاصل

فى اول الكتاب صور 3 صفحات من المخطوط لتمكين القارىء من تكوين فكرة عن المخطوط .

الاستطراد

ومن مظاهر اتساع ثقافة المحقق استطراده العابر المفيد .

فالتصوف والتشيع اخوان ، واوقف ابن الساعي كتبه على المدرسة النظامية قبل موته بقليل ، كما هو

عادة العلماء الواقفين كتبهم على المدارس ، ولعل ذلك قبله ابن النجار ، ودفن ابن الساعي بمقبرة الشونيزية بالجانب الغربي من بغداد ، وهي مقبرة الصوفية وذوي المشرب الصوفي وان لم يتصوفوا ، وفيها دفن الجنيد الصوفي الزاهد المشهور ، ولا يزال قبر الجنيد معروفا مزورا .

ومن شيوخ المؤلف ابو البقاء العكبري المنسوب اليه (شرح ديوان ابي الطيب المتنبي) المطبوع غير مرة مع انه تاليف عفيف الدين علي بن عدلان الموصلي المتوفى سنة 666 هـ .

الاعتراف بالجميل

وقد كرر المحقق التنويه بفضل ماسينيون الذي كتب اليه مخبرا بوجود المخطوطة في استانبول . كما نوه بالاستاذ (احمد آتش) التركي الذي صور المخطوطة بالمايكروفيلم (يعني الشريط الدقيق) .

وهكذا تجد الفقيد يعترف لكل ذي فضل بفضله ولا تشعر انه يحاول غمط حق احد ممن يرد ذكرهم في كلامه ، وهو اذا كان حريصا على بيان الاخطاء التي وقع فيها المؤلفون فانه يعبر عن ذلك بعبارات مهذبة ولبقة ، مع التماس الاعذار لكل مخطىء غالبا، وفي كثير من عباراته التي اوردناها سابقا امثلة على ذلك .

وقد علق على وصف الموفق بالامام : ولم يكن الموفق اماما اي خليفة ، بل كان ولي عهد ، فان صح ان هذا قول المؤلف فهو خطأ ، ولعل الاصل الامير .

التواضع

ويرجو المحقق ان لا تخلو تعاليقه من فائدة يقطفها القارىء في اثناء قراءته الكتاب ، والباحث عند استمداده منه ، ويزيد : ولا ابرىء نفسي من التقصير ولا من ذهول فان نشر كتاب مخطوط اول مرة لا يبلغ الكمال في كل الاحوال .

وهذه العبارة الاخيرة ليست من باب التواضع ولكنها الحقيقة الواقعية ، وصدق الله العظيم : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا !)

— ◆ —

هذه صورة عن ثقافة الفقيد واخلاقه العلمية كما تتجلى للناظر في كثير من آثاره ، ومنها يتجلى انه رحمه الله كان علما بارزا من اعلام النهضة الثقافية العربية في هذا العصر .

ولعل مما ساعده على ذلك انه تثقف في اول امره **ثقافة اسلامية عربية متينة خالصة** ، ولم يتصل بالفكر الاجنبي الا بعد ان تكونت شخصيته تكوينا سليما ، فلم يصب بما **اصيب به الكثيرون ممن اتصلوا بالفكر الاجنبي في حداثتهم فنجح في مسخ شخصيتهم ، وقطع صلاتهم بتراثهم الفكري والحضاري المجيد .**

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وجزاه احسن الجزاء ، كفاء ما قدم من **خدمات جليلة للغة العربية وتراثها** واحسن عزاء الامة العربية التي فقدت فيه ركنا من اركان نهضتها ، ووفق تلامذته لمواصلة اداء رسالته في خدمة اللغة العربية وتراثها ، وعسى ان يقوم المجمع العلمي العراقي بجمع جميع مقالات الفقيد وبحوثه المتفرقة في اعداد مجلة المجمع وغيرها من المجلات وطبعها حتى يعم الانتفاع بها ، وتسهل الاستفادة منها ، فان مجلة المجمع — مثلا — على اهميتها الكبيرة محدودة الانتشار جدا في الوطن العربي.

كما ان من الواجب الاكيد ايلاء عناية خاصة لآثار الفقيد المخطوطة حتى تخرج للوجود ويستفيد منها قراء العربية في كل مكان .

وشكرا جزيلا لوزارة الارشاد على ثنيها لهذا العمل الجليل واتاحتها لهذه الفرصة التي مكنت زمرة من اهل الفكر العربي والاسلامي بآلاف العلماء والمؤلفين الذين انجبتهم في عصورها الزاهرة ، والذين قاد الكثيرون منهم الفكر الاسلامي والعربي في مختلف انحاء الوطن العربي والاسلامي عدة قرون .

الفكر العلمي العربي

في شخص العباس بن فرناس حكيم الأندلس

الأستاذ سعيد الديوه جي
عضو المجمع العلمي العراقي

ابو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرني الاموي بالولاء ـ احد اساطين العلم والادب والفن في الاندلس .

لم نقف على ولادة هذا العالم الجليل ، والذين ترجموا له ذكروا : انه توفي سنة 274 هـ (884 م) وانه اربى على الثمانين ، فتكون ولادته في آخر القرن الثاني للهجرة (حوالي سنة 194 هـ)

اصله من برارة « تاكرنا » ونشا في قرطبة ، عاصمة الدولة الاموية ، وهي ـ اذ ذاك ـ مركز العلم والادب والفن في اوروبة ، يشدون اليها الرحال ، ويقتبسون من معارف العرب وفنونهم وصناعاتهم ، التي كانت تبهر عقولهم ، وتاخذ بالبابهم .

في هذا المحيط الزاهي بالعلوم والمعارف ، شب ابن فرناس ، وكان ذكي الفؤاد ، سريع الحفظ ، دقيق النظـــر .

تعلم القرآن الكريم ، ومباديء الدين الحنيف في الكتاتيب التي كانت كثيرة في قرطبة ، ثم اخذ يرتاد الحلقات العلمية ، التي كانت تعقد في جامع قرطبة ، ويستمع الى ما يجري فيها من محاضرات ومناظرات ومجادلات علمية ، وما يلقيه علماء الاندلس من طريف ما اخذوه عن المشارقة .

ويقصد المجالس الادبية ، ويستمع الى شيوخها استماع متبصر ، يريد ان يستفيد مما يجري في الحلقات والمجالس ، مما كان يلقيه شعراء الاندلس وادباؤها من جميل النظم والنثر ، ومن غريب الاخبار واللغة التي اخذوها عن اهل المشرق .

وكان يتردد الى اصحاب الفنون الرفيعة ، فيستمع الى الاصوات التي وضعوها ، والآلات الموسيقية التي يوقعون عليها .

درس كتب الطب ، **وخصائص الامراض واعراضها ، وطرق الوقاية منها** ، وعلاج من اصيب بهـــا .

درس **خصائص الاحجار والاعشاب والنباتات** ، ووقف على ما تفيده في المعالجة ، وكان يقصد الاطباء والصيادلة ويناقشهم فيما ظهر له من اطلاعه وتجاربه في هذا العلم الجليل ، الذي يحفظ صحة المجتمع ، ويقيه شر الامراض .

واشتهر بين اطباء عصره ، فاتخذه الامراء الامويون (1) طبيبا خاصا لمعالجة الاسرة الحاكمة ، يشرف على صحتهم وطعامهم ، ويرشدهم الى النجع الطرق فى معالجة مرضاهم .

درس **الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم الروحانية** ، وجمع الكتب التى تبحث منها ، والتى صعب الحصول عليها، وقراها قراءة مدقق ، واستفاد منها وافاد قومه .

اشتغل بالنحو ودقائق الاعراب ، واطلع على آراء النحاة فى التعليل وصار **من نحاة عصره فى الاندلس** ، يؤخذ عنه وذكره الزبيدي فى الطبقة الثالثة من نحاة الاندلس ، وقال عنه : كان متصرفا فى ضروب من الاعراب .

كان يقصد اهل الصناعات الرفيعة ، ويدقق باعمالهم وصناعاتهم ، وفنونهم الدقيقة ، ويسالهم عن سر ما لم يهتد الى معرفته بنفسه ، فاقتبس منهم صناعات ومعارف ساعدته على ابراز ما علمه ، مما يحتاج الى عمل آلات علمية .

وهكذا صار ابو القاسم العباس بن فرناس متضلعا بعدة علوم وفنون وصناعات ، وآداب مختلفة، فبرز على علماء زمانه ، بما انفرد به من معارف وعلوم لم تتهيا لغيره من اهل الاندلس ، حتى انهم اطلقوا عليه « **حكيم الاندلس** »

– 2 –

كثير هم الذين قنعوا من العلم بالامور المبسطة ، التى يسهل فهمها . وبالنظريات المجردة ينقلونها عن غيرهم ، ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث والتدقيق فيما درسوه ، او تحقيق ما علموه ، ولم يحاولوا تطبيق العلم على العمل ، ليتاكدوا من صحة ما نقل اليهم ، او اخذوه عن غيرهم .

وابو القاسم لم يكن من هذا الرعيل القانع بالسهل المبسط ، بل **كان يدقق ما يدرسه ، ويحقق ما يفهمه ، ويتدبر ما يقراه** ، ويطبق عمليا ما يحتاج الى العمل ، ليتاكد صحة المدعى ، ويستفيد مما اخذ، فهو احد **العلماء العاملين ، الذين وضعوا اسس الحضارة العلمية والعملية فى الاندلس** : سهلوا العويص ، وشرحوا الغامض ، ويسروا العسر ، **وابتكروا آلات علمية ومعارف عملية** .

فابو القاسم من العلماء الذين علموا وعملوا : عكف على تحقيق القضايا التى درسها ، وهيأ لنفسه ما يحتاجه عمله من **آلات دقيقة ، وادوات مختلفة والاجهزة العلمية** – التى ساعدته على اظهار علومه ومعارفه عمليا، ورسم طريقة مثلى لاهل بلاده . وهي **محاولة تطبيق العلم على العمل** ، بحيث يحققون ما يدرسونه ، ويصنعون لانفسهم الآلات والادوات العلمية التى يحتاجونها من غير ان يتكلوا على غيرهم؛ وبذا يحق لهم ان يكونوا علماء عاملين ، يسعى اليهم، ويؤخذ عنهم ، ويعتز بآرائهم المؤيدة بالعمل بعد العلم .

وعلى هذا **فابو القاسم فاق اهل عصره فى طريقته العملية** ، فبرز فى علوم ومعارف اوجدها من تجاربه فى التوليد والاختراع ثم الابتكار ، ومن ذلك :

1 – **عانى صناعة الكيمياء ، وقام بتجارب وفحوص مختلفة** ، واهتدى الى حقائق ، لم تكن معروفة عند الاندلسيين ، منها : **انه استنبط صناعة الزجاج من نوع من الحجارة** ، وبذا يسر للاندلسيين صناعته من مادة بخسة الثمن ، سهلة التناول ، فانتشرت صناعته فى الاندلس ، وتفوقوا فيها .

2 – **عانى علم الفلك والتنجيم** ، راقب النجوم والكواكب فى افلاكها ومداراتها ، **وصنع الآلات التى تساعده على الرصد** . ومما صنعه **الآلة المعروفة « بذات الحلق »** ورفعها الى الامير محمد بن عبد

---

(1) اتصل ابن فرناس بثلاثة امراء – وكان مقربا اليهم وهم على التوالي :

1 – الحكم بن هشام 188 – 206 هـ = 803 – 821 م

2 – عبد الرحمن بن الحكم 206 – 238 هـ = 821 – 852 م

3 – محمد بن عبد الرحمن 238 – 273 هـ = 852 – 886 م

الرحمن الاموي ؛ وكتب عليها ابياتا من نظمه تناسب الآلة ، وما تقوم به من عمل :

قد تم ما حملتني من آلة
احيا الفلاسفة الجهابذ دوني

لو كان بطليموس الهم صنعة
لم يشتغل بجداول القانون

فاذا رانه الشمس في آفاقها
بعثت اليه بنورها المحزون

ومنازل القمر التي حجبت معا
دون العيون بكل طالع حين

يبدون فيها بالنهار ـ كما بدت
في الليل في ظلماتهن الجون

3 ـ **عمل الميقاتة لمعرفة الاوقات** ـ وهي تقوم مقام الساعة في يومنا هذا ، ورفعها الى الامير محمد بن عبد الرحمن ، وكتب عليها من نظمه :

الا انني للدين خير اداة
اذا غاب عنكم وقت كل صلاة

ولم تر شمس بالنهار ، ولم تنر
كواكب ليل ، حالك الظلمات

بيمن امام المسلمين « محمد »
تجلت عن الاوقات كل صلاة

4 ـ **اتخذ في داره هيئة السماء** ، وصور فيها الشمس والقمر ، والكواكب ومداراتها ، والغيوم والرعد والبرق ، فكان من اعاجيب الصنعة والابتكار.

5 ـ **انه اول من طار وحلق في الهواء** ـ كما تطير الطيور وهذا من الاختراعات المدهشة التي قام بها « حكيم الاندلس » .

قام بعدة تجارب تمهيدية ، درس بها **ثقل** الاجسام ، ومقاومة الهواء لها ، **وتاثير ضغط الهواء** عليها اذا ما طارت في الفضاء ، وكان له خير مساعد على هذا تفوقه في العلوم الطبعيية والرياضية والكيمياء ، فاطلع على خواص الاجسام ، واجتمع لديه من المعلومات ، ما حمله على ان يجرب الطيران بنفسه .

كسا نفسه بريش اتخذه من سرقي الحرير (1) ، لمتانته وقوته ، وهو يتناسب مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين ـ من الحرير ايضا ـ يحملان جسمه اذا ما حركهما في الفضاء ، وبعد ان تم له كل ما يحتاج اليه هذا العمل الخطير ، وتاكد ان باستطاعته اذا ما حرك الجناحين ، فانهما سيحملانه ويطير في الفضاء ، ـ كما تطير الطيور ـ ويسهل عليه التنقل بهما اينما شاء .

اعلن للناس إنه يريد ان يطير في الجو ، وان طيرانه سيكون من الرصافة ـ ظاهر مدينة قرطبة ـ فاجتمع الناس فيها ليشاهدوا البطل يتهادى في سماء قرطبة .

صعد ابو القاسم فوق مرتفع ، وحرك جناحيه ، وقفز في الجو ، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن المحل الذي وقف فوقه ، والناس ينظرون اليه بدهشة واعجاب ، يهللون له ، وشاعرهم يقول :

يطم (2) على العنقاء في طيرانها
اذا ما كسا جثمانه ريح قشعم

ولما هم بالنزول الى الارض ، تاذى في ظهره، وفاته ان الطائر انما يقع على زمكه (ذيله) ، ولم يكن يعلم موقع الذنب في الجسم اثناء هبوطه الى الارض، فاصيب بما اصيب من أذى .

هذه اول عملية جريئة يقوم بها حكيم اندلسي، يجرب الطيران بنفسه ، وينجح بعمله الى حد ما ، **وهذا النجاح الذي سجله حكيم الاندلس ، دفع الناس**

---

(1) شقق الحرير الابيض والواحدة سرقي
(2) طم : علا ، غلب ، والقشعم : المسن من النسور .

بالاقدام على محاولة الطيران ، فكان عمله نواة طيبة، نمت وازدهرت ثم اثمرت .

على ان تقصيره فى كيفية النزول الى الارض سالما ، لا ينقص من دقة عمله ، وخطوته الجريئة ، بالاقدام على الطيران بصورة فعلية. فان كل عمل فى بدايته ، تعقبه دراسات عديدة ، تكمل نواقصه ، وتهذب طرقه ، وتحسن عمله ، وهكذا يكون فى تقدم مطرد مع الزمن ، وحاجة الانسان ، وما زالت الدراسات المتتالية تجري على الطيران، حتى شاهدنا سفنا عظيمة تطير فى الفضاء ، حاملة عددا لا يستهان به من المسافرين ، مع امتعتهم واثقالهم ، تقطع المسافات البعيدة ، بساعات معدودات ، كان هذا بفضل التجارب التى قاموا بها ، وفى مقدمتهم حكيم الاندلس ـ والفضل للمتقدم ـ

ثم اعقبه بعد قرن من الزمان ، رجل عالم فاضل من المشرق ، هو : اسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة 393 هـ (1003 م) . ولكن عمله لم يكن عن دراسة ، وانما عن خاطر خطر بباله، فكان خاتمة حياته (1) .

هذا ما قام به المسلمون فى المغرب والمشرق من محاولة الطيران ، فنجح حكيم الاندلس ، ولاقى حتفه عالم المشرق ، ولكنهما فتحا بابا واسعا لمن اتى بعدهما فى الاقدام على هذا العمل النافع .

كان العباس بن فرناس اديبا شاعرا ، وله شعر كثير فى اغراض مختلفة ، اتصل بالبلاط الاموي : فكان شاعرهم ـ كما كان طبيبهم ـ وعاش فى اكناف امرائهم ونظم لهم الشعر فى مختلف الاغراض :

مدح امراء البيت المالك ، ووصف حروبهم ومعاركهم مع الاعداء ـ وقد يشارك بنفسه فيها ـ وصف مجالس الانس والطرب ، وما فى قصورهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، وملاعب وكواعب، ومصائدهم ومطاردهم ـ وكان يرافقهم بها.

رافق الامير محمد بن عبد الرحمن ، لما سار الى اخماد ثورة اهل « طليطلة » مع حلفائهم النصارى سنة 240 هـ (854 م) فاوقع فيهم الامير ، واخمد الثورة بعنف وشدة وشتت الثائرين . فقال ابن فرناس يصف هذه الوقعة :

ومؤتلف الاصوات مختلف الزحف
لهوم الفلا ، عبل القبائل ملتف

اذا اومضت فيه الصوارم خلتها
بروقا تزوى فى الغمام وتستخفي

كان ذرى الاعلام فى ميلانها
قراقير فى يم ، عجزن عن القذف

بكى جبلا وادي سليط فاعولا
على النفر العبدان ، والعصبة الغلف

يقول ابن بوليس لموسى ـ وقد اتى ـ
ارى الموت قدامي وتحتي ومن خلفي

قتلت لهم الفا والفا ومثلها
والفا والفا بعد الف الى الف

سوى من طواه النهر فى مستحاله
فافرق فيه ، او تهدهد فى جرف

لقد نعمت فيه فزاة نسورنا
وسمعت الدقات قصفا على قصف

ووصف ما آلت اليه طليطلة من الدمار والتخريب ، وهدم الامير قنطرتها الشهيرة فقال :

---

(1) كان اماما فى اللغة والادب ، وخطه يضرب به المثل فى الجودة ، لا يكاد يفرق بينه وبين خط « ابن مقلة » سافر فى طلب العلم ، واخذ عن عدة شيوخ وخالط الاعراب فى بلاد ربيعة ومضر ، وصنف كتابه المشهور « الصحاح » فى اللغةواستقر فى نيسابور على التدريس والتاليف ، وتعليم الخط ، وكتابة المصاحف ، وله عدة كتب .

فكر فى الطيران ، واعتقد ان فى مقدور الانسان ان يطير اذا ما اتخذ له جناحين ، كجناحي الطير ، ولكنه لم يقم بدراسات تمهيدية يجرب بها ما افترضه ـ كما فعل حكيم الاندلس ـ فانه صعد سطح الجامع القديم فى نيسابور وقال :ايها الناس اني عملت فى الدنيا ما لم اسبق اليه ، فساعمل للاخرة امرا لم اسبق اليه ، وضم الىجنبيه مصراعي باب ، وتابطهما بحبل ، وطار فى الفضاء ، ـ ولم يكن موفقا بعمله ، فان مصراعي الباب لم يحملانه فى الفضاء ، بل سقطا به على الارض ومات . فكان عمله هذا دراسة سطحيةلعمل كبير .

اضحت طليطلة معطلة
من اهلها ، فى قبضة الصقر

تركت بلا اهل تؤهلها
مهجورة الاكناف ، كالقبر

ما كان يبقى الله قنطرة
نصبت لحمل كتائب الكفر

وله قصيدة يهنيء بها الامير محمد بعودته من طليطلة ، موافقا عيد الاضحى المبارك اولها :

ان القفول الذى اودى بعيدين الخ ..

ولما جدد الامير محمد قصور الرصافة ، التى كان قد شيدها جده « صقر قريش » عبد الرحمن الداخل ، وزينها بجميل الزخارف والكتابات وجعلها من اجمل القصور بهاء ورونقا ، فقال ابن فرناس فيها:

كان قصور الارض بعد تمامه
كتبر له اخفى شخوصا من الدر

فاعجب من اقنائها الغرر التي
يقيم بهن البرد فى دعوة الحر

وتنتشر الابصار منها الى مدى
التنزه بالاطيار والوحش والزهر

كان الذى يخفي الحديث بنجوها
على اخفض الاصوات يشدو على وتر

وكما كان يتحف الامراء بالآلات الدقيقة الصنع، كان يتحفهم بهدايا طريفة نفيسة ، نظم اربعة ابيات، وكتبها بالذهب على تفاحة ، ورفعها الى الامير محمد، اولها :

محمد اكرم مستخلف
من خلفاء الله فى الارض

فسر الامير ، وامر ان يغنى بها ، وكافا ابا القاسم عن كل بيت بألف دينار ، وقال : لو زادنا لزدناه .

كان ابو القاسم مرهف الحس ، واسع الخيال، يستهويه جمال الطبيعة ، وسحرها الخلاب ، دقيق الوصف ، وكيف لا يصف مباهج الاندلس ، ومناظرها الجميلة التى فتنت الكثير من شعرائها ، فابدعوا فى وصفها .

ومما قاله فى صفة روضة :

ترى وردها والاقحوان كانه
بها شفة لمياء ضاحكها ثغر

وقد ابدع فى وصف اشجار النخيل الباسقات ـ الاشجار المباركة التى رافقت العربي اينما حل واستقر ـ نقلوها الى الاندلس وزينوا بها حدائقهم وبساتينهم :

حنايا كامثال الاهلة ركبت
على عمد ، تعتد فى جوهر البدر

كان من الياقوت قيست رؤوسها
على كل مسنون مقيض من السدر

ترى الباسقات الناشرات فروعها
موائس فيها ، من مداولة الوقر

كان صناعا صاغ بين غصونها
من الذهب البادي، عراجين من نخل

نشت لؤلؤا ، ثم استحالت زمردا
يؤول الى العقيان قبل جنى البسر

ووصف الصحراء ووحشتها ، وترامى اطرافها فقال :

موسومة بالبعد ، تحسب سهلها
القى السماء بحولها اطنابا

فكانها دار تقاذف صحنها
لم يجعل الباني لها ابوابا

ومن جميل قوله فى وصف السراب :

يغلقن لجة آله ، فامامها
حاد ، وآخر خلفها لم يلحق

فكان ذا موسى ، وذاك باثره
فرعون ، الا انه لم يغرق

ومن تشبيهاته الجميلة ما قاله فى وصف كوز :

ومعجم لم يبق فى جثمانه
الا حشاشة مهجة لم تزهق

حنيت على كشحيه من برحائه
عضدان : فهو لموثق لم يطلق

حلت عمامة راسه فتضوعت
منا مفارقه ، بمثل الزنبق

وله شعر رقيق يستهوي القلوب ، كقوله :

فبتنا وانواع النسيم ابتذالنا
ولا غير عينيها ، وعيني كالي

الى ان بدا وجه الصباح كانه
جبين فتاة ، لاح بين حجال

وقوله متغزلا :

واحور ما يعفي العيون من الفسق
له كذب في الجد، احلى من الصدق

وللحسن في خديه شمس مقيمة
وبدر كمال لا يحور الى محق

وما العيش الا ميتة الهجر والهوى
باحور ، ما يبقى هواه ، وما يبقي

- 4 -

كان ابن فرناس موسيقيا مبدعا ، ينظم الشعر ، ويضع اللحن ، ويغني به ، ويوقع على العود ، واشتهر بما وضعه من قطع جميلة كانت من نظمه وتوقيعه ، وكان امراء قرطبة يزينون مجالسهم بانشاده وعزفه ، واكثر الامراء حبا له هو الامير محمد ابن عبد الرحمن ، غناه يوما صوتا من نظمه وتلحينه اوله :

الجهل ليل ليس فيه نور
والعلم فجر نوره مشهور

فاجزل له العطاء .

ومما يدلنا على سرعة بديهته في نظم الشعر ، ووضع الصوت المناسب وحسن توقيعه على العود ، ما رواه المرزباني (في طبقات اللغويين والنحويين) فقال :

كان محمود بن ابي جميل غلاما جوادا - وكان عاملا في اخريات ايام الامير عبد الرحمن بن الحكم - فعمل قبة ادم - بلغت النفقة فيها وفي وطائها خمسمائة دينار - فاكملت ضربها على وادي لكة (1)، وصنع ضيفا ، جمع له اصناف الكورة ، ووافق ذلك اطلاع « عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت » ضياعه «بشلونة» فاستجلبه محمود مع بياض الكورة، فشهد وشهدوا، فلما تقضى طعامهم ، وصاروا الى المؤانسة - وعندهم احد بني زرياب - طلع عليهم عباس بن فرناس زائرا لمحمود ، فقام محمود اليه والتزمه ، وسر جميعهم بوروده ، ثم عرض عليه الطعام ، فطعم ، ثم صار الى المؤانسة ، ودفع ابن زرياب يغني :

ولو لم يشقني الظامنون لشاقني
حمام تداعت في الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كان ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

فاستعادوا الصوت اعجابا ، فاعاده .

فلما تقضى غناء ابن زرياب ، مد العباس يده الى العود ، فاخذه وغنى البيتين ، ووصلهما من عنده بديهة فقال :

شددت بمحمود يدا حين خانها
زمان لاسباب الرجاء قطوع

بنى - لمساعي الجود والمجد - قبة
اليها جميع الاجودين ركوع

وكان محمود جوادا ، فقال له : يا ابا القاسم ، اعز ما يحضرني من مالي القبة وهي لك - بما فيها من كسوتي هذه - ونكون في ضيافتك بقية يومنا ، ودعا اليه بكسوة فلبسها ، ودفع اليه كسوته ، وكانوا يومهم كذلك ..

هذه القصة الطريفة عن الفنان ابن فرناس ، تطلعنا على ما كان عليه من النظم الذي يناسب

(1) مدينة غربي الاندلس

المقام ، وانه كان يضع له الصوت ، ويغني بما يعجب المبرزين في الغناء ، بل يفوقهم بذلك

— 5 —

هذا التفوق في الموسيقى والايقاع ، ساعده على حل اصطلاحات كتاب العروض للخليل بن احمد الفراهيدي (100 — 170 هـ = 718 — 786 م) احد مفاخر العرب والاسلام .

ذكر المؤرخون : لما ادخل الى الاندلس كتاب العروض ، للخليل بن احمد الفراهيدي وصار الى الامير عبد الرحمن بن الحكم ، عرضه على علماء قرطبة وادبائها ليوضحوه له ، فعجزوا عن ذلك ، وصار الكتاب مما يتلهى به في قصر الامير ، حتى ان بعض جواري القصر كان يقول لبعض : صير الله عقلك ، كعقل الذي ملأ كتابه من : مما ومما . فبلغ الخبر ابا القاسم بن فرناس ، فتقدم الى الامير ، وطلب اليه اخراج الكتاب اليه ، ففعل ، ولما قراه ابن فرناس وتدبره ، علم انه في علم العروض ، العلم الذي ابتكره الفراهيدي ، وضبط به بحور الشعر العربي ، ففك ابو القاسم غوامضه ، وشرحه لقومه ، فسهل عليهم دراسة هذا الفن الجميل والاستفادة منه .

فنولا براعته في الموسيقى والنغم ، وشعوره المرهف ، وتبصره بالغريب ، واطلاعه الواسع على دقائق هذا الفن — لما سهل عليه حل رموز الكتاب ، وتبسيطه .

— 6 —

فحكيم الاندلس ابن فرناس ، كان **من عباقرة عصره في العلوم ، والمعارف الدقيقة ، والآداب الرفيعة ، والفنون الجميلة .**

عانى صناعة الطب ، فكان من اطباء زمانه ، درس المنطق والفلسفة وعلوم الحكمة وصار من اعلامها، عكف على التجارب في الكيمياء والعلوم الطبيعية واهتدى الى امور خفيت على غيره ، متضلعا بعلم الفلك والنجوم والرياضيات ، وجاء بما ادهش قومه — وكان مع هذا كله — اديبا شاعرا نحويا لغويا ، يتقن وضع الالحان ، ويحسن الايقاع على آلات الطرب، ويطير في الفضاء ، محلقا في جو الاندلس ، ذلك لانه كان بعمله وفنه ، فوق ما عليه قومه ، فخلق في العلم والعمل .

رحم الله ابا القاسم « حكيم الاندلس » فقد كان من اعلام نوابغ الاسلام ، يفاخرون بعلمه وادبه وفنه.

اهم المصادر التي عولنا عليها في هذا البحث :

بغية الملتمس — للضبي
المغرب في حلى المغرب — نشره شوقي ضيف.
جذوة المقتبس — للحميدي .
التشبيهات من اشعار اهل الاندلس — الكتاني.
نفح الطيب — المقري .
الحلل السندسية — ارسلان
معجم الادباء — ياقوت
يتيمة الدهر — للثعالبي .
طبقات اللغويين والنحويين — الزبيدي .
وفيات الاعيان — ابن خلكان
بغية الوعاة — السيوطي
شذرات الذهب — لابن العماد
مقال في العدد 22 من مجلة العربي للاستاذ عنان .
وغيرها من المصادر ..

أعلام اللغة

أحمد فارس الشدياق

الأستاذ محمد حميد بيهم

منذ بداية القرن التاسع عشر برزت في كل من مدينة بيروت ، التي كانت مركزا لولاية تحمل اسمها، ولبنان في عهديه الاقطاعي والمتصرفية الممتازة، برزت نهضة عارمة شملت النواحي الادبية والاجتماعية والسياسية . وكان يرجع مصدرها الى اختلاط هذا الثغر والجبال المشرفة عليه باوروبا وذلك بانتقال بعض رجال الدين المسيحي الى عواصم الغرب ، وبتدفق الارساليات التبشيرية الى هذين البلدين ، وتنافسها في انشاء المدارس والكليات والمطابع ، بالاضافة الى ما تخلل ذلك من قيام الشركات الاجنبية بالمشاريع العمرانية والاقتصادية ، وفي اسفار كان يقوم بها تجار بيروت الى الممالك الاوروبية وغيرها في سبيل التبادل التجاري .

وفي اواخر القرن المذكور كان شعار النهضة اهتماما باللغة العربية وآدابها ، وقد حمل لواءهما ادباء من رجال الدين والدنيا نظموا الشعر وكتبوا المقامات وانشأوا الصحف والمدارس ليس في سوريا فحسب ، وانما في غيرها من البلاد المجاورة ، واوروبا . وعلى قول جاحظ لبنان المعاصر المرحوم مارون عبود احمد فارس الشدياق كان الرجل الاول في هذا البعث الاجتماعي ، وحامل لواء النهضة العربية .

— * —

ولد فارس الشدياق في قرية عشقوت بلبنان سنة 1804 ، ولاحوال سياسية انتقل والده منصور الى قرية الحدث على مقربة من بيروت سنة 1809 فترعرع فيها ، وتعلم في مدرسة عين ورقة . ولما مات والده انكب على المطالعة ، واحترف مهنة نسخ الكتب .

ولما مات اخوه بطرس الذي كان حبيس البطريرك الماروني في دير قنوبين خاف فارس على نفسه فعاف وطنه مغاضبا ، وسافر الى القاهرة ليكون استاذ اللغة العربية عند رجال البعثات الاميركيين . وهناك انكب على دراسة اللغة العربية وعلى الاتصال بالائمة المصريين والعلماء ، فبلغ ابعد اعماقها . ولذلك عهد اليه محمد علي الكبير والي مصر بتحرير جريدة الحكومة : « الوقائع المصرية » .

وفي سنة 1824 ذهب الى مالطة بناء على طلب المرسلين الاميركان ، ولبث في تلك الجزيرة اربع عشرة سنة يعلم في مدرسة هؤلاء ، ويصحح مطبوعات مطبعتهم .

وفي سنة 1848 طلبته وزارة الخارجية الانكليزية من حاكم مالطة ليعاون الدكتور «لي» على ترجمة التوراة ، فلبى طلبها ومكث في لندن عشر سنوات تعرف خلالها باكبر علماء اوروبا وادبائها . وهناك الف كتبه « الواسطة » و«كشف المخبا» و «الفارياق» الذي طبعه في باريس سنة 1855 .

وفي باريس الف واصدر كتبا اخرى ابرزها «سر الليالي» الذي كشف به الغطاء عن عظمة اللغة

العربية . وصادف ان جاء باريس وقتئذ احمد باشا باي تونس ، فمدحه الشدياق بقصيدة كان اولها « زارت سعاد»، ثم بعث بها اليه بعد عودة الباي الى بلاده فاعجب هذا بها ، وارسل يستقدمه الى تونس على سفينة بخارية ليبحر الشدياق عليها هو وعائلته.

وفي تونس غمر الباي الشدياق بنعمه ، وقلده اسمى المناصب، وفضلا عن مديرية المعارف عهد اليه برياسة تحرير جريدة الرائد التونسي . وفي غمرة هذه النعم اعلن فارس الشدياق اسلامه ، واضاف الى اسمه احمدا ، وتكنى بأبي العباس .

وحينئذ ، وقد ذاع صيته في الشرق والغرب ، استدعاه السلطان عبد المجيد العثماني بواسطة الباي. ولما جاء دار السعادة « اسطامبول » رحب به السلطان ، وعهد اليه بادارة المطبعة السلطانية طوال عدة سنوات . وفي سنة 1861 انشأ الشدياق جريدة الجوائب ، فكانت تنطق بلسان الشرق ، ومرجعا للصحف الاوروبية في القضايا الشرقية التي كان يطلق عليها « المسالة الشرقية » . وكانت هذه الجريدة تحمل لواء العرب والعربية الامر الذي افضى الى اسكاتها سنة 1884 .

وفي 1886 زار احمد الشدياق القاهرة ، وهو شيخ ، فاكرمه الخيديوي توفيق باشا ، ونوه بخدماته للشرق افضل تنويه ، ولكنه مع ذلك ظل يحن الى العاصمة العثمانية فعاد اليها ، وقضى نحبه فيها سنة 1887 . وقد احتفل بماتمه احسن احتفال ، واشترك فيه ممثل السلطان ، وصدرت ارادة سنية بدفنه في تربة السلطان محمود ، بينما رثته صحف العالم على اختلاف لغاتها ، ونقل البرق نعيه الى العواصم الاخرى . وقالت عنه جريدة الاجيبشيان فازيت ما يلي : « ضع الكتبة الانجليز سكيث وامرسون وداور دروث ووايكنف وبلويز في شخصية واحدة فحينئذ يمكنك ان تتصور جيدا عظمة احمد فارس الشدياق . ولو ولد الشدياق في اوروبا لدفن مع نخبة العظماء ، ولنصبت له التماثيل في اكثر مدن بلاده . »

ولكن الشدياق (على ما جاء في دائرة معارف البستاني) كان يريد ان لا يدفن في غير مسقط راسه ولذلك فان ولده سليما التمس الاذن بأن يدفن في قرية الحدث عملا بوصية والده . وكان يوم نقل جثمانه الى لبنان من اعظم ايامه، كما كان يوم استقبال جثمانه في بيروت يوما مشهودا اشترك فيه العلماء وعلى راسهم مفتي البلدة ، والاعيان والادباء ، وكانت الرايات والاعلام تمشي امام الجنازة ، ومشائخ الطرق يمشون وراءها يهللون ويكبرون .

وبعد الصلاة عليه في الجامع العمري الكبير ، وسماع المراثي من نظم ونثر (على ما ذكرت جريدة لسان الحال في اليوم التالي نقل جثمانه الى قرية الحدث ، ولكنه لم يدفن فيها ، وانما دفن على مقربة منها في محلة الحازمية على جانب الطريق بين بيروت ودمشق حيث شيدت الدولة له ضريحا مرموقا على نسق مقامات الباشوات والحكام .

— * —

في نهاية عام 1936 اجتمع في بيروت جمهرة من كبار الادباء والصحفيين والاعيان، وقرروا الاحتفال **بيوبيل الشدياق لمناسبة مرور خمسين عاما** على وفاته ، واختاروا لجنة ادارية منهم تتولى اعداد مهرجان كبير لاحياء ذكراه، ولاعادة طبع آثاره . وقد شرفني المجتمعون بانتخابي رئيسا لهذه اللجنة ، ولكن الاسباب التي حالت دون دفن الشدياق في القرية التي ولد فيها ، حالت هذه المرة ايضا دون قيام هذه اللجنة بما عهد اليها .

ونحن نترك الكلام هنا الى اديب لبنان الكبير مارون عبود . فهو قد ختم كتابه « صقر لبنان » الصادر سنة 1950 بفصل اطلق عليه اسم « صرخة في واد » : اورد فيه ما اعترض الاحتفال الخمسيني للشدياق من ملابسات وعقبات . وقال : « عندما ارسلنا الصرخة تلو الصرخة لم نحسب انها جميعا ستذهب في واد . فما اصدرنا بضع مقالات ، في نهاية عام 1936 نذكر فيها العالم العربي باديب النهضة الحديثة ، وواضع حجر الزاوية في بنيانها العلامة الاكبر احمد فارس الشدياق حتى اهاب بنا صوت من بيروت : ان انزل العاصمة ، فهبطنا اليها شاكرين للاستاذ محمد جميل بيهم دعوته الى شربنا فيها الشاي والقهوة ، واكلنا من الحلوى اقراصا مختلفة .

كنا اربعين ، ولكن غير الاربعين الخالدين ، فانتخبنا منا اثني عشر رسولا ... حملناهم الدعوة للشدياق ، وارسلناهم كالخراف ... كانت همتنا عظيمة يوم بدانا ، وتلك عادتنا ، نار هشيم ، ثم تنطفيء . فما ذاقت الدعوة حتى انبعثت الهمم ، واتانا من القاهرة نبأ الدكتور فيليب الشدياق (ابن عم المرحوم) يتبرع بمائة جنيه مصري لعمل تمثال

للفقيد ، وتوالت جلسات اللجنة المختارة حتى خطر ببالها ان تقرع باب الحكومة ، فمثلة فيليب شجعتها ... اما كرم الحكومة فكان حاتميا ... واليك ما كتبته جريدة صوت الاحرار الخطيرة على اثر تلك المقابلة تحت هذا العنوان الضخم « الجمهورية اللبنانية تقدر نوابغها » .. « اوفدت لجنة تكريم امام اللغة العربية وحجتها في القرن التاسع عشر المأسوف عليه احمد فارس الشدياق اربعة من اعضائها : السادة محمد جميل بيهم رئيسها ، والشيخ يوسف زكريا ، وكرم ملحم كرم ، ويوسف يزبك فقابلوا فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ اميل ادة وطلبوا اليه التلطف بقبول جعل المهرجان تحت رعاية فخامته . وقد استقبل اللبناني الاول وفد اللجنة بحفاوة وقال : « انه شخصيا يعطف على مشروعها ويقدره حق قدره ، ولكنه يطلب الى الوفد ان يجتمع بمعالي وزير التربية الوطنية ويتفق معه على تقرير الامر ، عملا بنصوص الدستور ... وذهب الوفد الى معالي الاستاذ حبيب ابي شهلا ، فلقي من وزير التربية الوطنية كل عطف وتشجيع، وقال : انه مستعد لتسهيل مهمة اللجنة بكل ما لديه من الوسائل المادية والمعنوية ، وقد تلطف وشكر اللجنة باسم الحكومة اللبنانية على اهتمامها بتكريم نابغة لبناني من نوابغ الامة العربية ، ووعد بقبول رعاية المهرجان.

وقد بسط لمعالي الوزير منهاج اللجنة لتكريم الشدياق ، ومنه اعادة طبع بعض مؤلفاته ، واختيار مختارات منها ، ثم اقامة تمثال له ، وترميم ضريحه في الحازمية ، وجعل مدة المهرجان اسبوعا كاملا يشترك فيه المستشرقون ، ووفود الاقطار العربية وشعراؤها وكتابها . ولم يفسح معالي الوزير المجال لنوفد لكي يطلب معونة الحكومة ، بل اعلن لزائريه حالا انه سيخصص مبلغا من المال تسمح به حالة موازنة المعارف يكون فاتحة الاكتتاب الذي ستجريه اللجنة لتحقيق منهاجها ، ووعد بأن تشترك مدرسة الصنائع والفنون مع احد مهندسي الحكومة لترميم الضريح ، فخرج الوفد من زيارته شاكرا » .

ومضى عبود يقول :

« راحت وزارة ابي شهلا ، وجاءت بعدها وزارة ابي اللمع ، ثم سقطت هذه وجاءت وزارة ثابت ، ولكن الوزارات لم تكن تحل وتربط ، فمشت القضية على قدم وساق الى الاضمحلال ..

وهكذا ارتخت همة لجنة الشدياق ، اذ علم الاعضاء الكرام ، والرئيس الهمام انهم ينفخون في رماد . »

وهنا اعرب المرحوم مارون عبود عن اسفه على ما اعترض يوبيل الشدياق الخمسيني من عقبات ، ولكنه قال : « فلا باس ان تركنا التمثال للذرية فلعلها تكون خيرا منا فلجنة تمثال بودلير نامت زهاء ربع قرن » .

اما وقد مضى 35 عاما على موعد يوبيل الشدياق الخمسيني توفي خلالها الداعي الاول لهذا اليوبيل ، واشرفت على اللحاق به حين ان احدا من الذرية لم يفكر في الاحتفال بذكرى الشدياق فاني احببت ان اذكر العالم العربي بمجلة «اللسان العربي» المحترمة، بالرجل الفذ الذي خدم هذا اللسان خدمات لم يقم فيها احد سواه في عصره ، ولعل الذكرى تنفع المؤمنين .

تاريخ جامعة الدول العربية

الشيخ طه الولجي "بيروت"

كان عام 1941 بالنسبة للحلفاء مشحونا بالمفاجآت والمتاعب . وفى اثنائه احرزت قوات الالمان انتصارات عسكرية ساحقة على اكثر الجبهات الحربية سواء فى اوربا حيث سقطت فرنسا صريعة تحت اقدام الغزاة وتفشت قوات المحور بقيادة رومل على طول شمال افريقيا حتى الحدود المصرية، وبدا للناس فى كل مكان ان هتلر سيصبح سيد العالم بلا منازع.

وقد ادى هذا الوضع العالمي الى **تحريك المشاعر القومية فى بلاد الشرق العربي** فقامت الاوساط الوطنية المتحمسة باثارة الجماهير للانقضاض على السلطات الحليفة باساليب مختلفة ، بلغت احيانا حد الحركات المسلحة ، كما حدث مثلا فى العراق حيث اعلن الجيش العراقي الحرب بصورة رسمية على القوات البريطانية التى كانت ترابط فى البلاد ، واستولى على السلطة بعد ان اضطر الوصي على العرش وحكومته للهرب من العاصمة بغداد والاعتصام فى البصرة تحت حماية القوات الانجليزية التى كانت عمارتها البحرية قريبة منها .

وعلى الرغم من ان الجيوش الحليفة كانت ولا تزال قادرة على اخماد كل حركة محلية تقوم ضدها،بل هي اخمدتها بالفعل ، بالرغم من ذلك فان الحكومة البريطانية وجدت ان من مصلحتها يومئذ معالجة العواطف الوطنية عند العرب بالتي هي احسن ، فلجأت الى نفس الاساليب التى سبق لها ان اتبعتها فى الحرب العالمية الاولى (1914 ـ 1918) بيد انها فى هذه المرة لم تعتمد على موظفيها العاديين فى البلاد العربية امثال السير هنري مكماهون ، وانما كلفت وزير خارجيتها بالذات ، المستر انطوني ايدن ، باطلاق تصريح سياسي قال فيه :

« لقد خطا العالم العربي خطوات واسعة فى طريق الرقي، وهو يطمح الآن الى تحقيق نوع من الوحدة يجعل منه عالما متماسكا، ويرجو ان تساعده بريطانيا العظمى فى بلوغ هذا الهدف . ويسرني ان اعلن باسم حكومة صاحب الجلالة عن ترحيب بريطانيا بهذه الخطوة وعن استعدادها لمساعدة القائمين بها حالما تتوفر لديها الادلة على تأييد الراي العام العربي لها » .

غير انه بالرغم من المكانة الرسمية التى يتمتع بها المستر ايدن فى حكومته ، فان تصريحه المثير لم يحدث اثره المطلوب فى نفوس القادة العرب . لان هؤلاء كانوا ما يزالون غير مقتنعين بقوة الحلفاء ولا بسلامة موقفهم العسكري ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان العرب على مختلف اوساطهم كانوا غير مؤمنين بصدق نوايا الانكليز الذى سبق لهم ، اثناء الحرب العالمية الاولى ، ان تنكروا لوعودهم وعهودهم التى اسرفوا في اغداقها على الشريف حسين ، امير مكة ، حين استدرجوه للثورة على دولة الخلافة العثمانية الاسلامية . فلما انتصروا على اعدائهم ، لم يتورعوا عن اعتقاله فى جزيرة قبرص ، واحتلال الشرق العربي وتقسيم بلاده فيما بينهم وبين حلفائهم الفرنسيين على ما هو معروف ، ولا داعي لتكراره فى هذه المناسبة .

وكان تصريح المستر انطوني ايدن الاول بتاريخ 29 ايار 1941 . وفي 24 شباط سنة 1943 جاء ايدن بتصريح جديد ، كرر فيه ما كان قد عرضه في السابق من بذل خدمات بريطانيا لمساعدة العرب على تحقيق امانيهم في الاتحاد والتحرر ، وذلك في معرض رده على سؤال وجه اليه من قبل احد اعضاء مجلس العموم البريطاني .

ويبدو ان الظروف في سنة 1943 كانت ، بالنسبة للحلفاء افضل منها في سنة 1941 . نظرا لتحول الموقف العسكري بوجه عام الى صالحهم ، فاستقبل ساسة العرب التصريح الانجليزي الثاني بروح ايجابية ، رغبة منهم في الافادة من هذا العرض البريطاني ، الذي بدا لهم وكانه فرصة ذهبية ، لا يجوز تفويتها على امتهم ولاسيما وان الحلفاء في ذلك الحين ، ارادوا تبديد الشكوك فيما يقولونه ، فانتهزوا فرصة انسحاب قوات المحور وفي جملتها قوات حكومة فيشي التابعة لهم ، من منطقة الشرق الاوسط ، فاعلن ديغول ، رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة اعترافه باستقلال سورية ولبنان ، كما اعلن الانجليز عزمهم على الاعتراف باستقلال امارة شرق الاردن فيما بعد .

وبالفعل كان اول رد فعل لتجاوب العرب مع البادرة البريطانية جاء من قبل الامير عبد الله بن الحسين حاكم شرق الاردن الذي كان اول من اعرب عن استجابته لتصريح ايدن ، معلنا بان العرب سيجتمعون حالا ، لدراسة التصريح المذكور ، والتصرف على ضوء ما تضمنه من عروض ووعود .

وكان الامير عبد الله يرى ان الظرف اصبح ملائما للعمل على تحقيق حلمه في بعث مملكة له تضم البلاد السورية في جميع اجزائها التي اقتسمها الحلفاء فيما بينهم بعد الاحتلال الذي فرضوه عليها في اعقاب الحرب العالمية الاولى . فوجه مذكرة الى الحكومة الانجليزية يناشدها فيها الغاء الانتداب عن شرق الاردن اسوة بالاقطار السورية الاخرى ليتمكن من السعي مع تلك الاقطار للوحدة تمهيدا للملك الذي يطمع به . وايد الامير مذكرته هذه بان ارسل معها صورة عن قرار اتخذه مجلس الوزراء الاردني بتاريخ اول تموز سنة 1941 جاء فيه :

... « ان التصريح البريطاني الاخير على لسان المستر ايدن اولا ، ولسان السير مايلز لمبسون ثانيا ، وكذلك تصريح فرنسا الحرة على لسان الجنرال كاترو . قد قوبلا بالاغتباط والشكر من حكومة سموكم واثاحا لها ، على ضوئهما ان تدرس الموقف السياسي الحاضر في البلاد التي تتالف من سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، وتمثل المجموعة السورية العراقية التاريخية ، وانها لترحب اجمل ترحيب بهذين التصريحين وتسجلهما وتعتبرهما اعترافا بجدارة البلاد السورية بالاستقلال والوحدة ، ودليلا على تقدير بريطانيا العظمى وفرنسا الحرة للمنافع المشتركة التي يمكن ان يضمنها استقلال البلاد العربية السورية ووحدتها للدولتين الحليفتين وللعرب انفسهم سواء في ايام السلم او ايام الحرب. وبناء على هذا الراي ترى (اي الحكومة الاردنية) ان تتفضلوا وتسمحوا لها بالاتصال بالحكومات المشار اليها والتعاون واياها على العمل لتحقيق الغايات الانفة وجمع الكلمة وتوحيد الراي العام ، وانها تستند في اقتراحها هذا الى الامور الآتية :

تضمن تصريح المستر ايدن ان الحكومة البريطانية عظيمة العطف على قضية الاستقلال السوري وانها مستعدة لتاييد السعي الذي يبذله فريق من زعماء العرب لايجاد نوع من الوحدة العربية .. وان ذلك ليعد اكبر تاييد من الحكومة البريطانية واعظم عطف منها على القضية العربية .

ثم تضمن قرار الحكومة الاردنية ، النقاط التي رءاها مبررة لما جاء فيه .

على ان الحكومة البريطانية استقبلت مذكرة الامير عبد الله وقرار حكومته بفتور ملحوظ وكلفت معتمدها في الاردن بالجواب عليه في مذكرة جاء فيها :

« .. ان فخامة المندوب السامي (بفلسطين) قد احال الامر الى حكومة جلالته .. واوعز الي بان ابلغ سموكم رد حكومته بالنص التالي :

« ان المثل الاعلى للوحدة العربية والاستقلال هو مستحوذ على عطف حكومة جلالته التام ، على ان القضية يرجع امرها الى تبصر العرب انفسهم ، عندما يكون الميدان اكثر جلاء مما هو عليه في الوقت الحاضر . اما فيما يتعلق بالقرار الموجود قيد النظر ، فان حكومة جلالته تلزم رايها التاكيد ان كل تقارب من الحكومة السورية او من اية حكومة اخرى من الحكومات ، كالتي تضمها حكومة شرق الاردن

نصب عينها ينبغي ارجاؤه ريثما تغدو الحالة اكثر استقرارا » .

ولم تكن استجابة الامير عبد الله هي الوحيدة التي قوبل بها تصريح ايدن من قبل العرب ، بل ان نوري السعيد قام بدوره بتقديم مذكرة عرفت يومها « بالكتاب الازرق » الى المستر كيزي وزير الدولة البريطانية في الشرق الاوسط ، وقد اعربت هذه المذكرة عن ترحيب العراق بالبادرة الانجليزية التي وردت على لسان المستر ايدن . .

بيان مصطفى النحاس باشا

ان البيانات التي اصدرها المسؤولون في الاردن والعراق لم تترك اي صدى في الدوائر العربية الاخرى لان الوضع السياسي في كلتا الدولتين المذكورتين لم يكن يحظى بتاييد هذه الدوائر ولا برضاها ، فاتجهت الانظار الى مصر كبرى الدول العربية . وفي غضون اسابيع قلائل تناقلت وكالات الانباء ان مصطفى النحاس باشا ، رئيس الحكومة المصرية كلف وزير العدل في حكومته ، المرحوم صبري ابو علم باشا بان يلقي يوم 30 اذار سنة 1943 ، باسمه وبصفة رسمية ، البيان التالي :

« انني من قديم معنى باحوال الامم العربية والمعاونة على تحقيق امالها في الحرية والاستقلال ، سواء في ذلك ، اكنت في الحكم ام خارج الحكم ، وقد خطوت في ذلك خطوات واسعة ، صادفها التوفيق بان اتجه نظام الحكم في بعض الاقطار العربية الاتجاه الشعبي الصحيح . ومنذ اعلن المستر ايدن تصريحه فكرت فيه طويلا ، وقد رايت ان الطريقة المثلى التي يمكن ان توصل الى غاية مرضية ، هي ان تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية ، وانتهيت من دراستي الى انه يحسن بالحكومة المصرية ان تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هذا السبيل ، فتبدا باستطلاع اراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمي اليه من امال كل على حدتها ، ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين ارائها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ثم تدعوهم بعد ذلك الى مصر معا في اجتماع ودي لهذا الغرض ، حتى يبدا المسعى للوحدة العربية كجبهة متحدة بالفعل ، فاذا ما تم التفاهم او كاد ، وجب ان يعقد في مصر مؤتمر برياسة الحكومة المصرية لاكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه المؤتمر من القرارات محققا ما تنشده الامم العربية . »

ويمكن تفسير هذا الموقف السريع والحاسم الذي بادر الى اتخاذه مصطفى النحاس باشا من تصريح المستر ايدن ، بان مصر ارادت ان تدخل الى الحركة العربية من بابها الواسع ، وان يكون لها في هذه الحركة الدور الرئيسي الفعال ، فلا تترك ، لا للامير عبد الله ولا لنوري السعيد الاستقلال باخذ المبادرة في توجيه النشاط العربي سواء من الناحية القومية او من الناحية الرسمية ، وهذا ما يعنيه بالفعل ، تركيز بيان النحاس باشا على ان تتولى مصر بالذات الدعوة لعقد المؤتمر العربي في اراضيها وبرئاسة رئيس حكومتها دون سواه .

ونظرا لمكانة مصر في العالم العربي وفعاليتها في الميدان الدولي العالمي ، فان بيان النحاس باشا احدث تاثيره السريع لدى المحافل العربية ، فاستجابت له الحكومات العربية على الفور وكان اول المستجيبين الحكومة العراقية فاوفدت وزير داخليتها المرحوم تحسين العسكري ومعه جميل المدفعي احد رؤساء الحكومة العراقية السابقين لاجراء مشاورات رسمية مع الحكومة المصرية حول ما جاء في بيان النحاس باشا لاتخاذ الخطوات العملية التي من شانها اخراج فكرته الى حيز التنفيذ . واتفق الطرفان ، مصر والعراق ، على توجيه الدعوة الى الحكومات العربية كي ترسل ممثلين عنها للمشاركة في هذه المشاورات في مؤتمر تحضيري ، يعقد لهذا الغرض في مدينة الاسكندرية . وقد رؤى الاقتصار يومئذ على الدول العربية المستقلة وكان عددها خمسة وهي : سورية والاردن والعراق ولبنان ومصر .

وقد لبت هذه الدول الخمس دعوة الحكومة المصرية لحضور هذا المؤتمر التحضيري وفي جملتها الاردن نفسه ، الذي ارسل موافقته في كتاب حمله الى النحاس باشا نوري السعيد باشا ، جاء فيه :

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ، رئيس الوزارة المصرية الافخم

كتابي هذا الى مقامكم الرفيع مع حضرة صاحب الفخامة نوري باشا السعيد ، وقد زارنا بعمان وسيزور مصر ليرى رفعتكم في القضية العربية التي قد استرعى افكارنا عنها علاوة على ما يعلم فخامته من المبدا القديم الذي سار عليه بيتنا في القضية العربية . واننا لنشكر لرفعتكم على ميلكم للاخذ باليد والعمل على التعاون الاخوي الواجب علينا جميعا في اقطارنا المحبوبة ، واننا حين نكتب كتابنا هذا ، نتمنى لرفعتكم الصحة والعافية والتوفيق في جميع الاعمال » .

مؤتمر الاسكندرية التحضيري

استمر انعقاد المؤتمر الذى دعا اليه النحاس باشا فى مدينة الاسكندرية طوال المدة الواقعة ما بين 25 ايلول و 7 تشرين الاول من سنة 1943 . وفى نهايتها اصدر المؤتمرون بيانا رسميا ، عرف فيما بعد باسم « **بروتوكول الاسكندرية** » ، وجاء فى مقدمة هذا البيان :

« **انبأنا للصلات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين البلاد العربية جمعاء** ، وحرصا على توطيد هذه الروابط وتدعيمها وتوجيهها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ، وصلاح احوالها وتامين مستقبلها وتحقيق امانيها وآمالها ، واستجابة للراي العربي العام ، فى جميع الاقطار العربية قد اجتمعوا (اي المؤتمرون) بالاسكندرية بين يوم الاثنين 8 شوال سنة 1963 الموافق 25 سبتمبر 1943 ويوم السبت 20 شوال سنة 1363 الموافق7 اكتور سنة1943فى هيئة لجنة تحضيرية للمؤتمر العربي العام وتم الاتفاق بينهم على ما يأتي :

اولا : تؤلف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام اليها ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى «مجلس جامعة الدول العربية» تمثل فيه الدول المشتركة فى «الجامعة» على قدم المساواة وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من الاتفاقات وعقد الاجتماعات الدورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء ، بالوسائل الممكنة وللنظر بصفة عامة فى شؤون البلاد العربية ومصالحها . وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها ، فيما عدا الاحوال التى يقع فيها خلاف بين دولتين من اعضاء الجامعة ويلجأ فيها الطرفان الى المجلس لفض هذا الخلاف ، ففى هذه الاحوال ، تكون قرارات « مجلس الجامعة » نافذة وملزمة ، ولا يجوز على كل حال الالتجاء الى القوة لفض المنازعات بين دولتين من دول الجامعة ، ولكل دولة ان تعقد مع دولة اخرى من دول الجامعة او غيرها اتفاقات خاصة لا تتعارض مع نصوص هذه الاحكام او روحها . ولا يجوز فى اية حال اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية او اية دولة منها . ويتوسط المجلس فى الخلاف الذى يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة وبين اية دولة اخرى من دول الجامعة او غيرها للتوفيق بينهما . وتؤلف منذ الآن لجنة فرعية من اعضاء اللجنة التحضيرية لاعداد مشروع لنظام « مجلس الجامعة » ولبحث المسائل السياسية التى يمكن ابرام اتفاقات فيها بين الدول العربية . »

وقد تضمن هذا البيان « البروتوكول » بالاضافة الى فقراته الاساسية قرارين خاصين ، احدهما عن لبنان والآخر عن فلسطين . ويمكن تلخيص المباديء العامة الواردة فى هذا البروتوكول بما يلي :

« **التعاون فى الشؤون الاقتصادية والثقافية** والاجتماعية وغيرها وتدعيم هذه الروابط فى المستقبل » . وجرى التوقيع النهائي عليه فى ادارة جامعة فاروق الاول بالاسكندرية يوم السبت 20 شوال سنة 1363 الموافق 7 اكتوبر سنة 1944 والذين وقعوا عليه هم :

عن مصر :

مصطفى النحاس ، رئيس الحكومة
احمد نجيب الهلالي ، وزير المعارف العمومية
محمد صبري ابو علم ، وزير العدل
محمد صلاح الدين ، وكيل وزارة الخارجية

عن سورية :

سعد الله الجابري ، رئيس الحكومة.
جميل مردم ، وزير الخارجية .
نجيب الارمنازي ، امين السر العام لرئاسة الجمهورية

عن الاردن :

توفيق ابو الهدى ، رئيس الحكومة
سليمان السكر ، سكرتير مالي وزارة الخارجية

عن العراق :

حمدي الباجه جي ، رئيس الحكومة
نوري السعيد ، رئيس سابق للحكومة
ارشد العمري ، وزير الخارجية
تحسين العسكري ، وزير العراق المفوض بمصر .

عن لبنان :

رياض الصلح ، رئيس الحكومة
سليم تقلا ، وزير الخارجية
موسى مبارك ، مدير غرفة رئيس الجمهورية

اجتماع القاهرة والقرار ميثاق الجامعة

ولما كان اجتماع الاسكندرية عبارة عن مؤتمر تحضيري، والبيان الذى انبثق عنه عبارة عن بروتوكول اعدادي ، فان الحكومات العربية التى شاركت فى هذا الاجتماع ووقعت البروتوكول ، كلفت من بينها لجنة فرعية لصياغة مشروع نهائي فى تنظيم المبادىء التى تقوم عليها جامعة الدول العربية وهيكلها الاداري . وقد قامت هذه اللجنة بما عهد اليها وقدمت هذا المشروع بشقيه السياسي والاداري فى غضون مدة قليلة لم تتجاوز الاسابيع الثلاثة ، **وفى 22 «اذار سنة 1945 ، انعقد مؤتمر عربي عام اشترك فيه مندوبون رسميون عن الدول التى سبق لها ان وقعت على بروتوكول الاسكندرية من قبل** ، وقد انضم الى المجتمعين فى هذا المؤتمر مندوبون عن المملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية ، بعد جهود شخصية بذلها عبد الرحمن عزام باشا لدى المرحوم الملك عبد العزيز «ال سعود الذى لم يكن فى ذلك الوقت على علاقة طيبة مع مصر والعراق لاسباب تاريخية معروفة .

وبعد ان ناقش المؤتمرون فى القاهرة المواد التى عرضت عليهم، ادخلوا عليها بعض التعديلات التى راوها ضرورية لنجاح المؤسسة القومية التى يريدون تاسيسها ثم ذيلوا ما اتفقوا عليه بتواقيعهم. وكان ذلك فى قصر الزعفران بالقاهرة يوم الخميس 8 ربيع الثاني سنة 1364 الموافق 22 «اذار سنة 1945 . وكانت الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، بعد ان **الغوا كلمة «بروتوكول الاسكندرية» ووضعوا مكانها عنوانا «اخر وهو « ميثاق جامعة الدول العربية »** . والذين وقعوا هذا الميثاق نيابة عن دولهم هم السادة :

عن سورية :

فارس الخوري ، رئيس الحكومة
جميل مردم ، وزير الخارجية

عن الاردن :

سمير الرفاعي ، رئيس الحكومة
سعيد المفتي ، وزير الداخلية
سليمان النابلسي : نائب سر الحكومة

عن العراق :

ارشد العمري ، وزير الخارجية
علي جودت الايوبي ، وزير العراق المفوض بواشنطن

تحسين العسكري ، وزير العراق المفوض بمصر .

عن المملكة السعودية :

الشيخ يوسف ياسين ، نائب وزير الخارجية
خير الدين الزركلي ، مستشار المفوضية السعودية بمصر

عن لبنان :

عبد الحميد كرامي ، رئيس الحكومة
يوسف سالم ، وزير لبنان المفوض بمصر

عن مصر :

محمود فهمي النقراشي ، رئيس الحكومة
محمد حسين هيكل ، رئيس مجلس الشيوخ
عبد الحميد بدوي ، وزير الخارجية
مكرم عبيد ، وزير المالية
عبد الرزاق السنهوري ، وزير المعارف العمومية

عبد الرحمن عزام ، الوزير المفوض بوزارة الخارجية

اما اليمن فقد ارسلت الى صنعاء نسخة الميثاق حيث وقعها مندوب المملكة المتوكلية اليمنية وبذلك تكون **جميع الدول التى اشتركت فى مؤتمر القاهرة قد وقعت ميثاق الجامعة بلا استثناء .**

يوم 22 «اذار سنة 1945 هو ميلاد جامعة الدول العربية رسميا

تنص المادة العشرون من الميثاق ، وهي «اخر مادة فيه :

« يصدق على هذا الميثاق وملاحقه ، وفقا للنظم الاساسية المرعية فى كل من الدول المتعاقدة وتودع وثائق التصديق لدى الامانة العامة . ويصبح الميثاق نافذا قبل من صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يوما ومن تاريخ استلام الامين العام وثائق التصديق من اربع دول ».

وقد نفذت الدول العربية المتعاقدة مضمون هذه المادة خلال ايام متقاربة ، واودعت حكومات هذه

الـدول وثائـق التصديـق على الميثـاق حسـب الترتيب التالي :

المملكة الاردنية الهاشمية	بتاريخ	10 نيسان 1945
المملكـة المصريـة	بتاريخ	12 نيسان 1945
المملكة العربية السعودية	بتاريخ	16 نيسان 1945
المملكـة العراقيـة	بتاريخ	25 نيسان 1945
الجمهوريـة اللبنانيـة	بتاريخ	16 ايار 1945
المملكة المتوكلية اليمنية	بتاريخ	19 أيار 1945
الجمهورية السوريـة	بتاريخ	9 شباط 1946

وعلى هذا فانه ابتداء من يوم 11 ايار 1945 اصبح ميثاق جامعة الدول العربية نافذ المفعول بشكل رسمي ، غير ان الراى الثقى بالاتفاق على ان يكـون يوم 22 ءاذار 1945 هو الميعـاد الرسـمي لتاسيس الجامعة ، ذلك أن مندوبي الدول العربية المجتمعين في القاهرة وقعوا بمجموعهم تقريبا الميثاق في هـذا اليوم .

ونظرا لاهمية هذا الحدث القومي في تاريـخ الامة العربية ، فقد قررت جميع الدول المشتركـة في الجامعة اعتبار هذا اليوم عيدا قوميا تعطل فيه سائر الدوائر والمؤسسات العامة في بلادها من كل عام .

خـلاصـة الميـثـاق

وميثاق جامعة الدول العربية يقع في عشرين مادة اتفق عليها جميع الذين وقعوا عليه لتكون قاسما مشتركا ضمن الحدود التي تواضعوا على التزامهـا فيما بينهم ، سواء في علاقاتهم بعضهم ببعض او في علاقاتهم مع غيرهم من الدول الاجنبية .

وقد عبرت المادة الاولى من هذا الميثاق عـن طبيعة الجامعة واغراضها ومبادئها اذ نصت انه :

«تتالف **جامعة الدول العربية من الدول المستقلة الموقعة على هذا الميثاق** ، ولكل دولة عربية مستقلة الحق في ان تنضم الى الجامعـة ، فاذا رغبت في الانضمام قدمت طلبا بذلك يودع لدى الامانة العامة الدائمة للجامعة ، ويعرض علـى المجلـس في اول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب » .

كما نصت المادة الثانية على ان :

« الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسيـة تحقيقـا للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظـر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها . كذلك من اغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاونا وثيقا بحسب نظم كل دولـة منهـا واحوالهـا في الشؤون الآتية :

1 ـ الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل فـي ذلك التبادل التجاري والجمـارك والعملـة وامـور الزراعة والصناعة .

2 ـ شؤون المواصـلات ، ويدخل في ذلـك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

3 ـ شؤون الثقافة

4 ـ شؤون الجنسية والجوازات والتاشيرات وتنفيذ الاحكام وتسليم المجرمين

5 ـ الشؤون الاجتماعية .

6 ـ الشؤون الصحية .

مـلاحـق الميثـاق

وبعد ان عددت مواد الميثاق انواع النشاطـات المختلفة التي تقوم بها الجامعة فان منـدوبي الدول العربية الذين اشتركوا في اعداد الميثـاق بصيغتـه النهائية ، كانوا حريصين على تضمينه **ملحقا خاصا بقضية فلسطين** قالوا فيه :

« منذ نهاية الحرب العظمى الماضيـة سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدولـة العثمانيـة ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة ، واصبحت مستقلة بنفسها ، غير تابعة لاية دولة اخرى ، واعلنت معاهدة لوزان ان امرها لاصحاب الشان فيها . واذا لم تكن قد مكنت من تولي امورها ، فان ميثاق العصبة (عصبة الامم) في سنة 1919 لم يقرر النظام الذي وضعه لها الا على اساس الاعتراف باستقلالهـا . فوجودهـا واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية امر لا شك فيه ، كما انه لا شك في استقـلال البـلاد العربية الاخرى . واذا كانت المظاهـر الخارجيـة لذلـك الاستقلال ظلت محجوبة لاسباب قاهرة ، فلا يسوغ ان يكون ذلك حائلا دون اشتراكها في اعمال مجلس الجامعة ، ولذلك ترى الـدول الموقعـة على ميثـاق الجامعة العربية ، انه نظرا لظروف فلسطين الخاصة، والى ان يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا ، **يتولى مجلس الجامعة امر اختيار مندوب عربـي من فلسطين للاشتراك في اعماله** » .

ولقد كان اختيار الشخصية العربية الفلسطينية موضوعا شائكا بالنسبة لاعضاء الجامعة ، وذلك بسبب الاوضاع الصعبة التى كانت تعانيها فلسطين تحت وطأة الانتداب الانجليزي وهموم الخطر اليهودي الذى يهددها بالزوال من خريطة العالم العربي ، وكذلك بسبب غياب زعيمها سماحة السيد محمد امين الحسيني وصحبه من قادة النضال الفلسطيني ، فى المعتقلات والمنافي السحيقة .

غير ان مجلس الجامعة راى الخروج من هذا المازق الحرج بتبني اقتراح قدمه السيد محمد صلاح الدين باشا . وهذا الاقتراح يقضي بتعيين السيد موسى العلمي ممثلا عن فلسطين فى ذلك الحين ، وكان الذى وجه نظر صلاح الدين باشا الى هذا الشخص الاستاذ محمد علي الطاهر المجاهد العربي المعروف . والسيد موسى العلمي الذى كان حينئذ مقيما بمصر هو من رجال فلسطين المثقفين الذين يتمتعون بسمعة مرموقة واسم طيب ، وكان يشغل فى بلده فلسطين ايام الانتداب البريطاني وظيفة مساعد النائب العام .

موضوع الدول العربية غير المستقلة

وكذلك فان ميثاق جامعة الدول العربية لم يشأ ان يحصر اهتمامه بالدول العربية المستقلة ، بل انه تضمن الى جانب الملحق الخامس بفلسطين ، **ملحقا اخر خاصا بالتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة فى مجلس الجامعة** بسبب وقوعها تحت السيطرة الاجنبية كي لا تحرم هذه الدول وما هو فى حكمها من المساهمة فى نشاطات الجامعة داخل لجانها المتعددة . وقد جاء فى الميثاق فى هذا الصدد انه: « نظرا لان الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شؤونا يعود خيرها وائرها على العالم العربي كله ، ولان امانى البلاد العربية غير المشتركة فى المجلس ينبغي ان يرعاها وان يعمل على تحقيقها فان الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنيها بوجه خاص ان توصي مجلس الجامعة عند النظر فى اشراك تلك البلاد فى اللجان المشار اليها فى الميثاق ، بان يذهب فى التعاون معها الى ابعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك بان لا يدخر جهدا لتعرف حاجاتها وتفهم امانيها وآمالها ، وبان يعمل بعد ذلك على صلاح احوالها وتامين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من اسباب » .

اختيار القاهرة مقرا للجامعة

اما بصدد المكان الذي يتخذ مقرا رئيسيا لاقامة امين عام للجامعة بصورة دائمة مع الدوائر الادارية التي تتبع له مباشرة ، فقد رؤى ان يكون فى مدينة القاهرة . وقد روعي فى هذا الاختيار مكانة مصر فى العالم العربي ، وهي المكانة التي تستمد قوتها ونفوذها من الامكانات الضخمة التى تتوفر لهذا القطر الكبير سواء بالنسبة لعدد سكانه او بالنسبة للظروف المعنوية التاريخية التي جعلت منه كيانا قوميا تكاملت له اسباب الزعامة الفكرية عن طريق ما فيه من المؤسسات العلمية الكثيرة، الى جانب الزعامة الدينية عن طريق وجود الجامع الازهر الشريف فى ارضه . وعلى هذا فقد نصت المادة العاشرة من ميثاق الجامعة :

« تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية ولمجلس الجامعة على ان يجتمع فى اي مكان آخر يعينه » .

النص على مصرية الامين العام للجامعة

وتبعا لاختيار مدينة القاهرة مقرا دائما للجامعة، فان اعضاء مجلس الجامعة راوا ان يكون كذلك منصب الامين العام لهذه المؤسسة وقفا على واحد من المصريين ، لا ينازعهم فى ذلك غيرهم من الشعوب العربية . وقد اكد المجلس ذلك بالنص عليه فى الملحق الذي اضافوه فى آخر الميثاق وهو يقضي باسناد هذا المنصب الخطير الى عبد الرحمن عزام باشا نظرا لخبرته فى الشؤون العربية وسابقته فى خدمة العروبة فى مختلف اقطارها وامصارها .

الفوارق الملحوظة بين بروتوكول الاسكندرية وميثاق القاهرة

وما دمنا قد تحدثنا فيما سبق عن ميثاق الجامعة بمواده وملاحقه ، فاننا لا نرى باسا من ان نتناول بكلمة عابرة الظروف والملابسات التي جعلت من هذا الميثاق يختلف فى بعض مواده الرئيسية وملاحقه الاضافية عن البروتوكول الذي اصدره المؤتمر التحضيري فى الاسكندرية عندما اجتمع فى هذه المدينة بدعوة من مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية .

ويمكن القول ان ابرز مواطن الاختلاف بين الميثاق وبين البروتوكول ، تكاد تنحصر في موضوعي لبنان وفلسطين .

ملحق لبنان في البروتوكول

تضمنت الفقرة الرابعة من بروتوكول الاسكندرية قرارا خاصا بلبنان هذا نصها :

« تؤيد الدول العربية الممثلة في اللجنة التحضيرية مجتمعة احترامها **لاستقلال لبنان وسيادته بحدوده الحاضرة** ، وهو ما سبق لحكومات هذه الدول ان اعترفت به بعد أن انتهج سياسة استقلالية اعلنتها حكومته ببيانها الوزاري الذي نالت عليه موافقة المجلس النيابي اللبناني بالاجماع في 7 اكتوبر 1943 » ..

اما الميثاق فقد خلا خلوا تاما من الاشارة الى لبنان ، فلم يذكر هذا القطر فيه لا تصريحا ولا تلميحا، وليس من شك في ان تخصيص لبنان بمثل هذا القرار المستقل من قبل المؤتمرين بالاسكندرية كان بايحاء من المرحوم رياض بك الصلح الذي كان يتمتع باحترام جميع الزعماء العرب في داخل المؤتمر وخارجه ، ولعل المرحوم رياض بك اراد من وراء ذلك تطمين بعض الفئات اللبنانية الانعزالية الى احترام الدول العربية المؤسسة للجامعة لكيان لبنان بصورة رسمية ونهائية ، هذا الكيان الذي لم يكن حتى ذلك الحين يحظى لدى هذه الدول بالقبول والتاييد بسبب ما كان يحيط بنشوئه سنة 1920 من اعتبارات سياسية تتناقض مع الاماني الوطنية عند العرب في ذلك الحين. فلقد اراد المرحوم رياض بك الافادة من المكانة السامية التي كان يحتلها في الاوساط العربية لدعم موقفه الشعبي في نفس لبنان عن طريق بادرته هذه ، وبذلك يصيب عصفورين بحجر واحد، كما يقول المثل السائر، اثبات وجوده عربيا من جهة وتاكيد ولائه الصادق للبنان في حدوده التي خططها الانتداب الفرنسي لدى بعض مواطنيه من جهة ثانية .

ومما ساعد رئيس الحكومة اللبنانية يومئذ على تمرير قراره في صلب النص الرسمي لبروتوكول الاسكندرية ان هذا القرار وجد هوى واستجابة في نفوس زملائه المؤتمرين الذين راوا الفرصة سانحة امامهم لحل « **العقدة العربية** » التي كانت تنهش اعصاب فريق من اهل «متصرفية جبل لبنان» القديمة، وتثير في نفوسهم الشك والريبة بكل ما هو عربي او يتصل بالعروبة من قريب او بعيد ! ..

بيد ان المؤتمر التحضيري الذي تحول في القاهرة الى مجلس جامعة الدول العربية راى اغفال هذا القرار في ميثاقه كي لا يكون في هذا الميثاق نتوءات نفسية او ثغرات قومية ، توحي بالتفرقة بين دولة عربية واخرى . واكتفى اعضاء المؤتمر بتاكيد المبادىء العامة التي تشمل الدول العربية المستقلة جميعها ، على سوية واحدة من الاعتبارات الوطنية.

فلسطين وبروتوكول الاسكندرية

اما بالنسبة الى فلسطين فان بروتوكول الاسكندرية كان قد خصصها في فقرته الخامسة بقرار مستقل جاء فيه :

1 ـ ترى اللجنة ان **فلسطين ركن مهم من اركان البلاد العربية وان حقوق العرب لا يمكن المساس بها من غير اضرار بالسلم والاستقرار في العالم العربي** ، كما ترى اللجنة ان التعهدات التي ارتبطت بها الدولة البريطانية والتي تقضي بوقف الهجرة اليهودية والمحافظة على الاراضي العربية والوصول الى استقلال فلسطين هي من الحقوق الثابتة التي تكون المبادرة الى تنفيذها خطوة نحو الهدف المطلوب نحو استتباب السلم وتحقيق الاستقرار . وتعلن اللجنة تاييدها لقضية عرب فلسطين بالعمل على تحقيق امانيهم المشروعة وصون حقوقهم العادلة . وتصرح اللجنة بانها ليست اقل تالما من احد لما اصاب اليهود في اوروبا من الويلات والآلام على يد بعض الدول الاوربية الديكتاتورية ، ولكن يجب ان لا يخلط بين مسالة اليهود بأوربا بظلم آخر يقع على عرب فلسطين على اختلاف اديانهم ومذاهبهم .

2 ـ يحال الاقتراح الخاص بمساهمة الحكومات والشعوب العربية في « صندوق الامة العربية » لانقاذ اراضي العرب في فلسطين الى لجنة الشؤون الاقتصادية والمالية لبحثه من جميع وجوهه وعرض نتيجة البحث على اللجنة التحضيرية في اجتماعها المقبل .

وعندما اجتمعت هذه اللجنة التحضيرية في قصر الزعفران بالقاهرة واصدرت بيانها « ميثاق جامعة الدول العربية » يوم 22 آذار 1945 ، جاء نص الملحق الخاص بفلسطين مخالفا جملة وتفصيلا للقرار الذي

تضمنه البروتوكول بهذا الصدد ، اذ روعي في نص الميثاق عن فلسطين ، ان يدور في العموميات الغامضة التي لا تلزم اعضاء الجامعة باية مبادرة محددة من اجل انقاذ فلسطين من الاخطار الاستعمارية والصهيونية التي كانت تهدد كيانها بالزوال والتي ازالته بعد ذلك بالفعل .

وقد اثار هذا الغموض في قرار فلسطين بالميثاق يومئذ تساؤلات كثيرة رددتها الصحف على السنة بعض القادة والزعماء الوطنيين . على ان هذه التساؤلات بقيت دون اي جواب من قبل المسؤولين العرب ، والتعليق الوحيد الذي صدر في حينها حول هذا الموضوع هو ما نسب الى الامين العام السيد عبد الرحمن عزام باشا من « الخواجات عاوزين كده » . .

وطبيعي ان هذا الجواب المنسوب الى عزام باشا ابقى علامة الاستفهام عالقة حيث هي في اذهان المتسائلين لان عبارة « الخواجات عاوزين كده » لم تحمل اليهم الجواب الذي كانوا يتوقعونه . وكل ما حصل هو ان الظنون اتجهت الى ان المقصود « بالخواجات » هم الانكليز ، الامر الذي جعل الناس غير مطمئنين الى جدية الكلام الوارد في الميثاق بصدد قضية فلسطين والذي يؤسف له ان الايام قد كشفت فعلا فيما بعد ان سوء ظن الناس كان في محله ! .

الصفة القانونية والوضع الدولي لجامعة الدول العربية

بعد ان قدمنا جامعة الدول العربية في اطارها القومي العام واغراضها الوطنية المختلفة ، فانه يجدر بنا أن نقدم هذه المؤسسة الهامة من خلال مفهومها القانوني سواء في علاقاتها الرسمية باعضائها من الدول العربية او فيما كانت تقوم به عن طريق امينها العام من اتصالات مع حكومات الدول الاجنبية والمؤسسات العالمية كهيئة الامم المتحدة واللجان المتفرعة عنها .

والملاحظ ، ان الذين وضعوا ميثاق الجامعة بما فيه من مواد او ملاحق او تنظيمات لم يحاولوا تحديد وضعها القانوني لا عربيا ولا دوليا ، وذلك على الرغم من أن البحث في هذا الوضع اثير اكثر من مرة واستغطب اهتمام الدول الاعضاء واستدرجهم الى كثير من الحوار والمناقشات الجدلية التي تميزت بالحدة والعنف . الا أن الاعضاء كانوا يدورون دائما حول الحمى دون ان يرتعوا في صميمه ، او ينتهوا منه الى راي حاسم يجمع عليه كافة الفرقاء المعنيين . واخيرا تركوا البحث في هذا الموضوع تاركين للزمن مهمة البت في الوصف القانوني لمؤسستهم لتفادي الحرج والانقسام والفشل فيما اخذوا انفسهم به لا سيما بعدما سمعوا زميلهم الاستاذ هنري فرعون، وزير خارجية لبنان يعلن قائلا: « عندما نعطي كيانا قانونيا للجامعة تصبح لها الشخصية الدولية ، ونفس البروتوكول لا ينص على ذلك ، فاذا اردتم موافقتنا فلنترك هذه المسالة » .

وهكذا يمكن القول بان شخصية جامعة الدول العربية من الناحية القانونية بقيت غير واضحة ولا محددة المعالم ، مما حمل اهل الدراية في الفقه السياسي والتشريع الدولي على ان يعتبروها مجرد مؤتمر دائم للدول العربية يرمي الى القيام بمهام خاصة ومحددة ، وعلى انه « ليس لهذه الجامعة شخصية كاملة في السيادة والاستقلال سواء في الداخل او في الخارج » . وهذا هو الراي الذي تشبث باعتماده مندوب لبنان الاستاذ هنري فرعون وعلق بقاء حكومته في الجامعة على اساسه .

الجامعة العربية وعلاقاتها الدولية والعالمية

هذا فيما يتصل بالشخصية القانونية للجامعة في المحيط العربي البحت . اما فيما يتصل بصفتها القانونية في المحيط الدولي والعالمي ، فان اوار الجدل حول هذا الموضوع لم يكن أقل احتداما عنه في صدد الموضوع السابق . ذلك ان بعض الحكومات العربية وفي طليعتها لبنان كانت تصر دائما على ان تنفي عن الجامعة الصفة القانونية التي تخولها حق التكلم باسمها في المحافل الدولية كهيئة الامم المتحدة ، او عن طريق المراسلات الرسمية مع الدول الاجنبية الاخرى . وكانت معارضة هذه الحكومات قائمة على ان القول باعتبار الجامعة العربية هيئة اقليمية يتعارض ومبدا السيادة القومية لكل دولة من دولها على حدة .

وهنا لا بد من القول بان الحكومة اللبنانية كان لها يومئذ النصيب الاوفر في معارضة الصفة القانونية الدولية للجامعة ، وعندما كان عبد الرحمن عزام باشا يقوم في امريكا بجولة دعائية لصالح القضية المصرية اثناء نظرها في مجلس الامن التابع لهيئة الامم المتحدة، نقلت جريدة المصري عن لسان الاستاذ هنري فرعون قوله :

« بما انه ليست للجامعة اية شخصية قضائية (لعله يريد قانونية لانه لا يحسن العربية السليمة) فان امينها العام لا يخرج عن كونه موظفا كبيرا اداريا . ومن الواضح انه ليست له اية صفة لبذل مثل هذا المسعى على حساب الجامعة . وتعتبر هذه الجامعة بمثابة مؤتمر دائم للدول العربية ، وان الدول العربية تعرب عن آرائها بواسطة حكوماتها ووزرائها المفوضين » .

على انه مما يثير الدهشة والاستغراب ان موقف لبنان من هذه المسألة كان يناقض بعضه بعضا حتى في نفس الحكومة الواحدة ، اذ بينما كان رأي وزير خارجية لبنان كما بينا آنفا . فان رئيس الحكومة اللبنانية المرحوم عبد الحميد كرامي في ذلك الوقت ، نجده عند نظر قضية جلاء القوات الفرنسية عن سورية ولبنان يصر ، وفي مجلس الجامعة بالذات بأن : « لبنان يتمسك بتمثيل الجامعة في كل مؤتمر يعقد بين الدول الكبرى لعلاج هذا الامر ! »

اما مندوب سورية المرحوم سعد الله بك الجابري فقد ذهب في الاعتماد على قانونية الوجود الدولي للجامعة الى ابعد مدى حين قال : « ان سورية تؤثر ان لا تمثل هي وممثل مجلس الجامعة » .

وبالفعل فان المجلس قد اصدر يوم 5 يونيو 1945 بناء لطلب مندوبي سورية ولبنان قرارا متضمنا هذا التمسك بتمثيل الجامعة وتفضيله على تمثيل الدولتين صاحبتي الشأن المباشر ، وكان هذا القرار باجماع آراء الدول الممثلة في المجلس، **وهو اعتراف اكيد وصريح بالصفة القانونية الدولية للجامعة .**

والواقع ان جامعة الدول العربية كانت تعتبر نفسها ذات شخصية دولية غير مشكوك في قانونيتها . وقد كان امينها العام عبد الرحمن عزام باشا يمارس نشاطه ويقيم اتصالاته وعلاقاته مع الحكومات الاجنبية والمنظمات الدولية من خلال هذا الاعتبار . وعندما بحث مجلس الجامعة في اجتماعه العادي الخامس قضيتي ليبيا وفلسطين مع كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية، فان هاتين الدولتين تخاطبتا رسميا ومباشرة مع جامعة الدول العربية في موضوع هذين البلدين .

على انه في 13 حزيران 1946 حسم الجدل حول هذا الموضوع ، اذ اصدر مجلس الجامعة المنعقد في بلودان قرارا يوصي فيه الدول العربية بان تطالب الحكومة البريطانية بالاعتراف بجامعة الدول العربية صراحة ، وان تعتبر ما يوجهه اليها الامين العام ، ضمن حدود الميثاق صادرا من الجامعة بوصفها هيئة اقليمية قائمة بذاتها .

وبالفعل فان حكومات الدول العربية عملت على التو بهذه التوصية التي سرعان ما لقيت **استجابة رسمية من بعض الدول الاجنبية** ، فاعلنت الحكومة البريطانية على لسان وزير خارجيتها في ذلك الحين : « ان الحكومة البريطانية ستعترف رسميا بالمخابرات الخاصة بالموضوعات السياسية والتي توجه من قبل جامعة الدول العربية ، وسيوجه الرد عنها الى الامين العام للجامعة ، بنفس الطريق الذي اتبع في ارسال الخطاب المجاب عليه » . وتعني البيان بان هذا الكتاب الرسمي من طرف الوزارة البريطانية يعني اعتراف هذه الحكومة بكيان الجامعة وصفتها القانونية . حتى ان الحكومة الاسبانية لم تكتف بالاعتراف الشكلي بالصفة الدولية لجامعة الدول العربية، بل انها تجاوزت ذلك الى مدى ابعد ، وتقدمت الى مجلس الجامعة عبر مذكرة رسمية تلتمس فيها معاونتها في محيط السياسة الدولية وتاييدها في مواقفها السياسية عندما تدعو الحاجة الى ذلك .

اعتراف هيئة الامم المتحدة بالكيان الدولي للجامعة

هذا ، ولم يقف الاعتراف بالشخصية القانونية لجامعة الدول العربية عند حدود الحكومات الاجنبية وحسب ، بل ان هيئة الامم المتحدة نفسها ، قد اعترفت هي الاخرى بهذه الشخصية وذلك عندما اقرت جمعيتها العمومية اقتراحا قدم اليها بدعوة من المجلس الاقتصادي والاجتماعي الى النظر في انشاء لجنة اقتصادية للشرق الاوسط واعترفت فيه « بان تعاون اللجنة مع الهيئات الاقليمية في الشرق الاوسط « كالجامعة العربية » من شانه ان ييسر للجنة مهمتها»

وعلى الرغم من ان قرار هيئة الامم المتحدة الذي اصدرته جمعيتها العمومية ، فسر يومها بانه نوع من الاعتراف « الواقعي » بالجامعة ، الا انه على اي حال يعتبر اعترافا ضمنيا بالشخصية الدولية لهذه المؤسسة الاقليمية . وقد ذكر عبد الرحمن عزام باشا في حديث نشرته له جريدة « الحياة » البيروتية في عددها الصادر يوم 23 آذار 1969 ان الجمعية العمومية للامم المتحدة اتخذت سنة 1950 قرارا بقبول الجامعة كمنظمة اقليمية تخدم اهداف الامم المتحدة في الشرق الاوسط .

وايا ما كان ، فان **جامعة الدول العربية ما لبث ان اصبحت عربيا ودوليا ذات شخصية قانونية قائمة بذاتها** رغم ان المندوب اللبناني أصر على اعتبارها بمثابة مؤتمر يجمع الحكومات العربية للتشاور فيما بينها فى درس القضايا الخاصة بالعرب مما يعرض عليه.

الجامعة تتصرف على انها هيئة قومية اقليمية

وان الجامعة ، قد تصرفت فعلا على انها هيئة سياسية اقليمية ، من ذلك انها تقدمت الى مجالس الوزراء بالدول العظمى عبر مذكرات متعددة تبين فيها وجهة نظرها فى مصير ليبيا وتطلب الاشتراك بهذه الصفة فى اى لجنة تحقيق يمكن ان ترسل اليها لتعرف رغبات سكانها فى تقرير مصيرهم . وطالب الحكومة البريطانية باتخاذ الاجراءات اللازمة لوقف هجرة الايطاليين غير المشروعة الى البلاد الليبية .

وبعثت بمذكرتين الى الجمهورية الفرنسية ، احداهما بشان تحرير المرحوم محمد المنصف باي تونس الذي كان اسيرا فى فرنسا واعادته الى عرشه الذي اغتصب منه بغير حق ، والاخرى بشان اطلاق سراح المرحوم الامير محمد عبد الكريم الخطابي زعيم ثورة الريف بمراكش الاسبانية . كما انها قامت بجهود خاصة فى سبيل منع تنفيذ احكام الاعدام التي اصدرتها الحكومة الفرنسية بالجزائر بحق عدد من المجاهدين الجزائريين سنة 1945 . وكذلك ارسلت مذكرة اخرى الى فرنسا تطالبها فيها بتنفيذ التزاماتها كدولة تدير اقاليم لا تتمتع بالحكم الذاتي مما هو منصوص عليه فى ميثاق هيئة الامم المتحدة . وايضا فان الجامعة قامت بالتوسط لدى الحكومة البريطانية لدعوة الهيئة العربية لفلسطين الى الاشتراك فى مؤتمر لندن ، واتصلت بهيئة الامم المتحدة بشان تحديد موعد اجتماع اللجنة المؤقتة للجنة الصحية للامم المتحدة عند انعقادها فى جنيف بسويسرا .

بل ان الجامعة لم تكتف بالاتصالات العالمية التي قامت بها لصالح قضايا الشعوب العربية فى مختلف اقطارها ، بل انها تجاوزت فى نضالها الديبلوماسي هذا النطاق القومي فاصدرت قرارا بتوصية الدول الاعضاء بهيئة الامم المتحدة بالاعتراف بالجمهورية الاندونسية عندما حصلت هذه البلاد على استقلالها وتخلصت من الاستعمار الهولندي . وهكذا ...

الجامعة توصي بانشاء جيش موحد للدفاع عن البلاد العربية

عندما تعرض مجلس الجامعة لبحث الاعتداء الفرنسي على سورية ولبنان 1945 ، اقترح المرحوم توفيق السويدي تزويد هذين البلدين بجيش عربي مشترك لمساندتهما فى الدفاع عن كيانهما الوطني ، وقد علق عبد الرحمن عزام باشا يومئذ على هذا الاقتراح بالتحبيذ وقال : « ان هدف الجامعة العربية هو ان تكون فى المستقبل مسئولة عن الامن داخل نطاق دول الجامعة وتستمد هذه السلطة من نفسها ومن شعوبها . وقد يقرها مجلس الامن الدولي على ذلك ، وسياتي اليوم الذي يكون فيه للدول العربية قوة دولية كافية لتامين الامن فى نفس هذه الساحة .. مستندة الى مجلس الامن نفسه ! » .

محكمة عدل عربية تابعة للجامعة

وقبل ان ناتي على ختام هذا الحديث فانه لا بد لنا من الاشارة الى ان المرحوم رياض بك الصلح سعى سعيا حثيثا لاجل انشاء « محكمة عدل عربية » فى صلب تنظيمات الجامعة العربية، تكون مهمتها النظر من الناحية القضائية فى النزاعات التي يمكن ان تقوم بين الدول الاعضاء فى هذه الجامعة ، وذلك من اجل تحديد الحالة القانونية للدول المتنازعة . على نحو ما هو متبع فى محكمة العدل الدولية فى لاهاي بهولندا ، غير ان هذه الفكرة الجليلة لم يكتب لها الخروج الى حيز التنفيذ وطوي البحث فيها بعد اغتيال المرحوم رياض بك فى سنة 1951 .

الدكتور أسعد عومد "دمشق"

ابطر الصهيونيين فشل العرب عام 1948 ، فى القضاء على احلامهم فى اقامة دولة لهم فى قلب العالم العربي ، فى البقعة المقدسة فلسطين ، وزاد فى جرائهم نجاح مدوانهم على مصر عام 1956 ، اذ اشتركت معهم فى المعركة دولتان كبيرتان هما انكلترا وفرنسا ، بينما ترك العرب مصر لمصيرها ، تواجه العدوان لوحدها .

وبلغت النشوة والخيلاء بالصهيونيين حد الجنون اثر ظفرهم ، غدرا وغيلة ، بالعرب فى معركة حزيران 1967 فاستخفوا بالعرب وقدراتهم على الحفاظ على ما تحت ايديهم من ارض وتراث ، فانطلقت من افواه المسؤولين الصهاينة اصوات وصيحات ، تفصح بوضوح ودون تورية او تمويه ، المخطط الصهيوني البعيد المدى ، من ضم والحاق وتوسيع على حساب الارض العربية . ولم يستبعدوا التفكير فى الاعتداء على الاماكن المقدسة الاسلامية فى الحجاز .

اما القدس فقد اعتبر الصهاينة امرها منتهيا ، فامروا باحراق المسجد الاقصى ، الذى يمثل احد المقدسات الكبرى للعالم الاسلامي ، غير مقيمين وزنا لرد فعل العرب ، ولا لغضب المسلمين المنتشرين فى اصقاع الارض . اذ كانوا يريدون ان ينتهوا ، وباسرع ما يمكن، من القضاء على كل ما يربط العرب والمسلمين بالقدس ، والارض المقدسة فلسطين ، ليسهل عليهم امر ترحيل من تبقى من العرب فى القدس والمدن الفلسطينية الاخرى ، الى البلاد العربية .

وكان القادة الصهاينة واثقين من انه لن يصدر عن العرب والمسلمين رد فعل جدي، لاحراق المسجد الاقصى ، وان الرد لن يكون اكثر من احتجاجات وصيحات لن تلبث ان تهدا ، ولن يكون لها على الصهاينة اثر ولا ضرر .

وكان موشي ديان هو القائد الصهيوني الذى داعبت الاحلام الخادعة اجفانه ، بل يقترن اسمه فى التاريخ بتحقيق دولة (اسرائيل الكبرى) ، والقضاء على كل اثر للعرب والاسلام فيها . وان نصر حزيران الرخيص الذي حققته قيادته على العرب ، قد فاق جميع تقديراته وآماله ، فظن أن ما حلمت اسرائيل بتحقيقه ، على مدى اجيال وقرون ، اصبح ، بعد نصر حزيران ، امرا سهل المنال قريب التحقيق ، فطمع بان يكون هو ذلك البطل المحقق لاحلام قومه .

واندفع ديان وعصابته فى مغامراتهم ، وجرائمهم، التي بلغت ذروتها فى احراق المسجد الاقصى ، ليعجموا عود العرب والمسلمين ، وليجربوا رد فعلهم ، حتى اذا وجدوه هزيلا ضعيفا ، عادوا الكرة لاحراقه بشكل تام ونهائي .

وفى الواقع كان رد فعل العرب والمسلمين ضعيفا، لا يتناسب وقدسية المكان الذي اشعل الصهاينة فيه النار ودنسوه. ولكن يجب ان نعترف للامانة والحقيقة، بان العرب انفسهم ـ اصحاب المصلحة المباشرة فى ارض فلسطين ، وفى الحفاظ على قدسية المسجد الاقصى ـ لم يحسنوا الافادة من هذه المناسبة ، ولم يحسنوا

عرض قضيتهم ، ولم يعرفوا ما يريـدون بالضبط من وراء دعوة اقطاب المسلمين الى مؤتمـر الرباط . وفى اعتقادنا انهم لو اتبعوا صيحة الجهاد التي اطلقوها، بتنظيم جدي لايفاد متطوعة ومحاربيـن من العالـم الاسلامي ، لرأينا اليوم زحوفا تتلوها زحـوف من الابطال المستميتين ، يتدفقون على ميدان المعركة ، من كل ارض انطلقت من مآذنها صيحة (الله اكبر) ، ملبين داعي الجهاد المقدس ، ليقضوا على العدو الذي دنس مقدساتهم ، أو لينالوا اجر الشهداء على الارض المقدسة فى المعركة المقدسة .

ان الصهيونيين يستمدون على العرب كـل من يستطيعون ، باسم الدين ، وباسم القومية ، وباسم المصالح الاقتصاديـة والسياسيـة .. الخ ، لا يفرطون فى عون يأتيهم وان صغر . ونحن نستبعد عونا كبيرا ، بل معينا من العون لا ينضب ، كان يمكن ان يكون فى كفتنا، وكان يمكن ان يؤثر تأثيرا فعليا وحقيقيا على اولئك الذين يدعمون اسرائيل ، ويمكنون لها ، لو اننا احسنا التصرف ، وعرفنا ما نريد ، الا وهو **عون العالم الاسلامي** ، ذي المصلحة الحقيقية فى ان لا يكون فى المنطقة خطر يهدد مقدسـات الاسـلام فى فلسطين والحجاز .

وعلى كل حال فقد كان لاحراق المسجد الاقصى، ولتصريحات زعماء اسرائيل وتهديداتهم فائـدة اذ فتحت عيون العرب على حقيقة ما يراد بهم ، وعرفتهم بحقيقة وضعهم ، الذي يغري الاعداء بهم . فادركوا انه ما لم يتم **تضامن حقيقي بين الدول العربية**، بانتظار قيام وحدة بين اقطارهم ، تستطيع اقامة دولة عصرية وجيش مدرب قادر على استيعاب العلـم الحديـث والسلاح الحديث ـ فانهم لن يستطيعوا رد الطامعين بهم ، وستبقى حفنة من المغامرين ، تستخف بهـم ، وتستهزيء بهم وتتحداهم فى كل يوم وفى كل ساعة، وتضربهم فى عقر دارهم كلما شاء لها ان تلهو بذلـك

وقد كانت اول بادرة للتضامن تصدر عن العرب، وتشعر برفض هذا الواقع المؤلم ، هي **الاجتماع فى مؤتمر الخرطوم** ، الذي عقد اثر النكسة ، على دعـم الامكانيات المادية والعسكرية لدول المواجهـة مـع العدو ، وعلى **رفض التفاوض** مع العدو ، وعلى رفض الصلح معه . وتلت ذلك ثورتان فى ليبيا والسودان ، كان من شأنهما وضع امكانيات القطرين الشقيقين فى الميزان العربي الفعلي فى المعركة المصيرية .

ولا شك فى ان السعي الجدي لتحقيق التنسيق والتقارب بين مصر وليبيا والسـودان ، ستتلـوه خطوات اخرى نحو الوحدة بين الاقطار الثلاثة ، تجعل تلك المنطقة المتلاصقة ، التي تضم قرابة خمسة ملايين كيلومتر مربع من الارض وخمسين مليونا من البشر ، كتلة واحدة فى المعركة ، ونواة تستقطـب الاقطـار العربية الواحدة بعد الاخرى ، لتجمـع شملهـا من جديـد .

واننا لا نشك فى ان التصريحات الوقحة التـي صدرت وتصدر كل يوم ، عن قادة العنصريين فى اسرائيل ، والتى تكشف عن نواياهـم واهدافهـم واطماعهم التوسعية ، وان تدنيسهـم للمقدسـات الاسلامية والمسيحية فى القدس والخليل وبيت لحـم والناصرة ، واعتداءاتهم المتكررة على الوطن العربي ، ستكون بدء النهاية بالنسبة لهذا الجسم الغريب الذى اريد زرعه فى جسم الامة العربية ، ويوم ينهار هـذا الكيان القائم خلافا لمنطق التاريخ ، ولعقلية العصر ، سينال القادة المغامرون جزاء وفاقا على ما اقترفوه بحق الانسانية والمقدسات من جرائم .

وليس زعماء اسرائيل هم اول من طرا على هذا الارض وحاول تدنيس مقدساتها ، والاساءة الى شعوبهـا ، وليس موشي ديان وعصابته هم اول المغامرين الذين اغراهم التفرق ، والنزعات العارضـة بين شعـوب العالمين الاسلامي والعربي ، بالاستطالة على العرب والمسلمين وعلى مقدساتهم ، وبالسخرية من قدراتهم، وامكاناتهم فى رد الاذى والحاق الهزيمة بالمعتدين . **فمنذ قرابة ثمانمئة عام حل فى جنوبي البحر الميت ، مغامر صليبي غادر** ، غرته انتصارات عارضة ، حققها الصليبيون على المسلمين فى المنطقة ، فظن ان بامكانه تدنيس المقدسات الاسلامية فى مكة والمدينة ، كما دنس من سبقوه المقدسات الاسلامية فى القدس والخليل ، واتخذوا من المسجد الاقصى ومسجد الصخرة مربطا للخيول ومهجعا للجنود .

وكان من نتيجة ذلـك ان فتحت جرائم ذلـك المغامر عيون العرب والمسلمين على حقيقة الخطـر المحدق بهم وبمقدساتهم فى المنطقة كلها ، وادركوا انه ما دام هناك مستقر لجسم غريب فى ارضهم ، فلا امن ولا سلام ولا اطمئنان ، فتحركت ارتال تتلو ارتالا من المجاهدين ، من كل ارض من اراضي الاسلام ، ملبية دعوة الجهاد ، تقاتل وتحارب ، حتى كانت معركـة حطين ، التي دفع ذلك المغامر قومه الى خوضها وهم

لها كارهون ، فوقع فى يد صلاح الدين اسيرا ، فلم يعف عنه ، لا نه اعتبره مجرما ، وقاطع طريق ، ولم يعتبره محاربا يحترم قوانين الحرب .

ومنذ ذلك اليوم ادرك الصليبيون ان دولتهم قد اصبحت فى حكم المقضي عليها بالزوال ، وتابع من خلفوا صلاح الدين المهمة التي بداها ذلك البطل ، حتى قذفوا بآخر الصليبيين فى البحر ، بعد مائة وعشر سنين من الحروب المتواصلة من يوم حطين .

وها نحن نسوق قصة ذلك المغامر الصليبي (ارناط) أو (رينودوشا تيون) لعلها ان يكون فيها عظة للعرب ، وعبرة للمغامرين .

— ارنـــاط —

تدفقت سيول الصليبيين على المشرق عام 1097 م (490 هـ) تريد ـ استجابة لنداء الكنيسة ـ استرجاع القدس من أيدي المسلمين ؛ ووجد الامراء المغامرون فى اوروبا الفرصة سانحة ، فتبنوا المشروع لعلهم يفوزون بامارات واقطاعات فى الشرق ، مستغلين حماسة البسطاء والسذج ممن دفعتهم الحماسة الدينية لتحقيق رغبات الكنيسة . وكان من بين اولئك الامراء المغامرين ، أمير نورمندي الاصل استقر اباؤه فى جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، وكان من نصيبه فى الميراث أرضا صغيرة فى جنوبي ايطاليا لا ترضي اطماعه الواسعة ، فاسرع بوهمند اوبيمتد كما تسميه الرواية على راس من تجمع تحت لوائه ، ينضم الى الجيوش الصليبية فى الجانب الشرقي من مضيق البوسفور .

وبعد حروب واهوال وفظائع ومذابح ، تمكن ثلاثة ارباع المليون من الصليبيين من شق طريقهم الى سوريا، وكان اول ماحتلوه فيها، مدينة انطاكية، التى دافع عنها حماتها المسلمون اشرف دفاع واشجعه طوال عشرة اشهر . ولولا الخيانة التى اقرت احد القادة الداخلين حديثا فى الاسلام ، لما تمكن الفرنج من احتلالها ، ولتبدل سير التاريخ كله فى المنطقة .

وطمع بوهمند فى ان يقيم لنفسه امارة فى انطاكية وخاف رفاقه ، القادة الاخرون ، ان تفسد اطماع بوهمند خططهم الرامية الى التعاون مع الامبراطور البيزنطي ، اسحق كومنين ، وضرب المسلمين بقوة صليبية بيزنطية موحدة . وكان الامبراطور قد اخذ العهود والمواثيق على القادة الصليبيين بان يعيدوا اليه ما يحتلونه مما كان تابعا فى الماضي للامبراطورية البيزنطية ، وخصوصا انطاكية .

ولكن بوهمند لم يكن يفكر فى غير مصالحه الخاصة، فرفض الاستماع الى النصائح والاعتراضات ، وتمكن بحيله ومداوراته ، من الفوز بامارة انطاكية،رغم معارضة بعض زملائه .

وسار الامراء الصليبيون الاخرون جنوبا ، واقام كل منهم امارة لنفسه ، فكانت هناك مملكة فى القدس، وامارة فى طرابلس ، وامارة فى الرها (اورفه) .

واصبح بوهمند بلاء على المسلمين من جيرانه، وكان اكثر ضغطه منصبا على حلب المجاورة لانطاكية ، ثم اسر بوهمند من قبل الغازي ابن الدانشمند ، امير التركمان فى الاناضول ، ولكن لم يلبث ان فاوضه واطلق سراحه لقاء فديه كبيرة ، فعاد بوهمند يتابع اعتداءاته نحو من حوله من المسلمين والبيزنطيين .

ونقم البيزنطيون على بوهمند حنثه بيمينه ، وانكاره لحقهم فى السيادة على انطاكية ، فاغتنموا فرصة هزيمة الفرنج ـ وفيهم بوهمند ـ فى معركة حران عام 1104 م،واسرعوا يحثون الخطا نحو كيليكيا واللاذقية التابعتين لامارة بوهمند . فخارت قوى بوهمند وشعر بالخطر الشديد المحدق به . فعهد بالامارة الى ابن اخته تانكريد ، وذهب الى اوربا ، ليستثير حملة صليبية اخرى ، هدفها انقاذ انطاكية من خطر المسلمين والبيزنطيين . ولكن بوهمند ذهب ولم يعد ، وتزوج هناك من أميرة فرنسية رزق منها بولد يعرفه التاريخ باسم بوهمند الثاني .

وفى الفترة بين ذهاب بوهمند الاول الى اوربا ، ووصول بوهمند الثاني الى الشرق ، تعاقب على انطاكية اميران نورمنديان ، احدهما يدعى تانكريد ، والاخر روجيه ، وقد قضى المسلمون على روجيه وعلى جيشه فى معركة البلاط على الطريق بين حلب وانطاكية .

وفى عام 1128 م ، وصل الى انطاكية بوهمند الثاني ، وهو شاب فارغ الطول ، قوي البنية ، جميل الملامح ، قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، واتقن استعمال السلاح ، حتى بلد اقرانه به . وما هو الا ان تسلم امارة انطاكية حتى تزوج باليس الابنة الثانية لملك القدس بودوان الثاني ، وباشر الاغارة على جيرانه المسلمين ، ومباغتة الحصون القريبة من

اراضيه ، فحقق بعض النجاح ، وقد زاد ذلك النجاح المحدود فى صلفه وغروره .

وفى يوم من ايام شهر شباط (فبراير) 1131 ، اتجه بوهمند من انطاكية الى كيليكيا ، على راس قوة من فرسانه ، يريد ان يلحق به الامارة الارمنية ، بعد ان توفى صاحبها وابنه ، فانقض عليهم جيش من التركمان بقيادة الغازي بن الدانشمند (آسر بوهمند الاول عام 1101 م) ، واحاط بهم احاطة تامة ، وانهال عليهم رميا بالنبال ، فخروا على الارض صرعى ، وكانهم اعجاز نخل منقعر ، وفيهم بوهمند نفسه .

ولم يترك بوهمند من الاولاد غير بنت صغيرة لا يتجاوز عمرهاالسنتين، اسمها (كونستانس) فتسلمت امها الاميرة (اليس) ادارة الامارة ، تحت وصاية ملك القدس .

ومرت الايام ثقالا على الاميرة الشابة فى ادارة امارة واسعة ، يطمع بها جيرانها البيزنطيون من الشمال ، والمسلمون من الشرق . وكان خطر المسلمين قد اصبح مقلقا فعلا ، اذ تسلم امارتي الموصل وحلب امير شهم ، بعيد الهمة ، قوي العزيمة، هو عماد الدين زنكي ، وقرر ان يخوض بالمسلمين حربا ضروسا مع الفرنج ، ليزيل ما تجمع فى نفس المسلمين من هيبة للفرنج فى ميدان الحرب . فسار بجيشه الى حصن قريب من حلب ، هو حصن الاتارب ، الذي طالما ارعب فرسانه اهل حلب ، وخربوا زروعهم ، ونهبوا اموالهم .

وتجمع الفرنج للدفاع عن الحصن ، وسال زنكي رجاله ماذا يرتأون . فاشار عليه بعضهم بالانسحاب من الارض التي يحتلها العدو ، والعودة الى حلب ، واشار عليه آخرون بالتراجع الى اراضي حلب ، فاذا لحق بهم الفرنج ، امكنهم انشاب المعركة فى ارض اسلامية.

وكان زنكي قد قرر فى نفسه خوض المعركة مهما كانت النتائج ، فقال لرجاله ، ان الفرنج قد استطالوا على المسلمين كثيرا ، وقد اصبح مالوفا لديهم ان يروا تراجع المسلمين واحجامهم عن القتال كلما راوا تجمع الفرنج ، ولذلك فانه يرى ان يذيق المسلمون بأسهم للفرنج ، ليذكروا ذلك فى المستقبل ويقدروه . وانه يرى ان اي تراجع امام الفرنج سيجرئهم ، ويضعف من عزيمة المقاتلين المسلمين . وخلص من ذلك الى القول بانه يرى ان يقدم المسلمون للقاء العدو مصممين على النصر ، وما النصر الا من عند الله .

وتقدم المسلمون ، وقضوا على الجيش الصليبي واكثروا فيه القتل ، حتى ذكر ابن الاثير ، انه مر فى ارض المعركة ليلا ، بعد اكثر من سبعين عاما ، فقيل له ان عظام القتلى الفرنج ما زالت منتشرة فى تلك الارض . وعاد المسلمون الى حصن الاتارب فتسلموه من الفرنج ، فاخربوه حتى سووا بناءه بالتراب ، لكيلا يتركوا اثرا يرمز الى الرهبة فى قلوب اهل حلب ، ومن حولهم من المسلمين .

وخافت الاميرة الشابة على ملكها ، فاخذت تراسل زنكي سرا ، وتضع نفسها تحت حمايته، فاساء ذلك الفرنج الذين تسربت اليهم انباء اتصالاتها بالمسلمين . واخذ الجميع يفكرون فى وسيلة يتمكنون بها من ابعاد الاميرة (اليس) عن حكم انطاكية ، وقد وجدوا ان خير الوسائل لذلك هي البحث عن زوج للاميرة الطفلة الوارثة (كونستانس) .

ووجدوا لها اخيرا شابا جميلا من نبلاء فرنسا ، هو الكونت (ريمون دوبواتيه) فقدم الى انطاكية على انه سيكون زوجا للاميرة (اليس) ، لكي يامنوا معارضتها فى دخول ريمون الى انطاكية .

ولم يمض وقت طويل حتى فوجئت الاميرة بعقد قران ريمون على ابنتها كونستانس ، فانسحبت الى اللاذقية .

تسلم ريمون دوبواتيه ادارة انطاكية ، نيابة عن زوجته ، وكان فارسا نجدا ، ولكن خصائصه ومميزاته ضاعت **امام حنكة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود** ، الذي خلف اباه فى حكم حلب ، فى عام 1146م فانتزعا من الفرنج جميع ما كانوا يحتلونه شرقي العاصي ، كما انتزعا منهم جميع امارة الرها .

وفى 29 حزيران (يونيو) 1149 م ، ظفر نور الدين محمود بجيش انطاكية ، عند قرية (اثب) (القريبة من جسر الشغور) واباده تقريبا ، وكان ريمون بين القتلى . فاصبحت كونستانس وصية على ابنها بوهمند .

وقد شعرت الاميرة ، لاول مرة ، بعد موت زوجها بلذة الحكم . وسر البطريرك لشعورها هذا ، فاخذ يشجعها على عدم الزواج مرة اخرى ، لكيلا

يأتي امير جديد يقضي عليه بالاقتصار على عمله الديني وحسب .

وحاول ملك القدس ـ وهو ابن خالة كونستانس ـ أن يجد لها زوجا يحرره من مسؤولية الاشراف على انطاكية ، ويستطيع النهوض باعباء الدفاع عنها في تلك الايام العصيبة من تاريخ امارات الفرنج في الشرق ؛ فلم تقبل الاميرة بزوج ، وآثرت الاستمرار في حياتها طليقة من قيود الزواج .

وسارت الامور سيرها العادي ، ونور الدين محمود يلح على ما بيد الفرنج من مدن وحصون ، في كل يوم ، وقلوب الفرنج في انطاكية وفي غيرها ، ترتجف هلعا ، كلما نظروا الى المستقبل المظلم .

لقاء الاميرة (بارناط)

وفي ذات يوم من أواخر عام 1152 ، لمحت الاميرة الشابة فارسا يدل زيه على انه حديث عهد بالوصول الى الشرق ، فاعجبت به واستدعته اليها ، وتعرفت عليه ، فزاد اعجابها به . ولم يكن ذلك الشاب غير المغامر رينو دوشاتيون (او ارناط كما تسميه الرواية العربية) الذي سيجر الممالك الصليبية كلها الى الهاوية في معركة حطين ، وهو الذي سيجره غدره ومحاولاته العبث بالمقدسات الى الموت بيد الرجل الرحيم صلاح الدين الايوبي .

وتكررت مقابلات الاميرة والفارس الفتى ، حتى أغرمت به واتفقت معه على الزواج ؛ ووجد المغامر الجريء في هذا الغرام فرصة تحقق له اكثر مما كان يطمع به ويحلم ، فلم يشأ ان يضيعها . وكان لا بد ـ بحسب التقاليد ايام النظام الاقطاعي ـ من الحصول على موافقة ملك القدس ، بودوان الثالث على الزواج ، بصفته الوصي الشرعي على الاميرة وعلى الامارة ، وكان بودوان اذ ذاك منهمكا في حصار ميناء عسقلان في جنوبي فلسطين ، وعسقلان هي آخر ما تبقى بيد الفاطميين من ملك في فلسطين ـ فطار اليه الفارس المغامر ، يرجوه الموافقة على الزواج .

وعجب الملك من غرابة اطوار ابنة خالته ، كيف تقبل الزواج من شاب مغمور ، لا ثروة له ولا جاه ، بينما سبق لها ان رفضت الزواج بخيرة الامراء والنبلاء الذين عرضوا عليها في الماضي ؟ مع انه كان من الممكن ان يكون في ثراء هؤلاء النبلاء ، ونفوذ بيوتاتهم ، واتساع املاكهم ، خير عون لامارة انطاكية ، وللممالك الصليبية في الشرق ، في حربهم الشروس المستمرة منذ خمسين سنة . ولكن الملك الذي يئس من موضوع زواج (كونستانس) ، اراد ان يتحرر من اعباء الدفاع عن انطاكية ، فوافق على الزواج ، بعد ان جثا (ارناط) على قدميه ضارعا متوسلا .

تم الزواج الاسطوري ، وتسلم ارناط حكم انطاكية فساسها بعقلية المغامر الفظ ، وكان أول ما استهل به عهده في الحكم ، هو الانتقام من بطريرك انطاكية (ايمري دو لبموج) .

لقد كان البطريرك شيخا هرما يوم تم الزواج ، وكان يشارك الاميرة مشاركة فعلية في ادارة الامارة ، فاستمرأ الحكم والسلطة وسر بهما ايما سرور ، لذلك وجد من مصلحته ان تبقى الاميرة دون زوج ، تدير الامارة ، ليكون هو الحاكم الفعلي ، والموجه الاول ، تصدر الامور في انطاكية عن رايه ونهيه .

ولما تم الزواج فوجيء البطريرك به ، فامتعض وساءه ان يصبح تابعا لجندي مغمور ، ليس له من الميزات غير غرام الاميرة الطائش به ، فاطلق لسانه فيه ، واظهر له الاحتقار والازدراء ، وهو لا يعلم ان عدوه الجديد لا تقف قسوته عند حد .

قسوة ارناط وغدره

وسرعان ما تطور الصراع بين الرجلين ، فامر ارناط بالقبض على البطريرك ، وجلده في الساحة العامة حتى ادمى جلده ، ثم امر به فشد الى وتد ، وهو عاري الجسد ، تحت اشعة الشمس اللاهبة ، وطلي جلده بالعسل ، لتتجمع عليه الحشرات والهوام ، تلسعه وتشرب من دمه .

وقد استاء الناس في انطاكية من هذه الوحشية ، التي يعامل بها اميرهم الجديد رجلا هرما له مكانته الدينية في نفوس الناس ، وله فضله في الدفاع عن انطاكية ، في ايام الشدة ، بعد مصرع ريمون دو بواتيه ووصلت انباء هذه المعاملة الفظة الى ملك القدس ، فاوفد على جناح السرعة رسولا ، يستنكر عمل رينو ويستفظعه ، ويأمره باطلاق سراح البطريرك ، ففعل . ثم بدا لارناط أن يتفاهم مع الامبراطورية البيزنطية لمحاربة امراء الارمن في كيليكيا ، لعله يفوز بشيء من اراضيهم ، ولكنه سرعان ما انقلب على البيزنطيين ،

وتفاهم مع الارمن على محاربتهم ، واعد ارناط وطوروس امير الارمن حملة مشتركة على جزيرة قبرص ـ وكانت مقاطعة بيزنطية ـ فلم يشعر اهل الجزيرة الا والقوات الصليبية والارمنية تهبط فى اراضيهم وتنكل بهم .

وقد ارتكبت القوات الغازية من الفظائع والقبائح ما تقشعر لهوله الابدان ، فصلمت آذانا ، وجدعت انوفا ، وهتكت اعراضا ، ونهبت اموالا لا يحصيها عد. وعاد المغامران وايديهما مثقلة بالسبي والغنائم .

طمع ارناط وانانيته افشلا مخطط الصليبيين لاحتلال شيزر

كانت شيزر قلعة حصينة تقوم على الضفةاليسرى للعاصي ، وقد اعجز الصليبيين احتلالها ، بفضل دفاع امرائها ، آل منقذ وبفضل موقعها الجغرافي ، ومتانة اسوارها . وفى عام 1157 م ، ضربت هزة ارضية مدن سوريا فاخربت اكثرها ، وكان الخراب الذى اصاب شيزر كبيرا ، وكال آل منقذ قد تجمعوا فى قصرهم لحضور حفل فيه ، فانهار عليهم القصر ، ولم ينج منهم غير اسامة الذى كان منفيا خارج شيزر، وغير امراة وطفل منهم ، اخرجا من تحت الانقاض .

وفى ذلك العام ، واثر الهوة التي الحقت الدمار بالمدن السورية ، وقع امير سوريا وبطلها نور الدين محمود مريضا ، حتى اشفى على الموت ، فبدا للصليبيين ان يغتنموا الفرصة ، ليحتلوا شيزر ، ويثبتوا اقدامهم فى حوض العاصي من جديد .

وبدا للملك بودوان الثالث ان يحتل ما يمكن احتلاله من اواسط حوض العاصي ليسلمه الى الكونت (تيري دوفلاندر) يقيم له امارة فيه ، تفيد من الامكانات الضخمة التي يتمتع بها بيت الكونت وامارته فى فرنسا ، وبذلك يستطيع تخفيف العبء الثقيل الذي اصبحت تنوء به الامارات القائمة فى الشمال ، بعد القضاء على امارة الرها .

وفى اوائل تشرين الاول (اكتبر) من عام 1157 م تجمع حول شيزر جميع الامراء الصليبيين ، مع جيش ارمني يدعمهم ويعمل معهم ، وانضم اليهم الكونت تيري دو فلاندر ، ومن معه من الفرسان القادمين للحج والنجدة .

وشرع المحاصرون فى نصب آلاتهم ، وقذف الاسوار بالمجانيق ، وبعد مدة قصيرة من الحصار ، اقتحم الفرنج اسوار البلد واحتلوها ، فلجأ المدافعون عنها الى القلعة وتابعوا دفاعهم .

وعرف ارناط بما ينتويه بودوان من تسليم شيزر وما حولها للكونت دوفلاندر ، فاستاء من ذلك واعترض على هذه الفكرة ، مدعيا ان شيزر وما حولها تدخل فى نطاق المجال الحيوي لانطاكية وان على تيري ، اذا تسلم امارة شيزر واواسط العاصي ، ان يكون تابعا له حسب التسلسل الاقطاعي . واستاء تيري بدوره من هذه الفكرة ، فانه لم يكن يخطر له على بال ، وهو المتحدر من اعرق البيوتات واكرمها ، ان يدين بالولاء والطاعة لمغامر افاق حمله الحظ الى كرسي الامارة ، واعلن رفضه لما اقترحه ارناط . واشتد الخلاف فى المعسكر الصليبي حتى كاد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه، فلم يجد بودوان بدا من رفع الحصار والانسحاب من شيزر لكيلا يكون احتلالها سببا فى نشوب حرب اهلية بين الصليبيين .

خضوع الجبناء

استاء الامبراطور مانويل كومنين ، اشد الاستياء من هجوم ارناط وزميله الارمني على قبرص ، ومن الفظائع التي ارتكبها ، ولكن ظروف الامبراطورية ، وما كانت تواجهه من مشاكل فى اوروبا ، لم تكن تسمح له اذ ذاك بالتفكير فى معاقبة المجرمين .

ولكن بعد ان تحرر الامبراطور من الكثير من مشاغله ، تحرك فى عام 1158 م ، على راس جيش كبير الى كيليكيا ، فسحق امارات الارمن فيها ، واستولى على امهات المدن ، واقام معسكره قرب المصيصة بانتظار تحركه لمعاقبة ارناط .

وعلم هذا بما ينتويه الامبراطور ، فجزع جزع الجبناء المجرمين ، وخارت قواه ، وشل تفكيره ، ولم يعد يعرف ما يصنع ، بعد ان ادرك ان جرائمه قد اسلمته لمصيره ، وانه لن يجد بسببها ، معينا له فى محنته . وبينما كانت هواجس ارناط تعذبه وتقص مضجعه ، لا حت لاحد المقربين منه فكرة ، وجد فيها الفرج والخلاص ، وهي : لماذا لا يخرج ارناط الى معسكر الامبراطور تائبا معتذرا ، ويضع نفسه تحت رحمته وتصرفه ، ويعلن له الاعتراف بطاعته والتبعية له . ؟ فقد سبق لوالد الامبراطور أن عفى عن ريمون

دوبواليه ، واكتفى بالاعتراف بالتبعية والولاء ، ورفع علم الامبراطورية على قلعة انطاكية .

وبدت الفكرة لارناط اخاذة . فانه اذا استطاع ان يدفع العقاب عن نفسه ، وان يؤجل احتلال انطاكية ولو الى حين ، يكون قد حقق كسبا لا يستهان به . فقرر السير بنفسه الى المعسكر الامبراطوري، وارسل قبله رسولا من رجال الدين ، يمهد السبيل ، ويلطف الجو . وتمكن الرسول،بحذقه ودهائه وجميل امتذاره من تهدئة ثائرة الامبراطور ، ومن تخفيف نقمته على ارنـــاط .

ووصل ارناط الى المصيصة ، وكان عليه ان يجتاز المدينة كلها ، ليصل الى المعسكر الامبراطوري، فترجل عن فرسه ، وخلع نعليه، ولبس قميصا يكشف عن ذراعيه حتى المرفقين ، وامسك بسيفه من مقدمة النصل ، ليقدم قبضته الى الامبراطور ، وسار وهو على هذه الحالة المزرية ، من الذل والاستخذاء في شوارع المصيصة ، التي اصطف الناس فيهـــا على جانبي الطريق ، ليتفرجوا على هذا الجبان الذليل الغادر المتقلب .

ورضي الامبراطور ، ما تم من خضوع ارناط ، واكتفى بالاعتراف بتبعية الامارة له والسماح له باقامة حامية بيزنطية في قلعة انطاكية ، كرمز لاثبات حقه .

أســـر المغامـــر

وبعد ان رحل الامبراطور عن كيليكيا ، تنفس ارناط الصعداء ، ونسي ما لقيه من ذل ومهانة ، وعاد يتابع حياته المعتادة ، حياة المغامر الشريـر . وفي يوم من ايام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1160 م ، علم ارناط ان قطعانا كبيرة من الماشيـــة ترعـــى في السهول الواقعة بين عينتاب ومرعش ، وان هـــذه القطعان لا تحرسها قوات اسلامية ، وكانت القطعان في اكثريتها يملكها ارمن ويونانيون من سكان المناطق التي استرجعها المسلمون من الفرنج حديثا ، ولكـــن ارناط لم يكن يهمه من يملك القطعان ، وانما الـــذي يهمه ان يحقق مغنما ، دون ان يتعرض لخطر قتال .

وبينما كان الرعاة آمنين مطمئنين ، انقض عليهم ارناط وفرسانه ، فاسروهم ، واستاقوا قطعانهـــم فرحين بما حققوه من كسب . ولكن فرحتهم لم تطل كثيرا ، اذ ان انباء الهجوم الغادر ، وصلت الى نائب نور الدين في حلب ، مجد الدين ابي بكر بن الدايـــة ، فاستنفر قواته، وطار بها ليقطع الطريق على المغامرين.

وعلم ارناط وصحبه بخروج المسلمين اليهـــم ، فخاف اصحابه ، ونصحـــوه بان يتخـــلى عن المغنـــم الضخم ، وان ينســـحب عائدا الى انطاكية . ولكن ارناط اراد ان يتظاهر بالجراة الكاذبة امام صحبه ، فرفض الفكرة ، وامر فرسانه بسوق القطعان ، بين صفين من الجند ، وان يحثوا الخطا الى انطاكية ، وسار هو مع قوة من رجاله في الساقة ليحميها ويدافع عنها .

وبينما كان ارناط وصحبه يسيرون مسرعين قرب قرية الجومه ، شمالي غربي عزاز ، انقض عليهم فرسان حلب، وفتكوا فيهم فتكا ذريعا،وقتلوا اكثرهم، وجبن الاخرون فاستسلموا ، وكان بين المستسلمين ارناط . ونجا قليلون هاربين ، يخبرون فرنج انطاكية بانباء المعركة ومصير ارناط .

والقى ابو بكر بارناط وصحبه على ظهور الجمال، وكانهم بعض المتاع ، ودخلوا بهم حلب، فاسرع الناس يتفرجون على هذا المشهد الذي لم يعد يثير فضولهم كثيرا ، لكثرة ما تكرر منذ ان تولى عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود امور حلب . ووصلت الجمال باحمالها امام قلعة حلب التاريخية ، فانزلت الاحمال، واستيق ارناط الى سجنها ليقضي فيه ستة عشـــر عاما من حياته الشقية .

وبعد ان توفي نور الدين محمود ، موحد سوريا ومصر ، كان ابنه الملك الصالح ، صغيرا ، فاختلف الامراء من حوله ، ايهم يكفله ، ليبسط سلطانـه على الدولة . وتحرك صلاح الدين نائب نور الدين في مصر، يريد اثبات حقه في تولي رعاية ابن سيده . وجـــرت بينه وبين امراء سوريا المشرفين على الملك الصالح، حروب ووقائع ، انتصر فيها صلاح الدين ، ووصل في زحفه المظفر الى حلب ، فحاصرها .

ولم يجد متن بحلب من الامراء وسيلـــة لدفـــع صلاح الدين عنهم ، غير الاتصال بالفرنج ، فتحـــرك ريمون الثالث ، امير طرابلس ليهاجم حمص ، كمـــا تحرك فرنج انطاكية . وليثبت امراء حلب للفرنج حسن نواياهم ، واخلاصهم في التعاون معهم ، اطلقوا في عام 1176 م سراح من كانوا في سجن حلب من الفرنـــج ، ومنهم ارناط .

وكانت امارة انطاكية قد تولاها وارثها الشرعي، بوهمند الثالث ، فلم يجد المغامر مكانا له في انطاكية ،

وتابع سيره الى القدس . وهناك تعرف بأرملة اخرى هي (اتين دوميللي) ، ارملة (اونفروادو تورون) (ابن الهنفري كما تسميه الرواية العربية) . وكانت هذه الارملة قد ورثت امارة شرقي الاردن ، التي يقوم فيها حصنا الكرك والشوبك ، فاعجبت هي به ، واعجب هو بمالها واملاكها ، التي تحتل افضل مركز جغرافي، يسيطر على طريق القوافل ، المتنقلة بين سوريا ومصر والحجاز ، فعقدا زواجهما حوالي عام 1177 م .

لم تكن الظروف مواتية لآمال ارناط واطماعه في المغامرة ، حينما كان زوجا لاميرة انطاكية . اذ كانت انطاكية محصورة بين مملكة نور الدين في الشرق ، وبين الامبراطورية البيزنطية في الشمال . وكانت انطاكية اقرب المواقع الصليبية الى حلب ، وحصونها الغربية ، فلم يكن في مقدور ارناط ان يندفع وراء مغامراته كما يحلو له ، دون ان يكون معرضا لخطر الانقضاض عليه من المواقع الاسلامية المحدقة بارض انطاكية . وقد راينا كيف ان فرسان حلب كانوا اسرع من ارناط ، فاعترضوا سبيل عودته بالغنائم الى انطاكية واسروه .

كما ان الانضباط الذي كان يفرضه ملوك القدس على الامارات الصليبية الاخرى في المشرق ، كان سببا من اسباب كبح جماع المغامرين من الامراء ، والزامهم بالمعقول من التصرفات .

ولكن ما لم يكن ممكنا القيام به من المغامرات في انطاكية عام 1160 م ، اصبح ممكنا كل الامكان القيام به في جنوبي شرقي الاردن عام 1180 م ، فالملك بودوان الرابع ، اصبح ملك القدس ، وكان مصابا بالجذام ، وحالته ميئوس منها ، وقد ضعفت الملكية، واصبحت موضع مساومة ومنازعات بين الطامعين في السيطرة على الملك .

وفي المملكة الاسلامية كانت الظروف قد تغيرت هي ايضا ، فقد مات الرجل الحديدي الارادة ، نور الدين محمود ، واصبحت خلافته موضع نزاع بين الطامعين في ان يخلفوه ، **حتى تمكن صلاح الدين بعد كثير من الجهد من تثبيت اقدامه** ، وفرض سلطانه على المنشقين عليه .

اما من الناحية الجغرافية فان موقع قلعتي الكرك والشوبك ، في قلب الصحراء بعيدا عن عواصم المسلمين ومراكز تجمع قواتهم ، يجعل المغامرات اكثر ربحا ، واقل تعرضا للاخطار .

واذا فقد كان زواج ارناط من اميرة قلاع شرقي الاردن ، يحق جميع الشروط المناسبة والملائمة لانطلاق مغامراته من جديد .

واخذ ارناط يبث عيونه وارصاده من الصليبيين ومن بدو الصحراء ، ليرصدوا تحرك القوافل ، ويعلموه بها فيقوم بالاغارة عليها ونهبها وسبي من فيها ، دون ان يخشى مفاجاة من جيش اسلامي قريب .

وتكررت اعمال ارناط ، وعادت عليه الاعمال بالارباح الوفيرة ، فزاد ذلك في جرائه ، وفي اطماعه ، والمسلمون لا يستطيعون الوصول اليه ، كما لا يستطيعون ان يتخلوا عن سلوك طريق الصحراء ليصلوا من سوريا وما وراءها الى مصر والحجاز .

ثم جرت اتصالات بين ملك القدس وبين صلاح الدين ، لتحقيق هدنة، تريح الجانبين من عناء الحروب المتواصلة ، وقد كانت الهدنة ضرورية لصلاح الدين، ليتفرغ الى تسوية مشكلات مملكته ، واستكمال وحدتها وكانت الهدنة اكثر ضرورة للصليبيين ، الذين انهكتهم الحروب ، وقلصت رقعة اراضيهم ، واخربت ما تبقى منها في ايديهم ، كما كانت ضرورة لهم لتسوية خلافاتهم الداخلية ، وخصوصا الخلافات بين افراد البيوتات الحاكمة ومشاكلها العائلية ، والخلاف بين منظمتي الداوية والاسبتارية .

وحينما تحققت الهدنة كان من المفروض ان تشمل مملكة القدس ، باماراتها المختلفة ومنها امارة شرقي الاردن التي يحكمها ارناط . وانصرف كل من الجانبين الى تسوية اموره مطمئنا الى قدسية العهود والمواثيق .

ولكن هذه الهدنة لم ترق لارناط ، الذي اعتاد على تحقيق المكاسب والمغانم عن طريق العدوان على القوافل العابرة في الصحراء ، فاضمر في نفسه الغدر، وعدم التقيد بها . واخذ يتحين الفرصة ، المناسبة للغدر، فقد تكون الهدنة اكثر كسبا له. وبالفعل كانت.

ففي صيف عام 1181 م ، علم ارناط ان قافلة اسلامية كبيرة جدا ، قدرت الروايات ثمن ما فيها بمئتي الف دينار تسلك الصحراء مطمئنة الى الهدنة ، في حراسة عدد قليل من الرجال ، فاستعد للاستيلاء عليها .

ولما اصبحت القافلة قريبة من قلعته ، نزل من فيها يستريحون من وعثاء السفر ، وباتوا ليلتهم هناك،

فلم يشعروا الا وارناط ورجاله ينقضون عليهم ، ويمعنون فيهم قتلا وأسرا ، فنجا منهم من سبق فرسه ، ووقعت القافلة فى ايدي ارناط . ووصل الناجون من رجال القافلة الى دمشق يقصون على صلاح الدين اخبار الغدر الفرنجي ، فانزعج صلاح الدين وادرك ان وجود قلاع صليبية على الطريق بين شقي مملكته ، امر بالغ الخطورة ، وانه لا بد من القضاء عليها اذا اريد للمملكة ان تزدهر وتتماسك .

وانزعج الصليبيون فى القدس كثيرا ، وخصوصا الملك بودوان الرابع ، الذى الح عليه المرض وانهكه ؛ فقد تعود اسلافه تشريف تعهداتهم ، والحفاظ على عهودهم ، كما تعودوا ان يثقوا بعهود المسلمين ومواثيقهم ، وأسرع يكتب لارناط يلومه على هذا الغدر الذي يظهر الصليبيين بمظهر الغادرين الذين لا يتقيدون بعهد ولا ميثاق . وطلب اليه ان يعيد ما وقع بايديه من الغنائم الى المسلمين ، وان يطلق سراح الاسرى . فسخر ارناط من الملك ، واعلن رفضه الاستجابة للطلب . فعاد الملك وارسل اليه وفدا من رجال الدين ، ومن فرسان الاسبتارية، يلحون عليه فى ضرورة اعادة الاسرى والغنائم ، الى المسلمين ، للابقاء على الهدنة القائمة ، فلم يكن رد ارناط على الوفد بافضل من رده الاول . وسخر من الملك ومن سلطانه عليه .

واراد صلاح الدين ان تستمر الهدنة قائمة ، فكتب الى بودوان يعرفه بالواقعة ، ويستنكر تصرف ارناط ، ويطلب اليه التدخل لاعادة الاسرى والاموال. فلم يجد بودوان ما يرد به على صلاح الدين غير الاعتذار بانه لا يستطيع عمل شيء مع تابع لا يحترم عهدا ولا هدنة .

وحينما تلقى صلاح الدين هذا الرد ، اعتبر الهدنة غير قائمة ، وباشر الحرب من جديد .

وهكذا وجد الصليبيون انفسهم مسوقين برغمهم وراء المغامر ، لان غارات المسلمين لم تقتصر على أرض ارناط .

وفى عام 1182 م ، ذهب صلاح الدين لمصر ، ليتفقد شؤونها ، ولما علم الفرنج بذلك ، عقدوا مجلسا حربيا بحضور بودوان ، لمناقشة الموقف . وقد ارتأى المغامرون من انصار ارناط ، ان صلاح الدين ، سيعود على رأس قوات ، وانه سيهاجم معاقل ارناط فى الكرك والشوبك ، لينتقم منه ، وان الحكمة تقضي بان يتحرك الصليبيون لنجدة ارناط ، ولاعتراض سبيل صلاح الدين اثناء عودته من مصر الى دمشق .

ولكن العقلاء ، وعلى راسهم ريموند الثالث امير طرابلس ، الذي كانت تربطه بالمسلمين هدنة ، لم يروا هذا الراى ، وقدروا ان احتشاد الجيش الصليبي فى جنوبي الاردن ، امر بالغ الخطورة ، لانه يترك الاراضي الصليبية فى فلسطين ، خالية من القوات ، فتتعرض بذلك لهجمات المسلمين المباغتة .

وفازت نظرية المغامرين ، اذ لم يكن بودوان فى وضع يمكنه من اتخاذ موقف حازم . فعبأ الصليبيون قواتهم ، وصاروا بها الى الكرك ، وعسكروا حولها ينتظرون عودة صلاح الدين ، ليوقعوا به . ولكن صلاح الدين علم بمخطط الفرنج ، فخرج على راس فرسانه يعبر الصحراء على خير تعبئة ، وجعل اخاه نوري على راس قوة تحرس القافلة العائدة بالمتاع والمرضى والنساء ، على ان يسيروا موغلين فى الصحراء ، ليكونوا بعيدين عن متناول يد الفرنج .

وفى نفس الوقت ، الذي قرر فيه صلاح الدين عبور الصحراء ، اوعز الى ابن اخيه فروخ شاه ، وهو نائبه فى دمشق ، بان يغتنم فرصة خلو فلسطين من القوات ، ويضرب هناك بعنف . فخرج فروخ شاه من دمشق على راس قوة خفيفة الحركة ، واسرى الى منطقة الجليل ، فلم يشعر الفرنج ، الذين كانوا يعملون آمنين مطمئنين ، الا والجيش الاسلامي ينقض عليهم ، يقتل ويأسر ويسبي ويغنم ، ويخرب ، دون ان تكون للفرنج فرصة للالتجاء الى معقل او حصن. ثم عاد المسلمون الى منطقة السواد الواقعة شرقي بحيرة طبرية ، يوقعون بالفرنج ويفتكون بهم .

وتقول الروايات ان فروخ شاه ، عاد الى دمشق يسوق امامه قرابة الف اسير وعشرين الف راس من الماشية . وعلم الصليبيون وهم فى معسكرهم قرب الكرك ، بما احدثته غارة فروخ شاه من خراب ودمار، فى منطقتي الجليل والسواد ، فقلقوا وادركوا خطاهم باتباع آراء ارناط واصحابه ، فانسحبوا مسرعين الى منطقة الجليل ، وعسكروا قرب عيون صفورية ، بانتظار ما سيقوم به المسلمون .

اما صلاح الدين فانه وصل الى دمشق فى 22 حزيران (يونيو) 1182 م ، وبعد ان اطمأن الى وصول اخيه نوري والقافلة سالمين الى دمشق ، عاد بقواته الى حدود مملكته مع فلسطين المحتلة ، وعسكر فى

منطقة القحوانة ، قرب سمخ ، فلم يجرؤ الصليبيون على دخول المعركة معه . لانهم كانوا يدركون حقيقة تفوقه عليهم بقواته وبموارده وبانضباط جيشه ، بينما كانت الفوضى والمنازعات الداخلية ، تنخر فى جسم الكيان الدخيل .

وبث صلاح الدين سراياه فى المنطقة تعيث فيها تحت سمع الجيش الصليبي وبصره ، دون ان يجرؤ على التعرض للمسلمين . وبلغت سرايا المسلمين بيسان وجنين تقتل وتخرب وتحرق ، لعلها تدفع الفرنج الى المعركة ، ولكن الصليبيين لبثوا ساكنين لا يتحركون . واخيرا اعلم الجنود صلاح الدين ان ازوادهم قد نفذت وان مقامهم قد طال ، فقرر صلاح الدين الانسحاب الى دمشق ، بعد ان تاكد من ان الفرنج لن يجازفوا بدخول الحرب .

اغرت ارناط انتصاراته المحدودة على القوافل العابرة فى الصحراء ، فجعلته يفكر بامور لم تخطر لغيره على بال ، لما فيها من خطر ايقاظ نقمة العالم الاسلامي كله ، ودفع المجاهدين الى التدفق على ميدان المعركة للقضاء على الخطر المهدد لمقدساتهم .

ويقول المؤرخون ان ارناط ، قد بلغ تيماء فى عام 1181 م ، فى احدى اندفاعاته فى الصحراء ، وتيماء تقع فى قلب الجزيرة العربية ، وانه كان ينوي التوجه من هناك الى المدينة المنورة لمباغتتها ، والاعتداء على قبر النبي عليه السلام ، ولكن هجوما قام به فروخ شاه على حصون ارناط فى شرقي الاردن ، اضطره الى الارتداد مسرعا ، مخافة ان يباغته فى الصحراء .

وقدر ارناط انه اذا تمكن من الاستيلاء على (ايلا) على خليج العقبة ، فانه يستطيع ان ينشىء اسطولا يسيطر على البحر الاحمر ، ويتحكم بموانىء المسلمين فيه ، وبالتالي فانه يستطيع الوصول الى الاماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة ، والايقاع بالمسلمين وهم فى موسم الحج .

وبالفعل نفذ المغامر مخططه ، فانشا قوارب فى عسقلان والكرك ، ونقل اجزاءها مفككة على ظهور الجمال فجمعها فى خليج العقبة ، وقذف بمراكبه فى البحر ، وبينما اتجهت قوة صليبية تحاصر ايلا ، اتجهت المراكب الاخرى تعبر خليج العقبة الى البحر الاحمر ، ومن هناك سارت الى الموانىء الاسلامية الآمنة التي لم تكن تتوقع ان ترى مراكب صليبية ، فاخذت فى نهبها ، والاعتداء عليها ، كما تعرضت للمراكب الاسلامية الماخرة فى البحر الاحمر ، فاوقعت بها ، ونهبت العديد منها . وكان اول ميناء ظهر الفرنج امامه هو ميناء (عيذاب) ، تجاه ميناء جدة ، ثم انتقل الفرنج الى الموانيء الحجازية يغيرون عليها ، حتى بلغوا ميناء الحديدة قرب ينبع ، ومنه اتجهوا الى رابغ شمالي جدة ، ينهبون ويقتلون ويأسرون ، ثم ارسوا مراكبهم فى الجوراء قرب رابغ ، ونزلوا الى البر يعيشون فيما حولها ، ويعدون عدتهم للايغال فى داخل الارض المقدسة والوصول الى مكة ، للايقاع بالحجاج المجتمعين فيها .

وفاق العالم الاسلامي لهذه الجراة التي لم يكن احد يتوقعها ، واضطربت نفوس الحكام ، وجاشت نفوس المسلمين بالغضب ، كيف تجرؤ شراذم طارئة على مشرقنا المتسامح ، فتفكر فى تدنيس المقدسات وترويع الآمنين اللائذين ببيت الله وحرمه .

وكان اسرع الجميع استجابة لنداء الواجب هو الملك العادل ، شقيق صلاح الدين ونائبه فى مصر ، فجهز اسطولا عهد بقيادته الى امير البحر حسام الدين لؤلؤ ، وكلفه بملاحقة الفرنج وردهم عن مقدسات الاسلام . فخرج لؤلؤ مسرعا ، يتبع الفرنج ، ويستقصي اخبارهم ، فادركهم وقد نزلوا بالحوراء ، فاستولى على مراكبهم الراسية ، ثم نزل ورجاله الى اليابسة ، لقتال الفرنج الهابطين على الساحل . ولما راى الفرنج غرق سفنهم ووقوعها فى ايدي المسلمين ، انقطع املهم فى النجاة بها ، فلجاوا الى شعاب الجبال القريبة من الساحل ، فلحق بهم لؤلؤ وقاتلهم فى شباط (فبراير) 1183 م ، قتالا شديدا حتى افناهم ، واخذ من تبقى منهم حيا اسيرا . فارسل بعضهم الى منى لينحروا فيها كالاضحي يوم عيد الاضحى ، امام الحجاج ، لتطمئن خواطر الناس ، وليعلموا ان قادة المسلمين لا يمكن ان يتهاونوا مع من يدنس مقدسات الاسلام ، فنحروا هناك يوم العيد ، والناس من حولهم يهللون ويكبرون .

اما الباقون من الاسرى ، فقد سيقوا الى مصر ، فأمر صلاح الدين بضرب اعناقهم جميعا لكيلا يفكر احد منهم فى العودة مع حملات اخرى على الطريق .

لم يكن صلاح الدين يجهل اهمية الخطر الذي يشكله على الاسلام عامة وعلى مملكته بصورة خاصة ، وجود الصليبيين فى سوريا ، وخصوصا وجودهم فى شرقي الاردن وجنوبي فلسطين . ولكن هذا الوجود

كان قبل صلاح الدين ، وكان من الممكن ان يستمر ، دون ان يشعر صلاح الدين بان اقتلاعهم ضرورة ملحة لا يمكن تأجيلها . ولكن مغامرات ارناط فى نقض الهدنة وسلب الحجاج والقوافل ، وقطع الطريق بين سوريا ومصر والحجاز ، ومحاولاته لتدنيس مقدسات المسلمين ، وترويع اهل الارض المقدسة، ومن يؤمها من الحجاج المسلمين ، كل ذلك اقنع صلاح الدين ، انه لا بد من القضاء نهائيا على هذا الخطر المهدد ، فى اسرع وقت ، واجتثاثه من جذوره ، لكيلا تبقى له فى ارضنا باقية . فشمر عن ساعد الجد ، واقسم على انه سينتقم بنفسه من ارناط ، وانه سيقتله بيديه ان ظفر به ، وقد مكنه الله من ذلك .

وتتالت حملات صلاح الدين على قلاع ارناط ، خلال الاعوام التالية ، وحاصره اكثر من مرة فى قلعة الكرك وضيق عليه ، فكانت الجيوش الصليبية تتجمع فى كل مرة ، وتسير لنجدة الكرك ، ولكنها كانت ترفض الدخول فى المعركة مع المسلمين ، لانها كانت تدرك انها ليست كفاء لصلاح الدين وجيشه .

— ◆ —

وحينما حل عام 1187 م ، (583 هـ) ، اعتزم صلاح الدين الدخول فى معركة فاصلة مع الفرنج ، فصرف همه لتسوية خلافاته مع اتباعه وجيرانه المسلمين ، كما طلب الى نائبه فى حلب وحماه، بمهادنة الفرنج فى امارة انطاكية ، (اما طرابلس فكان اميرها قد دخل منذ زمن بعيد فى حمى صلاح الدين وهادنه) . ولما تحقق الصلح بين المسلمين وبين فرنج انطاكية فى ايار (مايو) 1187 م ، (اواخر ربيع الاول 583 هـ) . اخذ السلطان فى جمع القوات ، واستدعى تاميه من الامراء فى الجزيرة وديار بكر والموصل ، واستدعى قوات من مصر وحلب وحمص وحماة ، وخرج هو من دمشق الى عشترا (فى حوران) ، واقام هناك ينتظر اجتماع الجيوش عليه . ولما تكامل اجتماعها ، استعرضها فى منتصف ربيع الآخر 583 هـ ، وعباها تعبئة القتال ، وسار بها يوم الجمعة فى 17 ربيع الاخر ، حتى نزل جنوبي بحيرة طبرية عند قرية الصنبرة .

وكان الفرنج قد علموا باجتماع الجيوش على صلاح الدين ، فاسرعوا بجمع قواتهم ، وعسكروا قرب عيون صفورية ، فى الجليل ، ينتظرون التعرف على مرامي خطة صلاح الدين .

وفى اليوم التالي سار صلاح الدين ونزل على جبل غربي طبرية ، ولبث هناك ينتظر تعرف الفرنج ليقاتلهم ، ولكن الفرنج كانوا مختلفين فيما بينهم حول ما يجب عمله تجاه صلاح الدين . فقد مات الملك بودوان الرابع غير مخلف عقبا ، واوصى بالملك الى ابنة اخت له ، تزوجها رجل ضعيف الشخصية ، عرف باسم (جي دولوزينيان) فاصبح ملكا على القدس ، وقد احدث ارتقاء (جي) العرش انشقاقا فى صفوف الصليبيين ، يضاف الى الفوضى القائمة بينهم .

ولما اجتمع الفرنج فى صفورية ، ونزل صلاح الدين على طبرية ، اقترح المغامرون مهاجمة صلاح الدين لفك الحصار الذي ضربه على مدينة طبرية ، وكانت طبريه ملكا لزوجة ريموند الثالث أمير طرابلس، وكان ريمند اكثر الصليبيين خبرة بالحرب ، وابعدهم نظرا ، واكثرهم ادراكا للواقع الصليبي ، وتقديرا لقوة صلاح الدين ، فكان رايه ان لا يخاطر الفرنج المتفسخون بالاشتباك بالمسلمين ، وهم اكثر ما يكونون قوة ، وتصميما على سحق العدوان ، والانتقام من محاولة تدنيس مقدساتهم . لذلك اعترض على راى القائلين بضرورة الاشتباك بصلاح الدين ، وقال لهم ان طبريه ملك لزوجته ، وان زوجته وابناءها موجودون فى طبرية، وانه اذا احدث مكروه لطبريا فان المكروه سيصيبه قبل غيره ، ومع ذلك فانه يفضل ان يضحي بزوجته وابنائه وببعض املاكه ، على أن يقامر بمستقبل الممالك الصليبيين فى المشرق ، فسخر منه المغامرون، واتهموه بالخيانة والتواطؤ مع المسلمين ، وتطاولوا عليه ، ولما اقنعوا الملك بضرورة السير الى طبريا لفك الحصار، وترحيل المسلمين عنها ، لانه ليس من الشهامة ولا الرجولة فى شيء ترك الاميرة لمصيرها تدافع وحدها عن طبريه .

جرت تلك المناقشات فى المعسكر الصليبي فى فى صفورية ، قبل ان يتحركوا من مواقعهم . ولما راى صلاح الدين الفرنج لا يتحركون ، ترك قوة فى المرتفعات ، لمواجهة الفرنج ان تحركوا ، ونزل مسرعا مع قوة خفيفة الحركة ، فهاجم طبريه واستولى عليها سريعا ، واسر وقتل وغنم ، ولجات الاميرة ومن نجا من المعركة ، الى القلعة يتابعون المقاومة ، فضرب صلاح الدين حصارا حول القلعة ، ولبث ينتظر رد فعل الصليبيين فى صفورية .

ولما علم الفرنج بما حل بطبرية ، ارتفعت اصوات المتطرفين ، واقنعوا الملك بضرورة السير لانقاذ

الاميرة ، فتحرك المعسكر الصليبي كله ، نحو المسلمين رغم معارضة ريموند واحتجاجاته .

ولما علم المسلمون بتحرك الفرنج أرسلوا يخبرون صلاح الدين ، وكان هذا بالضبط ما قصده هو من مهاجمة طبرية ، وهو ان يستثيرهم ، وان يدفعهم الى قبول الدخول فى المعركة معه . فترك قوة من رجاله فى طبرية تتابع حصار قلعتها ، واسرع هو بمن معه الى المرتفع ، حيث ترك معسكره ، فوصله مساء الخميس فى 22 ربيع الاخر . وبعد قليل وصل الصليبيون ، واقاموا معسكرهم تجاه المسلمين ، ولم يجر قتال فى ذلك اليوم .

وفى صبيحة يوم الجمعة 23 ربيع الاخير 583 هـ (تموز 1187 م) ، اشتبك الفريقان فى قتال عنيف فى ارض اللوبية ، دام طوال النهار ، وكان الحر شديدا ، ولم يكن حول المعسكر الصليبي ماء يصلون اليه ، وحاولت قواتهم اكثر من مرة ان تشق طريقها الى طبرية لتستقي ، ولكن المسلمين كانوا يردونها ، بعد ان ادركوا غايتها .

وبات الفرنج عطاشا ، والمسلمون من حولهم يطوفون بمعسكرهم ، يرمونهم بالنبال طوال الليل ، حتى لم يتركوا لهم فرصة للراحة .

وبكر الجانبان يوم السبت الى القتال ، والفرنج قد انهكهم التعب والعطش والحر، وجرى عراك رهيب، وصبر الفريقان صبرا عجيبا ، ورأى ريموند ان المعركة اصبحت خاسرة ، وانه لم يعد لهم امل فى نصر ، فحمل بمن معه من الفرسان حملة مستقتل يريد النجاة ، فامر قائد الفرسان تقي الدين عمر، رجاله بان يفسحوا لهم المجال ، فخرجوا من المعركة ، وتابعوا طريقهم الى صور . فاضعف خروج قوات طرابلس ، من عزائم المقاتلين ، وحاولت فئة اخرى منهم النجاة ، فلاحقهم المسلمون وأبادوهم .

اما الملك (جي) ومن تبقى معه ، فانهم لم يجدوا لهم مهربا ، فانحازوا الى تل حطين ، وتحصنوا فيه ، فاحاط بهم المسلمون ، وتجدد القتال على اشد ما يكون عنفا حول التل . واستمر حتى تمكن المسلمون من الوصول الى خيمة الملك فاخذوه اسيرا ، واسرع ارناط يلقي بسلاحه مستأثرا ، وفعل غيره مثل فعله . وانتهت المعركة مساء السبت باسر الملك واسر ارناط الذي اثارت مغامراته الحرب ، وغيره من الزعماء والقادة .

ولما انتهى القتال ، جلس السلطان المنتصر ، فى خيمته فرحا مسرورا ، بما افاء الله عليه من نصر ، وجلس من حوله كبار القادة والامراء ، واستدعى اليه الاسرى ، فاحضر الملك وارناط ، وقد هدهما العطش ، فأمر صلاح الدين للملك بشربة من ماء مثلج فتناول الكوب وشرب منها ، ثم ناولها لارناط ، وكان بجانبه ، فشرب ارناط وصاح صلاح الدين فى الترجمان ليقول للملك الاسير ، انت الذي سقى ارناط وليس انا . وكانت الاعراف تقضي بان الاسير اذا نال من طعام آسره ، او من شرابه لم يعد يجوز له قتله . وقد سبق لصلاح الدين ان اقسم بانه اذا ظفر بارناط ليقتلنه بيديه ، وقد تسبب ارناط بمغامراته وجرائمه، وخياناته للعهود والمواثيق ، بهذه الحرب الطويلة المتواصلة ، ولم يصر صلاح الدين على الاستمرار فى الحرب الا ليظفر بارناط ، ليجعله عبرة لكل غادر مغامر .

ولم يشأ صلاح الدين ان يقتل ارناط بحضور (جي) ، فاخرجهما من مجلسه ، ثم استدعى ارناط ، وعنفه على محاولاته تدنيس المقدسات الاسلامية ، وذكره بما كان منه نحو رجال القافلة الذين غدر بهم فى وقت الهدنة والسلم ، وسخر منهم ومن دينهم ونبيهم، حينما ناشدوه الله ، وذكروه بالصلح القائم بين المسلمين والفرنج . ثم قام اليه صلاح الدين ، وقال له ها انا انتصر لدين محمد ، واستل سيفه وضربه به على كتفه فحله ، وقام من حضر بالاجهاز على ارناط، ثم حملوه الى باب الخيمة والقوه ، ولما راى (جي) صاحبه قتيلا جزع ، وخاف مثل مصيره فاستحضره صلاح الدين ، وطيب قلبه وهدأ روعه وقال له : (لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك ، واما هذا فانه تجاوز حده ، فجرى ما جرى) .

واثر معركة حطين بدأت تتهاوى المدن والقلاع التي كانت للصليبيين ، فى ايدي صلاح الدين ، وتابع من خلفوه خطته فى العمل على اجتثاث جذور الدخلاء، حتى تمكنوا بعد قرابة مائة وعشر سنين ، من يوم حطين ، من القاء آخر الصليبيين فى البحر . ولم تستطع النجدات الكثيرة التي تلقاها الصليبيون من اوروبا من ان تمنع زوال كيانهم ، الذي قام فى غفلة من الدهر ، بالعدوان والقهر والغدر .

دراسة حول نهاية الأدب للنويري

من موسوعة الأدب واللغة هل التعبير الجميل بلغة رصينة هو الأدب؟

عبد الحليم الندوي أستاذ بالجامعة الملية الإسلامية
(دلهي الجديدة)

توصلنا من حضرة الاستاذ عبد الحليم الندوي بهذه الدراسة الشيقة التي شارك بها في مسابقة المكتب الدائم ، الا ان لجنة التحكيم ارتات انها تحيد عن موضوع المسابقة ـ ونظرا لقيمتها اقتطفنا منها هذا القسم الذي ننشره شاكرين :

ولد النويري في اواخر القرن السابع الهجري ، القرن الذي شهد تطورات سياسية هامة ، غيرت مجرى التاريخ الاسلامي بسبب فتنة التتار الجامحة التي اعقبتها ويلات ودمار انجلت عن حركة علمية ، من نوع جديد ، لم يكن للعالم الاسلامي ، بها عهد من قبل. فما ان يكاد فجر القرن السابع الهجري يشرق الا ونرى العقول العربية ، التي لم تزل طوال السنوات الماضية ، تزود المجتمع العربي ، بانتاجها الخصب ، ونتائج قرائحها الفياضة ، قد توقفت او تكاد ، وذلك بسبب تغير الاوضاع والظروف التي قلما تسمح لاصحاب الفكر والعلم والمشتغلين بالادب والفن ، بمزاولة اعمالهم الفنية ، وممارسة انتاجهم العلمي والادبي دون ان يتوجسوا خيفة او وجلا . وبخاصة بعد ما كان هؤلاء العلماء قد الفوا جوا وظروفا تتنافى والتي ابتلوا بها في هذه الحقبة من الزمن ، فلما نجد انتاجا علميا خصبا ، او مادة ادبية فنية غزيرة ، او شعرا عذبا بليغا ، من ذلك النوع الذي تطرب له القلوب وتترنح له المشاعر والاحاسيس. ولكن ما تكاد تنقشع غياهب هذه الفتنة حتى يبرز رهط من العلماء ، ليقوم بحركة مباركة يمكن ان نسميها بـ «حركة الموسوعات». وغاية هذه الحركة هو جمع ما يوجد من نتاج العلماء القدماء ، وما وضعوه في مختلف العلوم والفنون من كتب خوفا من ضياعها ، على ايدي الغزاة . ذلك ان التتار قتلوا « كثيرا من علماء المسلمين ببغداد وغيرها: وممن قتل ببغداد الشيخ محي الدين بن الجوزي واولاده. وكذلك اتلفوا كثيرا من دور الكتب واحرقوها. وقد امر هولاكو وقت فتح بغداد بالقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة . وبذلك ضاعت على الدين ذخائره ، وعلى العلوم والآداب نفائسها ، فقدت العربية الى الابد آلافا من المؤلفات » (1) فلما راى العلماء هذه الكارثة الرهيبة وما جرت من ضياع اكبر العلماء واجلهم شانا « وجدوا انفسهم ـ بعد هذه الكارثة الرهيبة ـ مسئولين امام الله عن دينه ، وامام التاريخ عن نهضة العلم واقالة عثاره ، وامام ضمائرهم عن معارفها وامام اوطانهم عن تدعيمها . فدفعهم شعورهم العميق بهذه المسئولية وضخامتها الى الجد في العمل لتلافي ما فات، وبذل الجهد لاعادة هذا الصرح المنهار » (2) ومن هنا نجد طائفة من العلماء في هذا

1) عن مختصر ابي الفداء ج 4 ص 194، نقلا عن كتاب « عصر سلاطين المماليك » لمحمود رزق سليم المجلد الثالث ص : 17 .

2) نفس المرجع السابق .

العصر قد عكفت على دراسة ما تبقى من هذا التراث الضخم ، واستخلاص موارده ، وجمعه في كتب مطولة ضخمة ضنا به وحفظا له .

والغريب في الامر ان هذا الرهط من العلماء وخاصة النويري ، اتخذ في مرامه هذا ، اسوة حسنة من حياة رهط من الصحابة ، قاموا ، خوفا من الضياع والذهاب ، بأول عمل للجمع والتدوين تم في اللغة العربية وتاريخ المسلمين ، واعني به جمع القرءان الكريم وتدوينه في مصحف مكتوب . فقد نقلوه من الجلود ، والعظام والعسب واللخاف التي كانت سور القرءان الكريم او آياته قد كتبت عليها زمن النبي صلى الله عليه وسلم او من صدور الصحابة من الحفاظ الذين كانوا يسمون القراء عصر ئذ . وكان الباعث الهام والاول هو توجس الخيفة من ضياعه او ذهابه مع من ذهب من القراء في الحروب والغزوات ، كما حدث في غزوة اليمامة .

فقد روى المؤرخون ، انه عندما ارتدت بعض القبائل من أهل الجزيرة ابان خلافة سيدنا ابي بكر الصديق ، وارسل القوات الاسلامية لقمع دابرهم ، دارت بينهما وبين المرتدين معارك دامية ، استشهد فيها حوالي 1200 مسلم من بينهم 700 قارىء . ففزع المسلمون كثيرا لهذه الظاهرة التي تعرضت لهم أول مرة في حياتهم . وخافوا اذا ما استمرت الحال على هذه الوتيرة ، ان يحرموا من القرءان الكريم بموت او شهادة حفاظه . وكان منهم اكثر خوفا سيدنا عمر بن الخطاب ، فسعى الى ابي بكر يحاوره في الامر . واشار عليه ان يقوم بجمع القرءان الكريم حفظا له وضنا به . الا ان ابا بكر تردد في الامر وتريث وقال : « كيف افعل امرا لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهدا » . ولكن عمر الح عليه واصر ، فخضع له آخر الامر ورأى الحكمة في جمعه . فطلب الى زيد بن ثابت وكان من ابرز كتاب الوحي ، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فجمعه مما وجده مدونا عند الصحابة ، وما كانوا قد حفظوه في صدورهم ، فجعل مصحفا كاملا وسلمه الى ابي بكر . فلما توفي ابو بكر تسلمه عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء وبعد وفاته في سنة 23 هـ ، انتقل المصحف الى كريمته حفصة ام المؤمنين .

وفي زمن سيدنا عثمان بن عفان ، **عندما توسعت رقعة الفتوحات** وانتشر المسلمون الى اقطار مختلفة وبلدان عديدة ، مع نسخ من القرءان الكريم يعولون عليه **ودخلت في حظيرة الاسلام شعوب وقبائل تتغاير لغاتها ولهجاتها لهجة قريش** ، التي نزل القرءان الكريم بها . وحدث اختلاف في قرائته ، وبدا في ادراك معناه ، اتصل حذيفة بن اليمان بعثمان ، وانبأه بما رآه اثناء سفره الى آرمينيا وآذربائيجان في غزوة ، من اختلاف المسلمين في القراءة والتفاخر بها والتمسك بها ، حذره من العاقبة الوخيمة التي قد يؤدي اليها هذا الاختلاف وهذا الوضع الشاذ اذا ما تفشى بين المسلمين وقال قولته المعروفة : « ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » . ففطن عثمان الى ما في قوله من حكمة واستصوب رايه . وطلب الى حفصة يقول لها : « ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك » ففعلت ، فاستدعى عثمان رهطا من الصحابة من كتبة الوحي والمتضلعين في القرءان الكريم ، مثل زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وغيرهم وامرهم ان ينسخوا القرءان ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء . وقال لهم : « اذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه **بلسان قريش فانما انزل بلسانهم** » ، ففعلوا وكتبوا اربعة مصاحف بعث بها عثمان الى الامصار . وابقى عنده نسختين ، احداهما لاهل المدينة والاخرى لنفسه . وسميت هذه الاخيرة « بالامام » . ثم جمع المصاحف والصحف الاخرى وامر باحراقها .

ومن نسخ عثمان المرسلة الى البلدان والامصار الاسلامية الكبرى مثل مكة والبصرة والكوفة والشام، استنسخ المسلمون مصاحف اخرى ، حتى كثرت النسخ ، فاصبحت الى مئات ، الى واقعة صفين بين علي ومعاوية حسب قول المسعودي .

تلك هي الاسوة الحسنة التي جعلها النويري نبراسا له يهتدي به خير مثال يقتفيه . فقد جمع القرءان اول مرة بسبب خوف الضياع وذهاب اهله . فبينه وعمل النويري شبه قريب . فانه ايضا **قام بجمع تراث الاسلاف** خوفا من الضياع على يد الحدثان وخاصة **بعد ما رأى ما آل اليه امر الكتب والكراسات والنفائس العلمية** ، اثر اكتساح التتار الاقطار الاسلامية والعراق منها بصفة خاصة .

ثم جمع القرءان الكريم **اتقاء لشر تفشي اللهجات المختلفة وتعدد المعاني والمفاهيم القرءانية من اجلها** . وتفاديا لوقوع الخلاف والشجار بين المسلمين فيه . فاننا ولو نستبعد قيام النويري بهذا العمل اتقاء لشر تفشي اللهجات وتفاديا لوقوع الخلاف ، الا انه يتبادر الى الذهن أن النويري يمكن أن يكون قد فكر في

الموضوع من هذه الناحية ايضا . فمن يدري لعله راى انه عند جمعه لهذه المؤلفات يصونها من الضياع من ناحية ، ويصونها ايضا من وقوع الشك والريبة فى نصوصها وموادها من ناحية اخرى ، وخاصة عندما يطول عليها الامد . فعمد الى ضبط نصوصها فى سجل ولم يمض على وضعها عهد بعيد ، ويتمه بيديه وهو العالم الخبير « الفقيه الفاضل والمؤرخ البارع ، له مشاركة جيدة فى علوم كثيرة » حسب قول التغري بردي . والواقع ان الكتب التي اختصرها او نقلها فى كتابه كانت خليقة بالتغيير والتبديل او للشك والشبهة فى نصوصها خلال التيارات السياسية والاجتماعية التي مر منها المجتمع الاسلامي فى تلك العصور . (1)

وبما ان القاهرة ، مدينة المماليك ، كانت فى مامن من ويلات هذه الفتنة الطاغية ، فلقد انبعثت هذه الحركة ـ حركة الموسوعات ـ من هذه الارض الخصبة المطمئنة . فسجل القائمون بها ، ما تركته لنا جهود العلماء من السلف ، من نتاج خصب ، من علم وادب ، وحكمة ومعرفة ، ودين وموعظة ، وتاريخ وسيرة ، وغيرها من الفنون . « فالفضل الاكبر فى بقاء آداب اللغة العربية فى ذلك العصر يرجع الى مصر والشام ، وهما فى حوزة السلاطين المماليك ومن بقي من الملوك الايوبيين . فقد كانت الملجأ الوحيد لابناء هذا اللسان فى فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق » (2) ومن بين القائمين بهذا العمل الجليل ، شهاب الدين احمد النويري الكندي البكري صاحب « نهاية الارب فى فنون الادب » . حقا ان هذا العمل لا يتعدى « ان يكون ترديدا لما فات ، وجمعا لمتفرق او تفريقا لمجتمع » (3) الا انه ليس من شك بأن هذا « الترديد لما فات » له الفضل الاكبر فى حفظ ما خلفه لنا آباؤنا واجدادنا من هذا التراث الضخم الغزير الذي لولا « هذا الترديد » لكان قد اصبح فى حديث الماضي ، مثل الكتب القيمة الاخرى ، التي لا نجد لها ذكرا . الا بين طيات كتب التاريخ او كتب الطبقات . وان وجدت فانها لا تزال زينة الرفوف فى المكتبات ، لم يقدر لها ان ترى النور بعد . او هى مخطوطة نادرة نعرف او لا نعرف لها مقرا .

نشا النويري فى هذه الظروف ، وترعرع فى هذه الفتنة « واشتغل بوظائف حكومية متعددة ، فى بلاط السلطان الملك ناصر (محمد بن قلاوون) الا ان نفسه الطموح لم ترض عن مزاولة هذه الوظائف التي كانت قد جعلت منه اداة للجهاز الحكومي ليس الا . دون ان تسمح له بالاشتغال بما جبل عليه من حب للعلم ، وولع بالعكوف على الادب والفن ، وللالمام بنصيب اوفر مما جادت به قرائح العلماء والنابغين . ورجل هذا شانه لا يستقر به مقام ، مهما كان ذا عزة عليا ، ومنصب مرموق ذلك لانه دائما يحسب مركزه هذا دون اهليته وما تهوى اليه نفسه ، مهما يكن ضئيلا فى نظر الآخرين . فما كان من النويري الا ان ترك وظيفته فى بلاط السلطان حيث قال « ثم نبذتها وراء ظهري وعزمت على تركها فى سري دون جهري وسالت الله تعالى الغنية عنها ، وتفرغت اليه فيما هو خير منها ، ورغبت فى صناعة الادب وتعلقت باهدابها وانتظمت فى سلك اربابها . فرايت غرضي لا يتم بتلقيها من افواه الفضلاء شفاها وموردي منها لا يصفو ما لم اجرد العزم سفاها (4) .

ومن ثم حول النويري جهده لمطالعة الكتب بنفسه ، لكي يحقق غرضه من هذا العلم الذي يشتاق اليه ، والذي قد ضحى فى سبيله بوظيفته الحكومية

---

1) راجع لجمع القرءان وتدوينه :
ا ـ صحيح البخاري باب جمع القرآن .
ب ـ الترمذي ابواب التفسير .
ج ـ اتقان للسيوطي .
د ـ فتح الباري .
هـ ـ المصاحف لابن ابي داود . والكتب الاخرى باللغة الاردية كتبت حول الموضوع .
2) تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان ـ ج 2 صفحة : 111 .
3) ظهر الاسلام لاحمد امين ج 4 صفحة : 191 .
4) مقدمة نهاية الارب ج 1 صفحة : 3 .

فقال « فامتطيت جواد المطالعة وركضت في ميدان المراجعة ، حيث ذل لي مركبها وصفا لي مشربها (1) .

وبما انه من الشخصيات التي نبغت في عصر كان يمر بانحلال ، ويعاني تدهورا في الانتاج العلمي ، لم تحفزه مطالعته هذه ، وانشغاله بالادب والعلم وما اتيح له الانشغال ، الى ان ينتج شيئا من فيض قريحته هو ، ويملي عليه عكوفه على المطالعة ، وتلقي مختلف العلوم والفنون . بل حاول ان يجرد من مطالعته كتابا لا ليسهم به في الانتاج العلمي اسهاما – كما يبدو لاول وهلة – وانما ليستانس به هو بنفسه، ويرجع اليه اذا اضطرت نفسه الى المراجعة فيقول ... « آثرت ان اجرد منها كتابا استانس به او ارجع اليه واعول فيما يعرض لي من المهمات عليه » (مقدمة نهاية الارب) .

وهنا يتبادر الى الذهن ان النويري انما بدأ عمله لجمع ما طالعه في الكتب في موسوعته ، ليس بارادة تاليف كتاب بالذات بالمعنى المفهوم ، وانما غرضه استيعاب ما طالعه وضبطه في دفتر ، لكي لا ينساه وان انفلت من ذاكرته شيء سهل عليه الرجوع اليه . وكذا لم يات بهذا الكتاب بعد فكر ودراسة وروية في الموضوع ، وانما جاء به عفوا كفكرة طارئة ، دون ان يحسب لها حسابا من قبل .

ولكنه يبدو لي ، أن النويري ، بعد ما كان قد اراد ان يضمن كتابه هذا وما يخاف انفلاته من ذاكرته، وبعد أن مضى فيه فعلا شوطا ، غير رايه لما وجد من اهمية فيما يطالعه ، وندرة ما وصلت اليه يداه من النفائس . فمن ثم وطد عزمه على جمع هذه النبذات ، وتسجيل ما يعجب به من المختارات ، لا ليستفيد بها هو وحده ، بل لتكون ذات فائدة للاخرين ايضا ومتعة لهم لكي يمكن لهم الرجوع اليها والالمام بها عند الحاجة . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، لكي يحفظ هذا التراث العظيم الذي كان قد اصبح عرضة للخطر على يد الحدثان . هذا التراث الذي اهمله المجتمع لانشغاله بأموره الخاصة ، التي فرضتها عليه الظروف ، من ضيق أسباب المعاش وتغير الاوضاع المالوفة وهذا العمل يتطلب الى جانب العقل الناضج والذوق السليم ، علما غزيرا ، ثم خطة مرسومة احكمت أصولها ، وترتيب وتهذيب روعي فيهما دقة الاختيار وحسن الانتخاب . فان القينا النظر على كتاب نهاية الارب من هذه الناحية ، وجدناه مستوفيا لهذه الشروط كلها وان خضنا في البحث في صفحات الكتاب، وجدناه موزعا على ابواب وفصول واقسام في صورة منتظمة لا يعمد اليها من يريد جمع اشياء ونبذات خيفة الافلات منه او النسيان ، ليرجع اليها اذا شاء الرجوع . فهذا الترتيب الكامل، لا يمكن ان ياتي عفوا، دون اعمال الفكر وتنسيق الخطة ، وبعد طول الممارسة وتدبر استغرق وقتا غير قصير . ليس هذا فحسب، بل ان هذه الظاهرة تتجلى بوضوح في المقدمات التي يستهل بها الابواب . فهي كلها انت على غرار مقدمات، تكتب بعد فكر وروية بالغين ولا ينطلق بها قلم يجمع لصاحبه مختارات من هنا وهناك ، في صورة «مذكرات» . اذ ان شانه غير شان المؤلف او الجامع. فقلما يوجد بها ترتيب محكم ، او تهذيب ملحوظ ، او اختيار منسق، او خطة مرسومة ونهج معين مضبوط. ثم ان النويري نفسه قد افصح عما كان ينويه من جمع كتابه هذا حيث يقول « وما أوردت فيه الا ما غلب على ظني ان **النفوس** تميل اليه وان **الخواطر** تشتمل عليه »(2)

فهذه العبارة تبرهن على ان النويري لم يبذل جهوده الجبارة هذه لاجل نفسه وحدها وانما للنفوس وللخواطر بالجمع لا المفرد أي نفوس القراء الى جانب نفسه طبعا . كما كان ينوي ان ياتي بكتاب يكون ذخرا للخلف ، وخزانة لما ورثناه من انتاج اسلافنا من العلماء والفقهاء والادباء النابغين .

---

1) مقدمة نهاية الارب ج : 1 صفحة : 3 .
راجع للنويري : 1 – مسالك الابصار في ممالك الامصار لفضل الله العمري .
2 – النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ليوسف بن تغرى بردي الاتابكي ج 7 و 9 .
3 – حسن المحاضرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي ج : 1 .
4 – كشف الظنون للجلبي ج : 2 مادة (ن) .
5 – الطالع السعيد لجعفر بن ثعلب الادفوي حرف .
6 – تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج : 3 .
7 – الحركة الفكرية في العصرين الايوبي والمملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة .
2) مقدمة الكتاب صفحة : 26 .

ومع أن النويري « كان بطبيعته ميالا الى العلم والادب ، شغوفا به عكوفا عليه ، فقيها فاضلا ، مؤرخا بارعا ، له مشاركة جيدة فى علوم كثيرة » (1) ولكنه عند نقله هذه الكتاب لم يعتمد على نفسه وعلمه ومعرفته فحسب ، بل اظهر نفسه تابعا للعلماء السلف معتمدا على علمهم ، واثقا فى كفاءتهم ، ولذا اقتفى آثارهم فى هذا المضمار اذ يقول « ولو علمت أن فيه خطا لقبضت بناني ، وغضضت طرفي ، ولو خبرت طريق المعترض ، لعطفت عناني وثنيت عطفي ، ولكني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي ، وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي » (2) .

وبما ان النويري اقتفى آثارهم ، فطبيعي أن يتبرا من الاغلاط التي قد تبدو فى الكتاب ، فيحمل مسئوليتها هؤلاء العلماء بقوله « فان يكن اعتراض فعلي علاهم لا على العار » (3) ومن هنا يتضح ان النويري لم يرض لنفسه مركزا الا مركز الناقل الامين ، دون أن يستخدم فى المسائل رايه او يعمل علمه أو يعرض ما ينقله على محك ليعرف به جودة البضاعة من غشها ، وخاصة فى المسائل الدينية والامور المختلف فيها بين العلماء كما سنرى .

والسبب كما اسلفناه ، هو الانحلال الفكري والاضمحلال الذهني الذي طرأ على العلماء فى هذا العصر . ثم الفوضى وعدم الاستقرار الذي كان سائدا فى المجتمع الاسلامي . فلم يحفزهم علمهم الى الابداع والابتكار الذي يتطلب راحة البال واستقرار الاحوال . ومن ثم اقتصروا على جمعما وجدوا امامهم من الكتب، فى شتى الفنون والموضوعات . وذلك ما اشار اليه عميد الادب العربي الدكتور طه حسين فى احاديثه اذ قال : « **بان عصر المماليك يمتاز بانه عصر دوائر المعارف والموسوعات الادبية ، الفت فيه الكتب التي جمعت ما كان العرب والمسلمون قد اصدروه من الكتب** الكثيرة مثل **لسان العرب** (لابن منظور قبل النويري) و « مسالك الابصار » لفضل الله العمري ، و « صبح الاعشى » (للقلقشندي) ، الى ان ينتهي هذا الركب الى السيوطي « الذي » هو اكبر مظهر لهذا العصر (اي العصر المملوكي) فهو مؤلف كثير التاليف ، كثير الجمع ، قليل الابتكار « فلم يترك السيوطي بابا لفن لم يطرقه « حتى لقد عدت من تاليفه بثلاثمائة كتاب » (4) .

كانت تلك هي الظروف ، وهذه الاوضاع التي وضع فيها النويري كتابه الشهير « نهاية الارب فى فنون الادب » فى ثلاثين مجلدا ضخما . وعلى ترتيب حسن بديع يضاهي احسن ترتيب ممكن . أودعه كل مختار ومنتخب من علوم القدماء،ومن كل فن وموضوع، وبقدر ليس بضئيل .

قسم النويري موسوعته الى خمسة فنون ، يحتوي كل فن على خمسة ابواب . ضمنها جميع العلوم والفنون التي كانت معروفة الى عصره ، من الكلام حول السماء والآثار العلوية ، والارض والمعالم السفلية ، والانسان وما يتعلق به . من اشتقاقه من كلمة الانس ، الى ما يعرض له العوارض فى الدنيا ، وما يميل اليه من شعر وادب ، وما يرغب فيه من حب وهوى ونزعاته الى حياة مترفة قوامها الخمر والنساء، والسقاة والندمان ، ومجالس الغناء وغيرها . وما روى عنه من حكم وامثال ، وقصص واخبار . كما نقل عما وجده حول الحيوانات ، الصامت منها والناطق . وحول النباتات وما يتعلق بها من اصلها ومختلف اسمائها واوصافها . وما اعجب به فى التاريخ من تبدات ووقائع واحداث ، من مبدأ خلق ابينا آدم عليه السلام تتخلله اخبار يوم القيامة ونفخاته ، وخروج ياجوج وماجوج واهواله ، ونزول عيسى عليه السلام وآثاره ، الى اخبار ملوك الاصقاع وملوك الامم والطوائف ، ووقائع العرب فى الجاهلية ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اخبار الخلفاء الراشدين ، فالدول التي تلتهم ، من اموية وعباسية وغيرها الى ان انتهى هذا الباب باخبار ولي نعمته ابي المظفر محمد بن قلاوون الصالحي ، سلطان مصر ، وهنا ينتهي الكتاب .

وقد يتساءل المرء لماذا سمى النويري كتابه هذا بـ « نهاية الارب فى فنون الادب » مع اننا نراه يضم اليه علوما وفنونا لا تتعلق بالادب فى شيء ، وانما هي علوم وفنون بذاتها لها اصولها وقواعدها . وانه لمن العجيب ان النويري ، مع غزارة علمه ، وعلو كعبه

---

1) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لتغري بردي ج 9 صفحة : 299 .
2) مقدمة الكتاب .
3) مقدمة الكتاب .
4) ظهر الاسلام لاحمد امين ، ج : 4 ، صفحة : 21

في التمييز بين فن وفن ، قد اباح لنفسه ان يطلق اسم الادب على جميع هذه الفنون التي تتغاير تغايرا كليا ؟ فليس من شك ، بأن الكتاب يحوي فنونا وعلوما لا تمت الى الادب بصلة كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة . كما أن النويري لم يجهل ما بين فن وفن من فرق وتغاير ، ولكنه مع ذلك شملها كلها بالادب .

الادب ومفهومه

ان الادب ، وان دلت مادته منذ اقدم العصور العربية الاسلامية على رياضة النفس بالتعليم والتمرين على ما يستحسن من السيرة والاخلاف ، والتأثر بهذه الرياضة والاقتناع بها واكتساب الاخلاق الكريمة واصطناع السيرة الحميدة ، **تطور مفهومه في القرن الاول الهجري ، ليشمل التعليم ايضا** ، « فالمؤدب » كان يراد به الشخص الذي يتخذ التعليم صناعة ويكسب به رزقه ، « والادب » كل ما يلقيه المؤدب (المعلم) الى تلميذه من شعر وقصص واخبار وانساب ما هدا العلوم الدينية التي تتعلق بالقرءان والحديث النبوي الشريف .

فلما استهل القرن الثاني والثالث للهجرة ، حيث **نشأت علوم اللغة العربية** ، من صرف ونحو ولغة وبلاغة وغيرها ، انتعش مفهوم الادب ومراده « فاصبح **الادب يدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور ، وما كان ينعل به ويفسره من الشرح والنقد والاخبار والانساب وعلوم العربية** » .

فهل لهذا الكلام الجيد من المنظوم والمنثور محك نختبر به جودته ؟ نعم ، فالكلام الجيد ، من النظم والنثر ، هو ذلك الذي « يحدث في نفس قارئه وسامعه لذة فنية ، سواء أكان هذا الكلام شعرا ونثرا . وليس كل ما ينظم أو ينثر يحدث في نفس القارىء أو السامع لذة فنية . ولذلك نضطر الى تقسيم الادب الى معنين مختلفين : أحدهما « الادب بمعناه الخاص » وهو الادب الفني الذي يجد القارىء أو السامع في نفسه لذة ومتعة لقرائته أو سماعه ، فيتلذذ به ويطرب . والثاني « الادب بمعناه العام » وهو الانتاج العقلي الذي يصدر في الكلام ويكتب في الكتب . فالقصيدة الرائعة والمقالة البارعة والخطبة المؤثرة والقصة الممتازة ، كل هذا أدب بالمعنى الخاص ، لاننا نقراه أو نسمعه فنجد فيه لذة فنية ، كاللذة التي نجدها حين نسمع غناء المغني وتوقيع الموسيقى ، وحين نرى الصورة الجميلة والتمثال البديع . فهو اذن يتصل بالذوق والحس والشعور ويمس ملكة تقدير الجمال في النفس. والكتاب في النحو او في الطبيعة او في الرياضة ادب بالمعنى العام لانه كلام يصور ما انتجه العقل الانساني من انواع المعرفة ، سواء احدث في النفس اثناء قرائته او سماعه هذه اللذة الفنية أم لم يحدثها .

على ان الادب ، او الاديب ، ليس من شانه ، ان يبحث في هذه العلوم من حيث هي ، فيتعمق فيها ، وانما ياخذ منها الشطر الذي يتعلق بالانسان ومحيطه وبيئته ويتناولها بالقدر الذي يحدث المتعة ويثير الحساسية في نفس القارىء او السامع . فانه ان تعمق فيها ، قد يفقد الحساسية والاثار في كلامه ، فيصبح انتاجه في الادب بالمعنى العام ولذلك اصاب الجاحظ عندما نادى « بأن **الادب « هو الاخذ من كل فن بطرف »** . وهذا الاخذ من كل فن بطرف ، يجب ان يكون بحيث يعبر عن معنى من معاني الحياة باسلوب جميل . **فلا بد لعد الشيء ادبا من ركنين : معان تثير العاطفة والفاظ جميلة** اديت بها المعنى ... كذلك لا بد من **صياغة وتعبير جميل** . وذلك هو مفهوم الادب في عصرنا هذا .

فان القينا النظر على ما جعله النويري في كتابه من نبذات واقتباسات في ضوء هذا التعريف للادب ، نجده يفي به تماما بل يزيد ، اذ انه لم يتعمق في العلوم والفنون عند النقل والاقتباس ، وانما أخذ منها تلك العينات واللقطات التي تتمتع بها النفس ويتاثر بها الحس وتتلذذ بها المشاعر ، وكل ذلك في **صياغة وتعبير جميل مع الفاظ جميلة** . وبدا افاء بشرط « الاخذ من كل فن بطرف » فجاء فيه ، من ناحية ، **الكلام الجيد من المنثور والمنظوم** ، كما اشرنا اليه في الصفحات السابقة ، ومن ناحية اخرى زاد عليه ، فجاء بعلوم وفنون تعتبر من الادب بالمعنى العام ، مثل الكلام على النحو والصرف والبلاغة والتاريخ والجغرافية والسيرة والعلوم الطبيعية وغيرها . وكذا فانه شمل معنى الادب بمفهوميه ، المفهوم الخاص منه والعام في وقت واحد .

فاننا اذا لم ناخذ هذا التعريف بعين الاعتبار ، فقد نضطر الى شطب بعض الكتب الهامة ، وانتاج بعض الفطاحل من القدماء من عداد الادب ، ولو اننا ما زلنا نعتبرها من امهات الكتب الادبية والاعمال الرائعة التي خضعت امامها وما تزال تخضع ، هامات الكبار من العلماء والادباء في كل عصر ومصر . واعني

به (الكامل للمبرد) و (البيان والتبيين للجاحظ) و (كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة) و (طبقات الشعراء) (لمحمد بن سلام الجمحي) وغيرها من الانتاج الادبي الخصب الممتع ، فهذه الكتب جميعها ، تشمل الاخبار والانساب والقصص والسيرة والتاريخ والاساطير . ومع هذا فان احدا لا ينكر انها ليست من الكتب الادبية ، وهذا الانتاج ، ليس من الانتاج الادبي. فلماذا اذن نتردد في اعتبار كتاب « نهاية الارب » للنويري في عداد الادب وحيطته ، والحال ان كتاب النويري يحيط بمفهوم الادب بالمعنيين . !

وثمة ناحية جديدة بالانتباه اليها وهي ان النويري لم يدون كتابه هذا باعتباره كتابا في فن خاص او علم يبحث في ناحية من فن معلوم معين ، وانما حاول جمع ما ادته مطالعته من العلوم والفنون ، في كتاب له اجزاء متسلسلة متشابكة ، يجعلها مرجعا لكل هذه الفنون . ثم ان معظم الابواب والاقسام التي يشملها الكتاب يضمن الادب بالمعنى المفهوم منه في هذا العصر. اما الابواب الباقية منه ، فانها ايضا لا تخلو من نبذات الادب خلوا تاما . فخذ مثلا « باب السماء » تجد فيه من الاشعار التي قالتها الشعراء حول السماء والنجوم والفلك وكلها في منتهى الروعة والجمال ، تترنح لها المشاعر والاحاسيس وتطرب لها القلوب . مما يجعل من الباب جزءا من الادب له قيمته ووزنه من هذه الناحية . وكذلك حين ينقل لنا صفحات الحيوانات على مختلف انواعها (1) فانه يأتي في هذا الصدد ، بنخبة مختارة من الاشعار قالتها الشعراء حول هذه **الحيوانات** ، مثل قول بعض الشعراء على لسان اعرابي يصف الاسد يقول :

عبوس شموس مصلخد مكابر
جري على الاقران للقرن قاهر

لتعقبه اقوال من الشعراء الآخرين ، مثل ابي الطيب المتنبي وعبد الجبار بن حمديس وبشر بن عوانة وكشاجم وغيره ، وكلها مما تعد من احسن ما يقال في الموضوع . وهكذا في سائر الحيوانات : **من كلب ونمر وفهد وحمار وبغال وابل وفيل . وما تدب منها مثل الافاعي والعقارب والضب والحرباء حتى الفيران والجرذان** . ثم عمد الى **الطيور البغاث منها والمقلات والنزور ، وما منها الليلية والنهارية وغيرها** من مختلف الاقسام والانواع ، التي قيلت فيها الشعر (2) هذا من ناحية وصف الحيوانات . فاذا فرغ من نقل الاشعار الوصفية ، بدأ ينقل من الاشعار تلك التي فيها ذم للحيوانات ، وردت على سبيل الهجو « **كطرائف في ذم الخيل والحمير والبغال**» اتى فيها باشعار تهجو الخيول لهزالها وضعفها وعدم سيرها او عدم تحملها المشاق وغيرها من المعائب التي تهجر من اجلها الخيول والبغال والحمير . (3) وجميع هذه الاشعار من شعر جزل رائع .

فان انتقلنا الى الفن الثالث والرابع والخامس(3) نجدها كلها توشك ان تكون ادبا خالصا . « فقد اشتمل الفن الخامس منها ـ بنوع خاص ـ على كثير من الامثال وعلى كثير من اشعارهم التي تجري مجرى الامثال وذلك من لدن امرىء القيس الى العصر الذي عاش فيه النويري » (4) وهكذا نجد النويري قد اتى في جميع الابواب والفنون بطائفة من الاشعار ، في غاية من الروعة والجمال ، مما تضيف اليها من الصبغة الادبية قدرا يطغى على الفن الذي تخضع هذه المادة اليه وتشتمل هذه النبذة عليه . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ان النويري لم يفكر في وضع كتابه هذا في الادب بالمعنى المخصوص الذي حدده النقاد والعلماء قبل القرن الثالث الهجري . بل وسع نطاقه وجعله الادب بالمعنى العام الذي يشمل كل شيء بحيث **يأخذ من كل فن بطرف وذلك على غرار التأليف الذي كان شائعا في مصر في ذلك العصر** .

ومهما يكن من شيء ، سواء نظرنا الى الكتاب بمفهوم الادب قديما او بمفهومه الحديث ، فاننا لن نجد الكتاب خارجا من نطاقه الادبي في اي شيء . وعلى كل حال فانه يتوجب ان يعزب عن البال ان «**النهاية موسوعة**» قبل كل شيء ، ليس من شانها ان تقتصر على فن دون فن فلها رسالة اكثر اهمية وخطورة منه ، وهو **أن يكون سجلا حافلا لكل شيء على وجه الارض** . وبما ان صاحبها جبل على حبه للادب ، اتى بهذه الاشياء كلها

---

1) نهاية الارب ، ج : 10 ، صفحة 65 .
2) نهاية ، ج : 11 .
3) نفس المرجع .
4) الحركة الفكرية في العصرين الايوبي والمملوكي صفحة 320 .

باطار من الادب بحيث لا نتعدى الحقيقة اذا ما قلنا ان كتابه **موسوعة ادبية** .

واننا فى قولنا هذا، انما نتتبع آثار من سبقنا من العلماء الكبار ممن اعقبوه . فلقد وصفوا كتابه هذا بانه عمل ادبي ، عول عليه الادباء . فيقول ابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » المتوفى سنة 748 هـ « كان الباعث عليها (اى نقل الكتب القديمة وجمع الفنون فى سجل حافل) كما قلنا هو **جمع المعارف الانسانية كلها فى اطار من الادب مرة كما فى نهاية الارب للنويري ، ومن الجغرافيا كما فى كتاب الابصار ، ومن الكتابة الديوانية مرة ثالثة كما فى كتاب صبح الاعشى** » (1) .

ويقول جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي فى كتابه « النجوم الزاهرة فى اخبار ملوك مصر والقاهرة » الجزء التاسع ما نصه : « ... وكان يكتب فى كل يوم ثلاث كراريس . وتاريخه سماه « منتهى الارب فى علم الادب » فى ثلاثين مجلدا ، رايته وانتقيته ونقلت منه بعض شىء فى هذا التاريخ وغيره ». وفى عصرنا هذا يقول محمود رزق سليم فى كتابه « عصر سلاطين المماليك » « ... ويعتبر (اى نهاية الارب) **احد الكتب الجامعة الهامة ، ذات المواد العامة** وهو عمدة بين الكتب كذلك ، اعتمد عليه كثير من المؤرخين والادباء قديما وحديثا . (2)

تلك كلمات اوردناها عن المؤلف ، وعن الاوضاع التي الف فيها كتابه ، كما قلنا شيئا عن الكتاب نفسه : كل ذلك بشىء من الايجاز كثير . والان نحاول القاء نظرة فى شىء من التفصيل ، على ما اتخذه النويري من منهج لوضع كتابه هذا ، الذي اصبح فى العصر الحديث ، ولم يزل منذ الزمن القديم ، من **اهم المراجع لما كتبه الاوائل فى شتى الفنون والعلوم . والذي له الفضل الاكبر فى حفظ ما تركه لنا اسلافنا من تراث علمي عظيم .**

يستهل النويري الابواب والفنون عادة ، بمقدمة يكتبها هو بنفسه احيانا ، او ينقلها من الكتاب الذي يورد منه ماموماته حول هذا الباب او الفن فيذكر فى المقدمة ما حواه هذا الباب او الفن من موضوع، وهذا الموضوع من اقسام وابواب ، وما لكل قسم فى مادة خاصة ولكل فصل من علم معين .

ولناخذ على سبيل المثال مقدمته حول « الفن الاول » فى السماء والآثار العلوية والارض والمعالم السفلية » فقد كتب هذه المقدمة بنفسه يشرح فيها ما يحتوي هذا الفن من موضوعات وفصول واقسام فيقول :

« قد اوردت فى هذا الفن نبذة من **وصف السماء**، التي هي قبلة الدعاء وباب الرجاء، **والكواكب السيارات**، ذوات السنا والسناء، **والملائكة** الذين هم اولو اجنحة، مثنى وثلاث ورباع ، والسحائب التي تجود بوبلها ، فتعدل فى قسمها بين السهل والبقاع ، **والرعد** الذي ان دنت بحثها ، **والريح** الذي ان اجتمعت ببثها ، **والبرق** الذي شبه ببنان الحاسب والكف الخضيب والثلج الذي خلع على الارض رداء المشيب ، **وقوس السحاب** الذي تنكبه الجو فافرغ عليه مصبغات الحلل، ورمى الجدب ببنادق البرد فتباشرت بالخصب اهل الحلل ، **والنيران** وعبادها وعددها، **والسنة** وفصولها، **والاعياد** والمواسم ومتخذيها ، **والارض والجبال** والبراري والرمال ، **والجزائر** والبحار **والمياه** وامدادها ومددها ، **والليالي والايام والشهور والاعوام، والعيون والانهار ، وطبائع البلاد** واخلاق من سكنها من العباد ، **والمباني** والمعاقل **والقصور والمنازل** ... »

... وجعلته خمسة اقسام يستدل بها عليه ويتوصل من ابوابها اليه » (3) .

فنلاحظ ان هذه المقدمة تحتوي على جميع الابواب والفصول والمواد التي سيأتي بها فى هذا الفن. وذلك لكي يسهل على القارىء معرفة محتوياته بالقاء نظرة خاطفة على المقدمة . فالكلمات المكتوبة بالخط الكثيف تبدي بان هذا الفن تناول فى بحث هذه المواد، فى باب منفرد وبتفصيل واف .

فلناخذ « وصف السماء » مثلا . نجد ان النويري بداه بفصل يتعلق « فى مبدا خلق السماء » وبرهن عليه بآية قرءانية تقول « ا انتم اشد خلقا ام السماء ، بناها رفع سمكها فسواها واغطش ليلها واخرج ضحاها » ، ثم ذكر بان السماء تذكر وتؤنث

---

1) مسالك الابصار فى ممالك الامصار مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 3003 .
2) الجزء التاسع ، صفحة : 299 .
3) نهاية ، ج : 1 ، صفحة : 67 .

ايضا . فشاهد التذكير قوله عز وجل « السماء منفطر به » ، وقول الشاعر :

فلو رفع السماء اليه قومنا
لحقنا بالسماء مع السحاب

وشاهد التانيث قوله تبارك وتعالى « اذا السماء انفطرت » . وقول الشاعر :

يا رب ، رب الناس فى سمائه .

ثم اتى باسماء مختلفة للسماء اطلقتها العرب عليها (1) ثم تحدث عن سبب حدوثها . ليبحث فى باب ثان من هيئتها ، واسهب فيه اسهابا حول الموضوع من الاستدلال بالقرءان الكريم الى الاحاديث النبوية . ثم اتى بما ضربت من الامثال حول السماء وما انشد الشعراء من الاشعار فى وصفها والتشبيه بها . ومعظمهم اسلاميون . وذلك لان الجاهليين يندر عندهم وصف السماء والتشبيه الرائع بها فى كلامهم . ولقد ساق الامثلة على التشبيه بالسماء من اقوال مختلف الشعراء منهم عبد الله بن المعتز حيث يقول :

كان سماءنا لما تجلت
خلال نجومها عند الصباح

رياض بنفسج خضل نداه
تفتح بينه نور الاقاح

وفى النجوم قول ظافر الحداد :

كان نجوم الليل لما تبلجت
توقد جمر فى خلال رماد

حكى فوق ممتد المجرة شكلها
فواقع تطفو فوق لجة وادي

ومما قيل فى الفلك ، قول ابى العلا المعري :

يا ليت شعري ، وهل ليت بنافعه
ما ذا يراك ، او ما انت يا فلك

واحسن ما اورد فى هذا الصدد قول ابي عبادة البحتري :

اناة ايها الفلك المدار
انهب ما تصرف ام خيار

ستبلى مثل ما نبلى وتفنى
كما نفنى ويؤخذ منك ثار

وبعد الاستدلال بالاشعار ، يبدا الباب الاخر ، وينهج فيه نفس هذا المنهج حتى ياتي عليه .

وقد ياتي احيانا بـ « ذكر الشيء على طريق الذم» مثلا فصله الذي يقول فيه « ذكر شيء مما قيل فى الشمس على طريق الذم » ، واورد فيه بعض الاشعار للشعراء يجهلون الشمس او يذكرونها بطريق الذم كقول ابن سناء الملك :

لا كانت الشمس ، فكم اصدات
صفحة خد كالحسام الصقيل

او «ذكر القمر على طريق الذم» كقول ابن الرومي:

رب عرض منزه عن قبيح
منسته معرضات الهجاء (الابيات)

وهكذا ياتي بالاشعار لفحول الشعراء يهجون بها الشيء المعين او يعيبونه باقوالهم .

ومن المقدمات التي كتبها النويري بنفسه على هذا النحو ، مقدمته على الانساب ، حيث بداها قائلا « يقول الله سبحانه وتعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ...» ومعرفة انساب الامم مما افتخرت به العرب على العجم لانها احترزت على معرفة نسبها وتمسكت بحفيظ حسبها وعرفت جماهير قومها وشعوبها ... الخ (2)

فهذه المقدمة اوضح فيها النويري بايجاز ، ما يحتوي عليه هذا الباب من الموضوعات والمواد والفصول . ثم سار نفس المنهج الذي سبق ذكره فى نقل ما ضمن هذا الباب .

واحيانا يضيف النويري فى مقدماته الى الآيات القرءانية ، بعض الاحاديث ايضا التي تطابق الموضوع. مثلا مقدمته على « القسم الثاني من الفن الثاني — فى الامثال المشهورة » . فبعد ان بين الموضوعات التي اوردها فى هذا القسم يقول فى الباب الاول — (فى الامثال) ضرب الله عز وجل الامثال فى كتابه العزيز فى آى كثيرة فقال تعالى : « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » وتكرر ذكر الامثال . ثم يورد حديثا

---

1) ومنها : الجرباء والخلقاء وبرقع والرقيع وغيرها
2) نهاية الارب ، ج : 2 ، صفحة : 276 .

يناسب هذا الباب حيث يقول : « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الله صراطا مستقيما ، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة ، وعلى راس الصراط داع يقول ادخلوا الصراط ولا تعرجوا » (1) ثم **فسر الكلمات** التي وردت في هذا الحديث . وبعد ذلك اخذ في نقله عن الميداني من الاقوال حول الامثال وبيان ذلك . وكتابه المنقول منه الاقوال هو « مجمع الامثال » .

والعجيب أن النويري مع جلالة قدره وعلو كعبه في العلوم الدينية ايضا فقد وصفه معاصروه بانه فقيه بارع ، لا يتحاشى الاستدلال بالاحاديث الموضوعة ايضا. وانني بعد الدراسة والاستقصاء للاحاديث التي اوردها في كتابه بلغت الى هذه النتيجة وهي انه انما ياتي بمثل هذه الاحاديث الموضوعة او الضيقة ويستدل بها ، في اماكن ومسائل لا تتصل باي ركن من اركان الاسلام ، وذلك ان العلماء قد اجازوا الاستدلال بالاحاديث الموضوعة والضعيفة ، طالما لم تكن تنافي نصا قطعيا من القرءان الكريم او مسالة متفقا عليها باجماع الامة ، وبخاصة في المسائل التي لا صلة لها بالدين ، مثل الادب ومثله من العلوم الاخرى .

وقديما اخذ على الامام الغزالي وبعض العلماء الاخرين الاستدلال بالاحاديث الموضوعة والضعيفة في كتبهم . وقد اجيب عنهم ، انهم انما جاءوا بمثل هذه الاحاديث في كتبهم في مواضع ومسائل وامور لا تمس بالدين والمعتقدات الاسلامية المتفق عليها بسوء ، ابطالا او الغاء . بل جاءوا بمثل هذه الاحاديث في مواضع الذكر والعظمة والعبرة ، لكي يدعموا اقوالهم بقول النبي ولو كان ضعيفا . فلم ير العلماء باسا في الاستدلال بمثل هذه الاحاديث في موضع النصيحة والعظة والتذكير ، فهي بمثابة « الحكمة ضالة المؤمن ، فاينما وجدها فهو احق بالانتفاع منها والاستفادة بها.

— ◆ —

وبعد المقدمات التي يستهل بها النويري الفنون والفصول يبدا بنقل ما يطيب له من الكتب الهامة . وطريقته فيه انه يطالع الكتاب بدقة وتدبر وتفكر ، ثم يختار العينات والنبذات التي يفضلها على غيرها حسب الخطة التي قد اعدها من قبل ، ثم ينقلها في كتابه .

وطريقته في النقل انه احيانا يذكر المرجع او الكتاب الذي نقل عنه العينة او العبارة او المسالة . واكثر الاحيان لا يذكره . كما نجده يذكر المرجع بصراحة تامة حينا، ويشير اليه اشارة خفيفة حينا آخر.

وهنا نقف وقفة قصيرة ، لنذكر نبذة من الفصول التي اخذها من مختلف الكتب ولكنه لم يذكرها على الاطلاق ، لا اشارة ولا صراحة .

قال النويري : « واما ما ورد في ذم الشيب » قال قيس بن عاصم رحمة الله عليه : الشيب خطام المنية . وقال غيره : « الشيب نذير الموت »

وقال : « قد ورد في بعض التفاسير في قوله تبارك وتعالى « وجاءكم نذير » قيل هو الشيب .

الى قول عبد الملك بن مروان : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن .

اورد النويري هذه المقتطفات من العقد الفريد لابن عبد ربه (الجزء الثاني) ولم يذكر هذا المرجع على الاطلاق .

وهناك امثلة كثيرة نقل النويري الفصول والابواب من العقد الفريد باجزائه دون ان يذكر المرجع او يشير اليه .

ومن امثلة عدم ذكر المرجع ما نقله النويري في « فصل في الوزارة و اصحاب الملك » في (نهاية الارب ج 6 ص 92) فاكثره منقول من كتاب «قوانين الوزارة» للماوردي . اما « وصايا اصحاب السلطان » في نفس الجزء السابق ، فانها ماخوذة من « الادب الكبير » لابن المقفع .

وكذلك فصل « في وصف اعضاء الانسان » وفصل « ظهور الشيب » فانهما منقول لفظا وحرفا من « فقه اللغة للثعالبي . » وكذلك الفصول « في اسماء شعر الانسان من فوق لتحت » و « مما قيل في الحواجب » « وما قيل في العيون ووصفها » و « فصل ترتيب الصمم » وغيرها من فصول كثيرة ، منقولة من كتاب فقه اللغة للثعالبي دون الاشارة اليه .

وقد قال « الوزير ابو المغيرة ابن حزم عندما عرضت عليه رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب اليه وده بعد أن علم قال :

---

1) نهاية الارب ، ج : 3 ، صفحة : 2

« ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ويرقع خلـــق عهدنا ويطلب ما افاءته جريرتك الينا وذهبت به جنايتك علينا ايام غضك ناضر ، وبدرك زاهر لا نجد رســولا اليك ، غير لحظة تخرق حجاب الدموع ... الـخ » (نهاية ج 2 ص 87) .

نقل النويري هذه الرسالة بتمامها ضمن فصل « مما وصف به العذار على طريق الذم » في الفن الثاني ـ الباب الاول . ولكنه لم يذكر او يشر الى انه نقلهـا من كتاب « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » لابن بسام ، الجزء الاول صفحة 117 (1) .

ثم ان النويري اورد الكتاب المشهور الذي كتبه سيدنا علي رضي الله عنه الى مالك بن الحارث الاشتر عندما ولاه مصر ، والذي يتضمن نصائح واصولا غالية الثمن ، (نهاية ج 6 ص 19) نقله من كتـاب « نهـج البلاغة » للسيد الشريف الرضى (الجزء الثاني ص 79) دون ان يشير الى هذا الكتاب

— ◆ —

وهناك فصول وابواب ، يذكر النويري مراجعها. وذكرها في مثل هذه الابواب ينحصر في طريقتين :

احداهما : ان يكتفي بذكر اسم المؤلف دون ان يذكر كتابه الذي نقل منه العين . ومثاله حين يقول : « وروى ابو الفرج عن احمد بن عبيد الله بن عمار قال: كنا عند ابي العباس المبرد يوما،وعنده فتى من ولد ابي البحتري وهب بن امرد حسن الوجه » ثم الحكاية التي اوردها في ص 229 من النهايـة ج 4 . اورد هـــذه الحكاية نقلا عن الاغاني ، ولكنه لم يذكر اسم الكتـاب بل اكتفى بذكر المؤلف .

وقد نقل النويري اشياء كثيرة من كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني وبخاصة حياة واخبار الكرام (نهاية ج 3 ص 211) واخبار المغنيين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية ، واخبار وحياة اشهر المغنيين ، وحكايات القيان واول من غنى من النســاء ، وحيـاة اولاد الخلفاء ومن كان منهم يجيد او يميل الى الغناء وقرض الشعر مثل ابراهيم المهدي وعلية بنت المهدي وابو عيسى وابن المعتز وعائشة بنت طلحة وغيرهم .

على ان النويري لا ينقل من الاغاني كل ما ورد فيه ، بل يقتصر على الذي يطيب له ويصح عنده ، وما يطابق خطته من الموضوع . اما باقي العينات فانـه يحذفها عن وعي وادراك وبصيرة وقصد .

ومن امثله اكتفاء النويري على ذكر اسم واضع الكتاب دون الكتاب نفسه ، ما نقلـه عن ابن المقفـع حيث قال « وقال ابن المقفع « عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ... الخ »

ثم ان النويري لايهتم احيانا بذكر الاسم الكامل للمؤلف او الجامع، فيكتفي بذكره اما ناقصا او باختصار كبير يصعب على الباحث معرفـة اسمـه الكامـل ؛ وخاصة اذا كان للاسم المذكور لقب وكنية يعرف بها .

ونلاحظ ، ونحن نبحث في الكتاب ، أن النويري، الى جانب اقتصاره على ذكر اسم المصنف ، او كنيته او لقبه باختصار شديد او اهمال ذكر اسم المؤلف بـاتا او الكتب التي ينقل منها ، ان هناك شواهد تدل على ان النويري يعترف بصدر رحب وبصراحة تامة ؛ بان نقل هذا الفصل او الباب من كتاب يسميه ، ولمصنف بنعته نعتا واضحا . وذلك عند نقله من الميداني مثلا ، حيث يقول « ومن امثال العرب ما نقلـه مـن كتـاب « الامثال » للميداني .

وكذلك صرح بنقله من كتاب ابي البركات الجواني النسابة ، في الباب الرابع ، في الانساب . ويعترف بنقله منه قائلا « وقد وقفت على المقدمة التي وضعها الشريف ابو البركات الجوانـي ، فرغبـت له علمـا ونصبت له الى المعالي سلما » . ويبدو انه قرأ معظم الكتب الموجودة عصرئذ في هذا الفن ، ثم بعد ذلك اختار كتاب الجواني ، لانه « اتقـن اصولهـا وحـرر فصولها واورد فيها من الانساب ما ينتفع به اللبيب ويستغني بوجوده الكاتب الاريب » واكثر منه صراحة قوله « على الشريف الجواني العمدة فيمـا اوردتـه والعهدة فيما نقلته ، فمن تاليفه نقلت وعلى مقالتـه اعتمدت » (2) ثم بدأ ينقل منه بقولـه « قال السـيد

1) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسام ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 2348 ـ ادب
2) نهايـة الارب ج 2 صفحة 276 .

الشريف نقيب النقباء ابو البركات بن اسعد علي بن معمر الحسيني الجواني النسابة رحمه الله : ان جميع ما بنت عليه العرب في نسبها اركانها ، واسست عليه بنيانها عشر طبقات » . الا ان النويري غير ترتيب الجواني ، « وسرد النسب من اصله اى آدم عليه السلام » فالجواني بداه بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وبصفته الناقل المحض ، يعمد النويري الى بعض النبذات من كتاب انتخبه لموضوعه ، فينقلها لفظا وحرفا دون التصرف فيها بكلية . ومثال ذلك ما اورده من كتاب « ادب الكتاب » لابى بكر محمد بن يحيى الصولي (النهاية الجزء السابع صفحة 14) في فصل « وما قيل في حسن الخط وجودة الكتابة ومدح الكتاب الكتاب » حيث يقول « سئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق ان يوصف بالجودة ؟ قال : « اذا اعتدلت اقسامه وطالت الفه ولامه واستقامت سطوره ... » فلقد وردت هذه الكلمات بعينها في كتاب « ادب الكتاب » للصولي (صفحة 50) لفظا وحرفا .

ومن امثلته « رسالة الثقيفة » التي بعث بها ابو بكر الصديق الى علي رضي الله عنه عند توليته الخلافة . نقل النويري هذه الرسالة من « رسائل ابى حيان التوحيدي » . ولقد اتى بها لفظا وحرفا دون ان يعلق عليها بحرف ، مع العلم ان هذه الرسالة مشكوك فيها ومطعون عليها . (1)

وانما يعمل النويري كل هذا حسب خطة مرسومة محكمة التنسيق يضعها بعد فكر وروية وتدبر . فلقد راعى في تاليفه هذا ، ان يضع الابواب والفصول على ترتيب حسن منتظم ، حيث يسهل تناوله والاستفادة منه . فلم يكن يجمع كل رطب ويابس قراه او وصلت اليه يداه ، دون ان يفكر فيه من ناحية جودته والاستفادة منه والافادة وتقسيم فنه . حتى لا يدخل شيء في شيء لا يوافقه ، او فن في فن يغايره ، كما فعله الجاحظ في معظم كتبه . بل كان **منهج النويري فيه ، منهجا يضاهي منهج العصر الحديث في توظيف التاليف وتنسيقه** . فكان ينتخب فنا خاصا من الفنون ليطالعه ، فيجمع الكتب المتعلقة به اولا ، ثم يطالعها مطالعة دقيقة وافية ، وبعد ذلك يضع لهذا الباب او الفن خطة مرسومة واضحة دقيقة . يثبت فيها ترتيب كتابته ، وكيفية نقله من هذا الكتاب ، حيث ياتي بكل نبذة في محلها ويثبتها حيث يقتضي المقام اثباتها . فيبدا نقله مثلا من كتاب ، ويستمر فيه الى كلام او بحث خاص يحب نقله ، ثم يترك هذا الكتاب ليواصل نقله من كتاب آخر انتخب فصلا منه لنقله في كتابه وفي محل خاص منه . وهكذا بعد ما ينتهي من نقله من هذا الكتاب الى البحث او الفصل الذي يريده ، ينقل الى كتاب ثالث ، ليستانف نقله منه الى ان ينتهي الباب من كتابه .

وخير مثال لطريقته هذه ، ما اورده في القسم الخامس « في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه وما يجب له على الرعية ، وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء وقادة الجيوش واوصاف السلاح وولاة المناصب الدينية ، وفيه اربعة عشر بابا » .

وثمة ظاهرة اخرى ، جديرة بالذكر ، وهي ان النويري للغرض المنشود من وضع خطته يتصرف احيانا في النقل ايضا . وذلك ما نلاحظه عند نقله شروط الامامة من الاحكام السلطانية للماوردي . اذ ان الماوردي ذكر شروط الامامة بسبعة شروط ، اما النويري فقد جعلها ثمانية بجعل الذكورية والبلوغ ، صفتين منفردتين ، بحجة قول الله عز وجل وقول النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم انه لاجل هذه الخطة المرسومة ، يعمد فيغير احيانا ترتيب الكتاب المنقول منه ، عند ما ينقله في كتابه ، لكي ياتي حسب ما يشاء منه في خطته . ويطابق الاصول التي وضعها لنقله . وخير مثال لهذه الظاهرة ما نجده عند نقله من كتاب « اصول الاحساب وفصول الانساب » للجواني النسابة فتراه اورد كل شيء في قسم الانساب من هذا الكتاب ، الا انه غير ترتيبه حتى جعله ظهرا لبطن .

فقد سرد الجواني النسب من ابينا آدم عليه السلام وانتهى به الى نبينا صلى الله عليه وسلم ، فنسب بني هاشم الذي اورده الجواني في اول كتابه ، نقله النويري في آخر كتابه هذا الباب . (2)

---

1) جمع الدكتور ابراهيم الكيلاني هذه الرسائل ونشرها في دمشق عام 1951 .
2) اصول الاحساب صفحة 14 ونهاية ج 2 صفحة 360 .

وفى الكتاب امثلة كثيرة تدل على ان النويري يغير ترتيب المنصف ، وينقل نصه بترتيب وخطة وضعها هو . ومنها انه ما نقل من كتاب « ذم الهوى » لابن الجوزي (1) حوالي عشرين بابا فى « باب الحب والهوى والعشق والغزل وغيره » الا انه قدم بابا واخر آخر ، حسب رغبته وخطته .

وكان النويري الى جانب اختصاره للابواب والفصول من الكتب يختصر المطولة . فيورد منها ما يظنه انفع واكثر فائدة . فمن الكتب التي اختصرها كتاب « مجمع الامثال » للميداني بجزئيه .

فقد اودع الميداني كتابه «مجمع الامثال» حوالي ستة آلاف مثل ونيف (2) وطريقته فى نقل مثل ، هو انه**ياتي بالمثل ، ثم يسرد سبب اطلاق هذا المثل وقصته ، والشخصيات المتعلقة بها ، ومختلف الروايات والاقاويل التي يتناقلها المؤرخون والادباء حوله . ثم يورد اقوال النحاة والمتضلعين فى اللغة حول الكلمة** ان كان هناك اختلاف فى نطقها ، او تصريفها او فصاحتها ، وكل ما يتعلق من الناحية النحوية والصرفية واللغوية ، ويسهب فيه اسهابا ملحوظا .

اما النويري فانه عادة ينتخب من الامثال ، السائرة او كثيرة الاستعمال فى الادب او الكتب المتداولة ، او الامثال التي وردت بكثرة فى الاشعار ، او التي خفيفة على اللسان غزيرة فى المعنى ، دقيقة فى التعبير ، ثم يسرد المعنى الذي يستعمل فيه هذا المثل ، ولا يهتم بتحقيق الميداني فيما اورده من الكلام حول تصريف الكلمة وصحتها من الناحية اللغوية والادبية ، ومختلف الاقوال فى هذا الصدد . وان اخذ منها شيئا ، فتلك التي لا مندوحة له منها ، لفهم المثل وفهم مدلوله .

فلنر مثلا « ان العوان لا تعلم الخمرة » فلقد قال الميداني ، وهو يصف مختلف الاقوال حول كلمة « العوان » قال الكسائي : لم نسمع فى العوان بمصدر ولا فعل . قال الفراء يقال : عونت تعوينا وهي عوان بينة التعوين والخمرة من الاختمار كالجلسة من الجلوس ، اسم للهيئة والحال ، اي انها لا تحتاج الى تعليم الاختمار ، يضرب « للرجل المجرب » (3) .

اما النويري فقد اورد المثل وحذف ما قيل حوله من الاختلاف فى كلمة العوان وتشريح معنى الاختمار ، لانه ليس يكتب كتابا فى علم النحو او اللغة او المعاني ، وانما ياتي بما يستفاد به من هذا المثل وهو مدلوله فاكتفى بنقل مضرب المثل وموقعه (4) .

وكذلك يحذف النويري بعض الاحيان ، ما يورده الميداني من تفسيرات لغوية لبعض الكلمات الواردة فى المثل .

ثم ان النويري عند نقله لامثال من الميداني لا يهتم بالقصص التي اوردها حول الامثال . والسبب فيه هو ان النويري يقصد بنقل هذه الامثال ابرز معالم الادب وخفاياه والامثال احدى دعائمه . ولذلك نراه يقتصر على الحد ، سواء من القصة او شرح الكلمة . يرى فيه ان المثل اصبح واضحا بحيث لا يصعب فهمه . فان راى بان المثل غامض لا يمكن فهمه بدون اتيان القصة المشهورة حوله ، فانه ياتي بالقصة تاركا الحشو والزوائد ، مقتصرا على لبها وخلاصتها .

وكذلك اختصر النويري القصص والحكايات التي اوردها صاحب الاغاني عند الكلام عن المغنيين والشعراء واصحاب الظرف الفكاهة مثل ابن سريج ومعبد وابن محرز وغيرهم . فقد اتى فى كتابه ، من هذه القصص والحكايات ، تلك التي تفيد غرضه وتستسيغ نهجه وتلائم خطته ، من غير الانغماس فى تطويل ممل ، والاخذ من المينات والاقتباسات التي قد تكون موضع الشك والشبهة تاريخيا . فقد تكون لا تعتمد على برهان تاريخي او حجة لا تقبل الشك والريبة (5) .

وهناك امثلة يحذف النويري فيها القصة او الحديث كله ، ويكتفي بذكر موقع استعمال المثل

---

1) كتاب « ذم الهوى » لابن جوزي (ابو الفرج) مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 286 ــ ادب تيمور (فى مجلدين) .
2) مقدمة مجمع الامثال صفحة 5 .
3) مجمع الامثال للميداني ج 1 صفحة 16 .
4) نهاية ج 3 صفحة 9 .
5) راجع الاغاني للاصفهاني ، الجزء الاول صفحة 101 فما بعد . ونهاية الارب الجزء الثاني صفحة 225 فما بعد ، لاخبار المغنيين وغيرهم .

ومعناه فقط . وذلك عند نقله المثل « عند جهينة الخبر اليقين » . فبعد أن أورد الميداني هذا المثل ، نقل قصة طريفة ، رواية عن هشام بن الكلبي ، يذكر فيها بأن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب ، ورجلا من قبيلة جهينة يسمى الاخنس بن كعب خرجا يريدان قطع الطريق فسلبا رجلا لقياه في الطريق . فقال الرجل : ان تركتماني وشاني دللتكما على رجل تحت شجرة معه مغنم كثير فخليا سبيله . واتيا الرجل وهو من لخم . وكانت شجرة يستظل بها وامامه طعامه وشرابه ، فحياهما واشركهما طعامه . فاكلا وشربا . ثم ان الاخنس ذهب لقضاء بعض حاجاته . فلما عاد راى حصين قد قتل اللخمي واستولى على ماله . فجلسا يشربان وكل منهما يخفي في نفسه ريبة لصاحبه . وبعد قليل قال الحصين للاخنس هل تعرف زجر الطير ؟ فقال الاخنس ماذا ترى ؟ قال ارى عقابا كاسرا ، واشار اليه ومد عنقه الى الجهة التي كان العقاب فيها . فافتنم الاخنس هذه الفرصة وضرب عنقه بغتة . ثم انطلق عائدا الى بيته فاذا بامراة حصين تفتقده ، فقال لها ، انه قتله ولكنها لم تصدقه وقالت : « كذبت ما مثلك يقتل مثله اما لو لم يكن الحي خلوا ما تكلمت بهذا » . فمضى الاخنس واتى قبيلته وصالحها وكان غاضبا منهم ، ثم عاد الى امراة حصين وقبيلتها،و انشد حيث تسمع القبيلة :

وكم من ضيغم ورد هموس
ابى شبلين مسكنه العرين
الى ان قال :
تسائل عن حصين كل ركب
وعند جهينة الخبر اليقين

قال الاصمعي وابن الاعرابي : هو جفينة بالفاء ، وكان عنده خبر رجل مقتول وفيه يقول الشاعر :

تسائل عن ابيها كل ركب
وعند جفينة الخبر اليقين

قال : فسالوا جفينة فاخبرهم خبر القتيل . وقال بعضهم هو حفينة بالحاء المهملة ، يضرب في معرفة الشيء حقيقة (1) .

هذه هي القصة ، ومختلف الاقوال ، اوردها الميداني في كتابه حول المثل ، سردنا ها باختصار . الا ان النويري لم يذكر من هذه التفاصيل شيئا . بل اكتفى باتيان معنى المثل وموقع ضربه . فقال : « يضرب في معرفة الشيء حقيقة » (2) .

والواقع ان النويري كان يتحاشى اتيان الرطب واليابس في كتابه ، والروايات التي لا يتاكد من صحتها ، او التي هي منحولة موضوعة،او تقبل الشك والشبهة حتى لا يلقي بنفسه في اطناب ممل وان لا يكون موضع النقد بجمع كل ما وصلت اليه يداه دون اعمال الفكر والروية ، واختبار النبذات على محك علمي ، من شانه ان يميز الصدق من الكذب والغش والوضع . ثم ليأتي بالقصص والنبذات ، التي لها علاقة بالادب بصورة مباشرة .

ومن **الكتب التي اختصرها النويري على هذا النحو ، « فقه اللغة للثعالبي »** و الاحكام السلطانية للمواردي » و « قوانين الوزارة للماوردي » ، وكتاب حسن التوسل الى صناعة الترسل ، لمحمود بن سليمان الحلبي الحنفي و « ذم الهوى لابن جوزي » و « فصول الاحساب للجواني » و « كتاب المنهاج لنحليمي الجرجاني » وغيرها (3) .

— ◆ —

وفضلا عما يغنم به كتابه « نهاية الارب » من الموضوعات الطريفة ، والمواد الممتعة الشيقة ، التي تفيض علما وادبا وفنا ، مما استقاها من مواردها الاصيلة ، فقد اودع كتابه هذا ، من اجمل الاشعار واعذبها ، مما فاضت بها قرائح الشعراء ، حسن السبك وطلاوته ، وغزارة المعاني وعمقها ، ودقة البيان وحلاوته ورصانة التركيب واحكامه ، مما تتلذذ بها الطبائع ، وتطرب لها القلوب وتهتز لها المشاعر . كما تدل على ما اوتي النويري من حظ وافر في حسن الاختيار ، وعلو كعبه في الذوق الشاعري اللطيف ، ومعرفته الواسعة بدواوين الشعراء والكتب، واستخلاص الدرر الغرر من هذا البحر الزاخر . ثم تركيبها في مواقعها بحيث انتظمت في سلك ، تتلالا حسنا وجمالا . فلا يمل القارىء ، وهو يمضي بادق فن واصعبه في كتابه ، بل ينسى ما كابده من جهد وتعب اثناء قرائته لمثل هذه الفنون الدقيقة ، المسيرة الفهم والادراك عندما يبلغ به المطاف الى هذا الجزء

---

1) مجمع الامثال للميداني ج 1 صفحة 391 .
2) نهاية ج 3 صفحة 39 .
3) الكتب الاخيرة الثلاث مخطوطات بدار الكتب المصرية ، لم تطبع بعد .

من الكتاب الذي ضمنه النويري الاشعار ، المتعلقة بهذا الفن ، ومهما كان دقيقا او صعبا . ويجد به متعة وبهجة قلما تضاهيها متعة وبهجة . كانه وصل ارضا ناعما سهلة نضرة ، بعد طوال الشقة ، قضاها في ارض وعرة المسالك .

ومنهج النويري في نقل الاشعار هو ، انه يأتي بباب او فصل من قسم خاص مثلا ، فينقل في هذا الباب او الفصل ما طاب له ان ينقل فيه من الكلام حول الموضوع الذي يبحث فيه الباب ، لكبار الادباء الناثرين والعلماء ، فلما ينتهي من نقله يحاول ان يطبق على ما كتبه من اقوال الشعراء وكلامهم ، فيخوض في دواوين الشعراء والكتب الادبية الاخرى لكي يلتقط منها جميع الاشعار التي تطابق ما اورده من النثر في الفصل السابق فيثبتها في محلها اللائق ، لكي لا يجد القارىء في نفسه كلالا وتعبا من الاقتصار على موضوع صعب جاف . وحتى يجمع كل ما قاله الكبار من الادباء من نثر ونظم حول الموضوع . وبذا يضيف الى ما اورده في كتابه صبغة ادبية ، تميزه من سائر الكتب الادبية . ولكي يسجل مقال الشعراء في هذه الموضوعات بترتيب خاص ، يمكن الاستفادة منها والرجوع اليها في مكان واحد دون الخوض في الدواوين المختلفة ومجموعات كلام الشعراء ، دون ضياع الوقت وتحمل المشقة للبحث والتنقيب . وطريقته فيه انه يحاول جهده ان يبدأ بنقل الاشعار من الجاهلية فالاسلاميين الى المولدين والمحدثين ، ولو يختلف هذا الترتيب في بعض الاجزاء من الكتاب ، لعدم تمكنه من الاستمرار على هذه الطريقة ، اما لضئالة الاشعار عند القدماء في هذا الفن او الموضوع ، واما ، ان كانت لديهم ، فهي ليست من الجودة بحيث يثبتها النويري في كتابه ، مثل التشبيهات الرائعة التي فشت في عصر المولدين ، **او الاشعار في صفة الرياحين والبساتين والقصور او تصوير المناظر الخلابة ، مما لا نظير لها في الشعر الجاهلي** . ثم ان النويري لا يزيد من عدد الابيات مخافة الاطالة ، بل يقتصر عادة على بيتين او ثلاثة ابيات ، ومنها ايضا على البيت القصيد في معظم الاوقات .

ولنقف برهة عند « الباب الثاني من القسم الاول من الفن الثاني » لنرى منهج النويري في نقل الاشعار . وذلك لان هذا الباب خير مثال لطريقته فيه . وهذا الباب يبحث في « اعضاء الانسان » وتشبيهها .

ابتدأ النويري هذا الباب من شعر الانسان . فنقل من فقه اللغة للثعالبي اسماء الشعور بمختلف اقسامها . فلما فرغ من اسمائها وتفاصيلها وضع فصلا ، جمع فيه ما قالته الشعراء حول الشعر عامة وحول شعور النساء بوجه خاص . واحسن ما اورد في وصف شعر الرجال قول ابن الرومي :

وفاحم وارد يقبل متئد
كشاه اذا اختال مرسلا غدره
اقبل كالليل من مفارقه
منحدرا لا يدم منحدره
حتى تناهى الى مواطئه
يلثم من كل مواطىء عفره
كانه عاشق دنا شغفا
حتى قضى من حبيبه وطره

وقول فتح الدين بن عبد الظاهر :

حل ثلاثا يوم حمامه
ذوائبا يعبق منها الغوال
فقلت ، والقصد ذؤاباته
يا سهري في ذي الليالي الطوال

وقول آخر :

رايت على قد الحبيب ذؤابة
فعيني على تلك الذؤابة تهمع
يقول لي الواشون : مالك باكيا
فقلت : بعيني شعرة فهي تدمع

ومن احسن ما انتخبه في وصف شعر النساء : قول بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام فرعها
وتغيب فيه فهو جثل اسحم
فكانها فيه نهار ساطع
وكانه ليل عليها مظلم

وقول آخر :

نشرت على ذؤابا من شعرها
حذر الكواشح والعدو المحنق
فكانني وكانها وكانه
صبحان باتا تحت ليل مطبق

ومن قول المتنبي :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها
في ليلة ، فارت ليالي اربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها
فارتني القمرين في وقت معا

وقد الم في ذلك بقول ابن المعتز :

سقتني في ليل شبيه بشعرها
شبيهة خديها بغير رقيب
فامسيت في ليلين بالشعر والدجى
وشمسين من خمر وخد حبيب

وقول ابن الدريد الازدي :

غراء لو جلت الخدود شعاعها
للشمس عند طلوعها ، لم تشرق
عمن على دعص تالق فوقه
قمر تالق تحت ليل مطبق
لو قيل للحسن : احتكم لم يعدها
او قيل : خاطب غيرها ، لم ينطق
فكاننا من فرعها في مغرب
وكاننا من وجهها في مشرق (1)

وفي الكتاب ابيات اخرى قيلت في شعر النساء، الا انني اخترت احسن ما وجدته تعبيرا ووصفا .

فلما فرغ من نقل الاشعار حول الشعر ، اتى بفصل آخر ، بين فيه بمناسبة الشعور ، « ما قيل في الشيب والخضاب من مدح وذم » اورد في هذا الفصل من النثر ما كتب حول الموضوع . اردفه باشعار تذم الشيب والخضاب واخرى تمدحه وترحب بمقدمه . ثم ذكر نظرة المراة الى الشيب وعوارضه ثم بدا باعضاء الانسان من نثر ونظم . فاجمل ما قيل في وجه المذكر قول الوجيهي :

ومستقبل بالذي يهوى ، وان كثرت
منه الاساءة ، معذور بما صنعا
في وجهه شافع يمحو اساءته
من القلوب ، وجيها حيثما شفعا

ومنه اجمل ما قيل وجه المؤنث قول ابن سكرة:

في وجه انسانة كلفت بها
اربعة ما اجتمعن في احد
فالخد ورد والصدغ غالية
والريق خمر والثغر من برد
لكل جزء من حسنها بدع
تودع قلبي ودائع الكمد

ومن اجمل ما قيل في الحواجب قول الزاهي :

واغيد مجدول القوام جبينه
سنا القمر البدري في الغصن الرطب
تنكب قوس الحاجبين فسهمه
لواحظه المرضي ، وبر جاسه قلبي

وما قيل في العين بلفظ التذكير قول عبد الله ابن المعتز :

عليم بما تحت الصدور من الهوى
سريع بكر اللحظ والقلب جازع
ويجرح احشائي بعين مريضة
كما لان مس السيف والسيف قاطع

ولقد اجاد جرير في وصف عين مريضة اذ قال:

ان العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن اضعف خلق الله اركانا (2)

وكذلك اتى بنخبة ممتازة من **الاشعار حول الخصر والمشي واليدان وغير** ذلك من الاعضاء . فابدع فيه واجاد الاختيار .

ولقد ابدع ابن الرومي عند ما جمع اكثر المزايا والاوصاف التي تستحسن من المحبوب حيث قال !

مخففة مثقلة تراها
كان لم يعد نصفيها غداء
اذا الاغباب جدد حسن شيء
من اشياء جددها اللقاء
لها ريق تشف له الثنايا
ويروى عنه ـ لا منه ـ الظماء
وانفاس كانفاس الخزامي
قبيل الصبح ، بلتها السماء
تنفس نشرها سحرا فجاءت
به سحرية المسرى رخاء

وقد اعتمد النويري في انتخاب اشعاره على دواوين الشعراء اولا ، ثم « كتاب المنتحل » للثعالبي ، فالعقد الفريد لابن عبد ربه ، فعيون اخبار لابن قتيبة،

---

1) نهاية الارب ج 2 صفحة 20 .
2) راجع لهذا الموضوع نهاية الارب ج 2 من صفحة 21 فما بعد .

« وزهر الآداب » للحصري القيرواني و « ديوان المعاني » لابي هلال العسكري وكتاب « نفح الطيب » وغيرهم من المصنفين والادباء .

ولاحظنا ، عند تصفح الاشعار التي اوردها النويري ، انه عند نقله الاشعار من الجامعين وكتبهم ، يقتصر على ما اورده الجامع ، واحيانا يضيف عليه بيتا او بيتين . وطورا نراه يترك ما اورده المصنف بتاتا ، ويأتي بشعر من انتخابه هو يلائم الموضوع . وذلك ان النويري اديب يحظى بقسط اوفر من حسن الذوق الشعري والادبي وله ملكة حسنة في الاختيار ، فهو عندما يرى ان الجامع لم يحسن الانتخاب من كلام الشعراء حسب الموضوع او المناسبة ، يقوم هو بنفسه في البحث في الدواوين ومجموعات كلام الشعراء ، عن كلام يناسب الموضوع والمناسبة ، ثم ينتخب احسنه ويثبته في محله . وخير مثال لهذا ما نقله من الاشعار في تمثيل الامثال ، التي اقتبسها من كتاب المنتحل للثعالبي من الباب العاشر « في الامثال والحكم والآداب » . فنراه انه لم يقتصر على ما اورده الثعالبي في هذا الصدد ، وانما اختار بنفسه واضاف عليه . فالثعالبي مثلا لم يتمسك بترتيب عصور الشعراء وزمانهم ، فخلط فيما بينهم ، حيث اورد شعر الجاهلي ، اعقبه بمولد ، ثم مخضرمي باسلامي ، وهكذا في سائر كتابه . اما النويري فانه اهتم اهتماما بالغا في ذكر الاشعار حسب ترتيب عصر الشعراء . فابتدأ بالجاهليين ثم العباسيين فالمحدثين والمولدين ، الى ان بلغ الى عصره .

فاذا القينا نظرة على ما اورده النويري ، من الاشعار المنتخبة في كتابه يتضح لنا بانها تشمل نخبة قيمة ممتازة من روائع الشعر في شتى اصناف المعاني والموضوعات ، يتعذر وجوده في كتاب واحد. وهذه الصبغة تضفي على نهاية الارب صبغة تجعله ـ حقا ـ موسوعة شعرية ، تشمل كلام الاوائل والجدد في مختلف المعاني والموضوعات والمواد ، بترتيب حسن وبنظام منسق مقبول . فالباحث يستطيع ان يستخرج من هذا الكتاب اشهر بيت قالته العرب وفي اي معنى شاء ، دون جهد او مشقة بالغة ، ولشعراء جميع العصور التاريخية المختلفة . وتلك ميزة ينفرد بها هذا الكتاب . وفضلا من هذا فان هذه الاشعار تشير الى ان النويري كانت له يد طولى في انتخاب اشعار وذلك بفضل هذا الذوق الرفيع والحس الشاعري اللطيف الذي يتمتع به . فاننا نراه لم يات بشعر مهلهل متفكك ، وانما جاء بنخبة كلها من الطراز الممتاز . ومن جميع النواحي ، من ناحية جودة الالفاظ وحسن سبكها وروعة نظمها ومن ناحية المعنى واداء الغرض والمطلب الذي اورده لاجله . وهذا خير دليل على سعة علم النويري بفنون القريض والشعر واسراره ، ودقة نظره في خبايا هذا الفن واستخراجه. ومدى اطلاعه على المصادر الشعرية والمراجع . وعلى هذا الوله الادبي ، الذي حفزه على ان يتعب نفسه ويبذل كل جهوده ، في جمع هذه الاشتات المبعثرة في الكتب والدواوين المختلفة الكثيرة ، حتى قدمها الينا في صورة باقة جميلة تزينها انواع واشكال من الزهور والورود .

وهكذا يتضح لنا من دراسة كتاب « نهاية الارب في فنون الادب » ، وما سلكه النويري من منهج لتاليف موسوعته هذه ، التي لها اكبر فضل في حفظ قدر ملحوظ من تراثنا القديم ، مما تركه لنا اسلافنا خلال القرون الست التي مضت على التاريخ الاسلامي الحافل . فمنهج النويري قيم ، لا غبار عليه ، يقوم على فكرة وروية واضحين . وقد تم التاليف بطريقة يمكن الاستفادة منه استفادة تامة. ماعدا عدم ذكره المراجع، مما يكابد الباحث والدارس لمراجعه ، مشقة العثور عليها في مختلف الكتب ، فتقسيم الكتاب على فنون ، وهذه الفنون على ابواب وفصول ، وكل فصل ضمن علم خاص او نبذة معينة ، ليسهل على الطالب مهمة البحث المضني ، اذا لم يكن مدونا بهذه الصورة . ككتب الجاحظ التي هي الاخرى موسوعة بمجموعها . ولكن المرء يحتار امام هذه المجموعة غير المرتبة ترتيبا لائقا ، فلا يبلغ مناه الا بعد طول المشقة وكبير عناء . ثم يمتاز كتاب النهاية بعدم اخلاط موضوع في موضوع آخر ، كالذي تجده في كتاب « الكامل للمبرد » او لسان العرب لابن منظور . فانهم يتكلمون عن موضوع ويسهبون فيه اسهابا حتى يخيل الى القارىء ، انهم نسوا الموضوع الحقيقي ، ولكنهم يرجعون الى الموضوع الحقيقي بقولهم « رجع القول الى .... » . اما النويري فانه لا يعمد الى موضوع ثان ما لم ينته من الموضوع الاول الذي كان يتكلم حوله . ولقد بالغ النويري في نزاهة كتابه من هذا النوع من « الخلط بالمبحث » الى حد ، انه اثناء نقله من الكتب ، اذا وجد شيئا عارضا ، على الموضوع الاصلي الذي يتناوله ، يحذفه بتمامه ، ويواصل نقله من الجزء الذي يتصل الكلام فيه بالكلام الحقيقي . ولاجل هذا نراه يحذف صفحات كثيرة متتابعة من الكتب المنقول عنها ، او نجده ينتقل من جزء الى جزء

آخر من الكتب ، ليواصل موضوعه الاصلي بدون عارض ، او « الخاط بالمبحث » . ونلاحظ هذه الظاهرة واضحة ، عند نقله « اخبار المغنيين والمغنيات» من الاغاني التي يسهب صاحبها احيانا في سرد اخبار لا تتعلق بالشخصية التي يتكلم عنها وانما هي عوارض اما النويري ، فانه يحذف هذه الزوائد والحشو . ويقتصر على الموضوع الذي يتناوله بالكلام .

وقد حاول النويري اثناء نقله ، تسديد الخطأ الذي وقع فيه بعض المصنفين . فروى الثعالبي مثلا . بأن الشعر القائل :

وما ينهض البازي بغير جناحه
ولا يحمل الماشين الا الحوامل
اذا انت لم تعرض على الجهل والخنا
اصبت حليما او اصابك جاهل

قال « انه لعبيد الابرص » (1) الا ان النويري ضبطه لاوس بن حجر . ولقد تصفحت ديوان عبيد الابرص بنفسي ، فلم اجد فيه هذا الشعر ، وما قاله النويري فيه هو الصحيح .

ثم ان النويري لا ينغمس في المسائل المختلف فيها . مثل مسألة سماع الغناء ، او مزاولة الاذكار والادعية ، وخاصيتها التي يعتقد بها الطائفة الصوفية. فانه في مثل هذه المسائل يقتصر على نقل آراء الجانبين دون ان يبدي رايه، فيرجح هذا ويسفه ذاك. او يميل الى هذه النظرية ، ويتغاضى عن تلك . بل يترك القارىء حرا يتصرف فيه ـ بعد معرفة راي الجانبين ـ كيف شاء وباية طريقة يفضلها على غيرها.

والى جانب هذه المزايا التي تمتاز بها موسوعة نهاية الارب ، هناك اغلاط لم يسلم النويري من اقترافها . ولكنها اغلاط بسيطة ، لايؤبه بها . مقارنة بعلمه العظيم هذا فقد ذكر النويري مثل اسم « سموئيل بن العاديا » بين الشعراء المخدلين ، والحقيقة انه من شعراء الجاهلية دون اختلاف . والغريب في الامر ان مصححي الكتاب ايضا لم ينتبهوا الى هذا الخطأ الفاحش ، فطبع الكتاب حاملا هذا الخطأ . ثم ان النويري ذكر اسم خصي معاوية بـ « رفيق » في قصة تزويج معاوية يزيد (2) . ولقد اخذ هذه القصة من « الامامة والسياسة » لابن قتيبة الا ان ابن قتيبة ذكر اسمه بـ « رقيق » وذلك هو الصحيح ، كما ورد في جميع النسخ الموجودة ، المطبوعة في مختلف المطابع . وكذلك اورد اسم محبوبة يزيد بانها « زينب بنت اسحق » الا ان اسمها الصحيح هو « زينب بنت اسحاق » (3) .

وهناك غلطة عجيبة وقع فيها النويري لم ادر كيف . ومن اين وهو استعمال كلمة « السبا » بدل كلمة « الجسأ » بمعنى « ان يمسر على الانسان فتح عينيه » . اذ ان كلمة « السجا » لا توجد بالقواميس وليس لها اي مدلول او معنى (4) ويبد لي بأن هذه الاغلاط وقعت من الناسخ اذ ان النويري مع غزارة علمه ووفرة اطلاعه ، يستبعد ان يقع في مثل هذه الاغلاط .

والعيب الاساسي الذي يؤاخذه الباحث عليه ، هو انه لا يذكر المرجع عادة ، وخاصة في العلوم الادبية ، وعدم ذكره له يجعل الباحث في حيرة من امره . حيث يضيع الوقت في البحث . فكثيرا ما تستغرق نبذة وجيزة للبحث عن مصدرها ساعات وايام في بعض الاوقات ، مثل ما حدث لي عند البحث عن العين الذي اتخذه من الذخيرة لابن بسام . فقد استغرق عن هذا الاقتباس مني حوالي ثمانية ايام . ثم انه عندما يضيف شيئا الى ما ينقله من كتاب آخر لا يشير اليه ، مما يوهم الباحث انه ايضا من اصل الكتاب ، والحال انه من عنده . كما حصل عند جعل شروط الامامة ثمانية شروط ، بدل سبعة شروط كما اوردها الماوردي .

ومهما يكن ، فليس من شك ، بأن منهج النويري في كتابه هذا ، **منهج يضاهي احسن مناهج عصرنا الحديث** ، الذي تقدمت فيه صناعة التاليف اي تقدم. ولمنهجه الواضح المفيد ، ولما يحوي من الموضوعات الغزيرة والعلوم النافعة المتنوعة « يعتبر احد الكتب الجامعة الهامة ، ذات المواد العامة وهو عمدة بين الكتب كذلك . اعتمد عليه كثير من المؤرخين والادباء قديما وحديثا » (5) .

---

1) المنتحل للثعالبي صفحة 171 .
2) نهاية ج 6 صفحة 183 .
3) راجع الامامة والسياسة ، لابن قتيبة .
4) راجع لهذه الكلمة : اقرب الموارد لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني وتاج العروس : لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي (فصل الجيم من باب الهمزة) واللغات الاخرى .
5) عصر سلاطين المماليك : لمحمود رزق سليم ج 3 صفحة : 125 .

تحقيقات

- الكشف عن معجم لغوي مفقود في بغداد
  للاستاذ عبد الهادي التازي

- مختصر الالفاظ (لاحمد بن فارس)
  حققه وقدم له : الاستاذ هلال ناجي

- ابن خالويه اللغوي ونسبة كتاب « الحجة » اليه
  للاستاذ عبد العال سالم مكرم

- نسبة « الحجة » الى ابن خلويه لا تصح ..
  للاستاذ العابد الفاسي

- حول تحقيق كتاب ابن الجوزي : « تقويم اللسان »
  للاستاذ محمد ابراهيم الكتاني

533

الكشف عن معجم لغوي مفقود في بغداد

الأستاذ عبد الهادي التازي
سفير المملكة المغربية في العراق

حركة التاليف المعجمي عند العرب مرت عبر القرون بمراحل متعددة ، اولها : مرحلة كتب الصفات او الغريب المصنف ، ومنها جمعت مفردات الباب الواحد وضمت الى بعضها ، ومن نماذجها كتاب المطر والسحاب لابن دريد البصري والغريب المصنف لابي عبيد ، والمخصص لابن سيده الاندلسي .

وثانيها : مرحلة معاجم الالفاظ ، ومنها رتبت المفردات بالنسبة لحروفها لا الى معانيها ، واولها معجم العين للخليل بن احمد البصري ، وتلاه التهذيب والمحيط والمحكم والقاليين والمجمل والجمهرة والصحاح والعباب واللبان والقاموس المحيط وتاج العروس .

وثالثها : مرحلة معاجم المعاني ، وقد رتبت فيها الالفاظ الخاصة بمعنى من المعاني في باب واحد ، وابرز نماذجها كتاب الالفاظ لابن السكيت ، وجواهر الالفاظ لقدامة بن جعفر ، والالفاظ الكتابية للهمداني ، وفقه اللغة للثعالبي .

وكنت بعض المراجع القديمة تذكر كتابا مهما من هذه الكتب ، وهو معجم (متخير الالفاظ) تصنيف العالم اللغوي الجليل احمد فارس الرازي المتوفى سنة 395 هجرية ، ولكنه كان يعد في المعاجم التي عدا عليها الزمن وفقدت مع ما فقد من آثار السلف .

ومؤخرا عثر الباحث العراقي الثبت الاستاذ صدر ناجي على المعجم المذكور ضمن مخطوطات اسرته ، فحققه على مخطوطتين : الاولى تعود للقرن السادس الهجري ، والثانية كتبها جده العلامة السيد عبد الوهاب بن عبد الرزاق الحسني البغدادي امير الخطاطين في عصره في بواكير القرن الرابع عشر الهجري ، والكتاب المذكور ، ذكره ياقوت في معجم الادباء 84/4 والانباري في نزهة الالباء ص 321 ، كما ذكره ابن فارس في عداد مؤلفاته في آخر الجزء الثاني المخطوط من معجم (الجمل) .

رتب ابن فارس معجم (متخير الالفاظ) على ابواب المعاني في مائة واربعة عشر بابا ، وميزته الاساسية انه قد حفل بالالفاظ المفردة المنتقاة والالفاظ المركبة التي ابتكرها الشعراء في تشبيهاتهم ومجازاتهم واستعاراتهم ، كما حفل بالامثال المنتقاة ، والاقوال الجارية مجراها، مؤكدا ان اول ما يجب على الكاتب والشاعر اجتباء السهل من الخطاب، واجتناب الوعر منه ، والانس بانيسه والتوحش من وحشيه ، وهو كثير الاستشهاد بالشعر ، وشواهده من عيون الشعر العربي لفظا ومعنى .

وقد بذل الاستاذ صدر ناجي في تحقيق هذا المعجم جهدا ضخما حتى ناهزت مصادره ومراجعه الاربعمائة كتاب ، من بينها عدد غير قليل من المخطوطات .

ويعتبر عمله هذا اول محاولة يقوم بها باحث عراقي في نشر معجم عربي قديم .

والكتاب معد للطبع حاليا، وقد قدم له الصديق المحقق بمقدمة موسعة ، تحدث في ختامها بلغة شعرية مؤثرة عن نوافعه في تحقيق هذا المعجم فقال ما نصه : « حققت قبل هذا عددا من الكتب ونشرتها وشرعت في تحقيق أخرى ، لكني لم اشعر ابدا ان كتابا غير المتخير اصبح جزءا من كياني ولوذا في جناني وبعضا من بياني ، ذلك ان روابط ممتدة الجذور موغلة عبر الزمن كانت تشدني اليه شدا بوشائج روحية غير منظورة، من هذه الروابط، ان مخطوطته الام الفريدة حفظها للعربية عم ابي السيد احمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وان مخطوطته الثانية كانت بخط جد ابي المرحوم عبد الوهاب ابن عبد الرزاق بن محمد بن ابراهيم الحسني البغدادي امير الخطاطين في عصره ، فبيني وبين المخطوطتين نسب ووشيجة ، وبيني وبينهما رحم وآصرة وقربى . ثم ان من هذه الروابط ما عرف من عناية اسرتنا بمعاجم اللغة جيلا بعد جيل » ثم عرض لنفائس مخطوطات اسرتهم اللغوية حتى قال : « ان هذه العناية كانت تدفعني دفعا وتحفزني حفزا ، لاني اصل حبل النسخ والحفظ في اسرتنا بحبل التحقيق والنشر ، فاقوم باخراج متخير الالفاظ الى عالم المطبوعات بعد ضياع استمر الف عام ، وفاء للعربية واحياء لبعض تراث الاسرة، وهكذا صاحبت ـ المتخير ـ قرابة عام، كان فيه سميري كل ليلة ونجي كل دجنة ، وكان منه صاحبا ومحدثا واليفا، اصوب منه ما حرف محرف وصحف مصحف فلا يسام ولا يضجر، واقطع الليل اخرج بيتا لشاعر او قالة لناثر فلا يحول ولا يتغير ، وكم غبت عن دنياي وانا اعرض نصا على معدد ، حتى اذا ضجعت للفور تالية النجم ، واخذ الليل في طي الربط ، وتبين الخيط من الخيط ، ردني الى دنياي مؤذن ينادي : ان حي على الفلاح .. قد قامت الصلاة، فانسلخ من مقعدي اذ ينسلخ النهار من الليل ، واذ ينشق النور عن الظلمة ، وعلى مثل هذا كان لقاؤنا وافتراقنا قرابة عام » .

بمثل هذا الاسلوب الشاعري المتدفق قدم المحقق الصديق لهذا المعجم الفريد .

ومجمل القول ان نشر هذا المعجم سيكون اضافة قيمة للمكتبة اللغوية .

وفي تقديري ان هذا المعجم بالذات لا غنى عنه لكل كاتب وشاعر ، وعسى ان نراه في عالم المطبوعات قريبـــا .

مُتَخَيَّرُ الألفاظ

تصنيف

أحمد بن فارس

المتوفى سنة ٣٩٥ هـ

حققه وقدم له

هلال ناجي

(بغداد)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عصر المصنف :

ولد ابن فارس ومات فى القرن الرابع الهجري وهو قرن تمزق الوطن الاسلامي فيه الى امارات ودويلات يغير بعضها على بعض ويسعى بعضها للاطاحة ببعض . ففي نهاية الربع الاول من هذا القرن اصبح المغرب وافريقية بيد الفاطميين ومصر والشام بيد ابن طغج الاخشيد وديار بكر وديار ربيعة ومضر والموصل بيد الحمدانيين والبصرة وواسط والاهواز بيد البريديين واليمامة والبحرين فى يد القرامطة وفارس والري واصبهان وهمذان فى يد بني بويه وكرمان فى يد محمد بن الياس وطبرستان وجرجان فى يد الديلم وخراسان فى يد نصر الساماني ولم يبق للخليفة العباسي سوى بغداد واعمالها فاصبح رمزا دينيا لا سلطانا دنيويا ولا سيما بعد أن دخل البويهيون بغداد سنة 334 هـ .

وشاع الخلع والسمل والقتل الذي تعرض له خلفاء العباسيين فى هذا القرن . خلع القاهر وسمل ؛ وخلع المتقي لله وسمل وخلع المستكفى لله وسمل وجرت فى تلك الايام حروب وفتن ونهبت دار الخلافة وفى عام 334 هـ سيطر نبو بويه سيطرة تامة وصار الخليفة المطيع لله لا امر له ولا نهي ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر . هذا غير الخلفاء الذين قتلوا كابن المعتز وسواه .

ويصف البيروني بعبارة صادقة ومؤثرة فقدان العباسيين لسلطانهم الدنيوي وسيطرة بني بويه على الدولة والملك بقوله :

« وان الدولة والملك قد انتقل فى آخر ايام المتقي واول ايام المستكفي من آل العباس الى آل بويه والذي بقي فى ايدي الدولة العباسية انما هو امر ديني اعتقادي لا ملك دنياوي فالقائم من ولد العباس الان انما هو رئيس الاسلام لا ملك » .

وهكذا خرج الامر من يد العباسيين وصار فى يد الدخلاء من بني بويه حتى سنة (451) هـ .

ويصف المقدسي بغداد في هذا القرن فيقول : « اما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب .. وهي في كل يوم الى وراء اخشى انهـا تعود كسامرا مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان » .

الحالـة الاقتصاديـة والاجتماعيـة :

تردت الاحوال الاقتصادية في هذا العصر ترديا بالغا وشاعت المصـادرات ، وكانت المصادرة اكبر خطر تعرضت له الملكية الخاصة في القرن الرابع الهجري وكانت تصيب المثرين ولا سيما الموظفين منهم وكان التجار والاغنياء من الاهلـين عرضـة للمصادرة احيانا وقد حفظ مسكويه لنا قائمة بالمصادرات بين سنة 296 هـ ــ 381 هـ. وفي فترة التغلب البويهي هبط مستوى المعيشة لسكان العراق .

وقاسى الفلاحون بصورة خاصة من كثرة الضرائب ومن جشع الموظفين وعدم ضبطهم ومن خراب نظام الري الشيء الكثير .

وتضاءلت الخدمات الاجتماعية التي تقوم بها الدولة في هذه الفترة وتسنـم الغرباء احسن الوظائف واصبح مستوى الاهلين في عداد الطبقات المتوسطة والفقيرة. وانخفض دخل الخليفة والوزير والموظفين المدنيين عامة في الفترة البويهية في حـين ارتفع دخل رجال الجيش . وتعرض العراق لفترات غلاء ومجاعات ، ويمكن القول على وجه الاجمال بأن التغلب البويهي كان حدا فاصلا بين فترتين اذ انه اثر على الاقتصاد الزراعي وعرقل نمو المؤسسات التجارية والمصرفية .

وفي هذا القرن اشتد الصراع المذهبي وادى الى مصادمات دموية هلك فيهـا كثيرون ويذكر ياقوت في معجم البلدان ان بلدانا كثيرة خربت ودثرت بسبب هـذا الصراع البغيض .

الحالـة العلميـة والأدبيـة :

ان السوء الذي انتهت اليه الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المملكة الاسلامية خلال هذا القرن لم يصاحبه سوء مماثل في الحالة العلمية والادبية وكـان العكس هو الصحيح . ففي هذا القرن بلغت الحركة العلمية والأدبية اوجها واتـت ثمارها . ولعل مرد ذلك ان التمزق السياسي اتاح ظهور مراكز علمية وثقافية متعددة صارت تتنافس وتتبارى في اجتذاب العلماء والادباء ، وتبع ذلك تنافس خير جنت منه الحركة الادبية والعلمية خيرا كثيرا وشاعت العناية بالكتب وجمعها لدى الامـراء والوزراء والعلماء والادباء شيوعا كبيرا ونشأت الخزائن الكبرى التي يحدثنا عنهـا المؤرخون وفي هذا القرن ظهرت الكتب الجامعة في شتى العلوم والآداب والفنون . كان بعض سلاطين بني بويه أدباء شعراء امثال عز الدولة وعضد الدولة وتاج الدولـة

وكانوا يؤثرون استيزار واستكتاب العلماء والادباء فكان من وزرائهم وكتابهم : ابن العميد والصاحب بن عباد والمهلبي وسابور بن اردشير .

وقد عاصرت الدولة البويهية التي امتد سلطانها فشمل العراق وفارس وخراسان . الدولة السامانية في تركستان وبرزت بخارى ونيسابور كمركزين ثقافيين استقطبا العلماء والادباء والشعراء واشتهر من امرائها منصور بن نوح الذي استوزر البلعمي الذي ترجم تاريخ الطبري الى الفارسية .

وابنه نوح بن منصور هو الذي شد نظر شاعره الدقيقي لنظم الشاهنامة فنظم الدقيقي الف بيت من الشاهنامة كانت هي الاساس الاكيد لشاهنامة الفردوسي في عصر الغزنويين وكانت لنوح المذكور مكتبة ضخمة انتفع منها ابن سينا، ومنهم منصور السامائي الذي الف له ابو بكر الرازي كتاب ــ المنصوري ــ في الطب .

وفي طبرستان ظهرت الدولة الزيارية وكان من امرائها شمس المعالي قابوس بن وشمكير ، الاديب الشاعر والفيلسوف الرياضي وصاحب رسالة الاسطرلاب . وكان في خوارزم امير محب للعلم والادب هو ابو العباس المامون بن مامون خوارزمشاه ، كان من من رجال مجلسه ابن سينا الفيلسوف والبيروني المؤرخ الرياضي وابو نصر الرياضي والفيلسوف ابو سهل المسيحي ، والطبيب ابو الحسن الخمار وسواهم .

وقد استطاع السلطان محمود الغزنوي سلطان الدولة الغزنوية ضم بعضهم الى بلاطه وابرزهم البيروني . وحين استطاع السلطان المذكور اسقاط الدويلات والامارات التي تضايقه جدت في مملكته نهضة ادبية نشيطة شجعها السلطان الغزنوي بعطاياه ففي الشعر الغنائي برز منوجهري والعنصري والفرخي ورابعة القصدارية . وفي الشعر الملحمي برز الفردوسي في شاهنامته التي بلغت الستين الف بيت .

وترجم ابو المعالي نصر الله كتاب « كليلة ودمنة » الى الفارسية فوضع التقاليد الفنية للنثر الفني عند الفرس .

وكانت دولة الحمدانيين في هذا القرن قلعة من قلاع الثقافة والادب وكان بلاطهم حاشدا بعمالقة الشعراء امثال ابي الطيب المتنبي وابي فراس الحمداني وسواهما ، بل انهم اجتذبوا حتى كبار الفنانين مثل ابي عبد الله الحسن بن علي بن مقلة الخطاط الشهير وشقيق الوزير محمد بن علي بن مقلة ، فوفروا له جوا فنيا ملائما وانقطع اليهم وابدع ما شاء .

روى ياقوت في معجم الادباء (32/9) ما نصه : « كان ابو عبد الله منقطعا الى بني حمدان سنين كثيرة يقومون بامره احسن القيام وكان ينزل في دار قوراء حسنة ، وفيها فرش تشاكلها ومجلس دست وله شيء للنسخ وحوض فيه محابر واقلام ، فيقوم ويتمشى في الدار اذا ضاق صدره ، ثم يعود فيجلس في بعض تلك المجالس

وينسخ ما يخف عليه ، ثم ينهض ويطوف جوانب البستان ، ثم يجلس في مجلس آخر وينسخ اوراقا اخر على هذا ، فاجتمع في خزائنهم من خطه ما لا يحصى » .

وفي مصر كانت الدولة الفاطمية دولة علم وادب ، وقد اشتهر من خلفائها العزيز بالله والحاكم بأمر الله بخزائن كتبهما الشهيرة .

وبالاختصار فقي هذا القرن لمعت في سماء الآداب والعلوم والفنون ابـــرز الأسماء التي حفظها لنا التاريخ عبر مسيرته الطويلة .

* * *

مصـــادر الفصـــل :

1) تجارب الأمـــم ــ مسكويـــة .
2) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ــ الدوري .
3) الوزراء ــ الصابي ــ نشره آمدروز ــ بيروت 1904
4) الاوراق ــ اخبار الراضي والمتقي لله ــ الصولي
5) صلة الطبري ــ عريب القرطبـــي .
6) الآثار الباقية ــ البيرونـــي
7) مروج الذهب ــ المسعودي
8) الفخري ــ ابن طباطبا
9) ظهر الاسلام ــ احمد امين
10) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ــ آدم متز
11) احسن التقاسيم الى معرفة الاقاليم ــ المقدسي ــ نشرة دي خويه 1877 م.
12) الادب الفارسي في العصر الغزنوي ــ الدكتور علي الشابي ــ تونس
13) معجم الادبـــاء ــ ياقـــوت .

من هـــو ابـــن فـــارس ؟

هو ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي . هكـذا نسبته اغلب المصادر ، وشذ عن ذلك ابن الاثير في الكامل وابن الجوزي في المنتظم ، وكان ابوه فقيها شافعيا لغويا روى عنه ابو الحسين في مقاييس اللغة وفي الصاحبي وفي متخير الالفاظ وفي اللامات . والرازي نسبة الى الري ، مدينة في بلاد الديلم والزاي زائدة فيها كما زادوها في المروزي عند النسبة الى مرو الشاهجان ، ومسقط راسه قرية اسمها كرسف جياناباذ ، وضبطها ياقوت في معجم الادباء ــ كرسفة ــ وهـــي قرية من رستاق الزهراء .

ذكروا ان رجلا اتاه فسأله عن وطنه ، فقال : كرسف ، فتمثل ابن فارس :

بلاد بها شدت علي تمائمي واول ارض مس جلدي ترابها (1)

لم تذكر لنا المصادر سنة ولادته ولكن يمكن القول على وجه التقريب انها تدور حول عام 312 هـ وسندنا فى هذا الاستنتاج ما ورد فى معجم الادباء 221/12 نقلا عن كتاب أمالي ابن فارس ، وفى آخره : « قال ابن فارس : حدثني ابن الحسن علي بن ابراهيم بن سلمة القطان رحمه الله بقزوين فى مسجدهم يوم الاحد منتصف رجب سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة » .

فاذا كان ابن فارس قد روى عن القطان سنة 332 هـ وافترضنا ان ذلك كان فى اول شبابه أي فى العشرين من عمره ، صح ما ذهبنا اليه من ان ابن فارس من مواليد سنة 312 هـ او نحوها . وتذكر المصادر ان ابن فارس رحل الى قزوين للاخذ عن القطان وابراهيم بن علي ورحل الى زنجان واخذ من احمد بن الحسن بن الخطيب ورحل الى ميانج فى بلاد الشام واخذ عن احمد بن طاهر بن النجم كما رحل الى بغداد فى طلب الحديث ، واستوطن الموصل فترة وزار مكة فى حجه واستوطن همذان وفيها شعر بالوحدة والضياع ونسيان ما كان يعلم .

ثم حمل منها الى الري ليتتلمذ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة فسكنها واكتسب مالا وتوفى بالمحمدية وهي محلة فى الري ودفن مقابل مشهد القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني . وفى تاريخ وفاته خلاف كثير واصح الأقوال انه توفى سنة 390 هـ رحمه الله .

وقد زعم بعضهم انه من اصل اعجمي (2) ، وهو وهم لا دليل عليه ، غير ما قيل من انه كان يتكلم بلسان القزاونة . والواقع ان ايران فى القرون الاسلامية الاولى كانت تزخر بالقبائل العربية التي رحلت ايام الفتوح واستوطنتها ، وليس فى سلسلة نسب ابن فارس ، اسم غير عربي ، فاذا اضفنا لذلك ان تكلمه بلسان القزاونة امر طبيعي تمليه ظروف المجاورة للسكان الاصليين ، اتضح ان لا دليل يدعم زعم الزاعمين انه غير عربي بل العكس هو الصحيح ، ذلك ان أبي فارس كان شديد العصبية للعرب

---

1) انظر البيت فى بلاغات النساء : لاحمد بن ابى طاهر البغدادي ص 199 ، وروايته فيه . — بلاد بها حل الشباب تمائمي — وهو منسوب فيه لجارية طائية وقبله :

أحب بلاد الله ما بين منعج الى وسلمى ان يصوب سحابها

والبيتان فى أمالي القالي 83/1 ونسبتهما فيها لرقاع بن تيس الاسدي ورويا فى اللسان مادة (تمم) 336/14 منسوبين لرقاع الاسدي ، وهما فى اللسان فى مادة (نوط) ، ورواية البيت فيه : بلاد بها نيطت .. وفى المصون من غير عزو ص 206 وهو كذلك من دون عزو فى الكامل 406 ، 676 وفى معجم البلدان مادة (منعج) وزهر الآداب 682 .. وقد نسبا لامرأة من طيء فى سمط اللآلي 272 ومحاضرات الراغب 676/2 .

2) منهم بروكلمان انظر 265/2 ومحمد بن شنب 247/1 دائرة المعارف الاسلامية .

والعربية في عصر استفحلت فيه دعاوي الشعوبيين، يكشف من ذلك كتابه ــ الصاحبي في فقه اللغة وهو تعصب يمليه الانتساب اليهم على الأغلب .

وبالاجمال فان انتسابه للعرب اقرب للصواب في رأينا من أخباره انه قال (3) : دخلت بغداد طالبا للحديث ، فحضرت مجلس بعض اصحاب الحديث وليس معي قارورة ، فرأيت شابا عليه سمة جمال فاستأذنته في كتب الحديث من قارورته ، فقال: من انبسط الى الاخوان بالاستئذان ، فقد استحق الحرمان .

وهي رواية تدل على عراقة الخلق البغدادي في الترحيب بالغريب ورفع الكلفة عنـــه .

ومن اخباره : انه كان يناظر في الفقه فاذا وجد فقيها او متكلما او نحويا كان يأمر اصحابه بسؤالهم اياه ، ويناظره في مسائل من جنس العلم الذي يتعاطاه فان وجده بارعا جدلا جره في المجادلة الى اللغة ، فيغلبه بها ، وكان يحث الفقهاء دائما علـى معرفة اللغة ويلقي عليهم مسائل ، ذكرها في كتابه ــ فتيا فقيه العرب ــ ويخجلهم بذلك ، ليكون خجلهم داعيا الى حفظ اللغة ويقول : من قصر علمه عن اللغة وقولـه غلـــط (4)

وكان شافعي المذهب ، ثم صار مالكيا في سنواته الأخيرة وقال (5) : دخلتني الحمية لهذا البلد ، يعني الري ، كيف لا يكون فيه رجل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميع الألسنة .

وفي نزهة الالباء انه قال حين غير مذهبه (6) : دخلتني الحمية لهذا الامام المقبول القول على جميع الألسنة ، ان يخلو مثل هذا البلد ــ يعني الري ــ عن مذهبـه ، فصرت مشهد الانتساب اليه ، حتى يكمل لهذا البلد فخره ، فان الري اجمع البـلاد للمقالات والاختلافات في المذاهب على تضادها وكثرتها .

ورواية الخبر في بغية الوعاة (7) انه قال : ــ اخذتني الحمية لهذا الامـام ان يخلو مثل هذا البلد من مذهبه .

ونراه في الصاحبي يسخر من بعض فقهاء الشافعية فيقول : (8) : « ولقد كلمت بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس فقلت له : ما حقيقة القياس ومعناه ؟ ومن اي شيء هو ؟ فقال : ليس علي هذا ، وانما علـي

---

3) معجم الأدباء 89/4 .
4) انباه الرواة على انباه النحاة 94/1 .
5) معجم الأدباء 83/4 ــ 84
6) نزهة الالباء 321
7) البغيـة 352/1
8) الصاحبـــي 66

اقامة الدليل على صحته . فقل الآن في رجل يروم اقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه : ولا يدري ما هو ! ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وفي الموضع ذاته ينقل نصا لابن داود في نقده الامام الشافعي وتنزيهه للامام مالك بن انس .

وهو في موضع آخر من — الصاحبي — يرد على منكري قول الامام مالك في الجائحة فيقول (9) : « قال احمد بن فارس : واعترض قوم بهذا الذي ذكرناه على ابي عبد الله مالك بن انس في قوله في الجائحة . لان مالكا يذهب الى ان الجائحة اذا كانت دون الثلث لم يوضع لانها قليل بمنزلة ما تناله العرافي من الطير وغيرها وما تلقيه الريح ، فاذا بلغت الجائحة الثلث — وما زاد — فهي كثيرة ، ولزم وضعها للحديث المروي فيها . قال المعترض على ابي عبد الله مالك — رضه — : فقد دفع هذا الفصل المعنى الذي ذهب اليه مالك لان قوله — جل ثناؤه — (قم الليل الا قليلا) قد جعل النصف قليلا فاذا كان نصف الشيء قليلا منه وجب ان يكون كثيره ما فوق النصف فالجواب عن هذا ان مالكا انما ذهب في جعله الثلث كثيرا الى حديث حدثناه علي بن ابراهيم عن محمد بن يزيد عن هشام بن عمار عن ابي عيينة عن الزهري عن عامر بن سعد عن ابيه قال : « اي رسول الله ! ان لي مالا وليس يرثني الا ابنتي ، افاتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت : فالثلث ؟ قال الثلث — والثلث كثير — انك ان تترك ورثتك اغنياء خير من ان تتركهم يتكففون الناس . فيقول رسول الله — صلعم — اخذ مالك ، ورسول الله — صلعم — اعلم بتأويل كتاب الله — جل ثناؤه » .

وبمثل هذا الكلام المعلل المدلل رد ابن فارس على منكري قول مالك في الجائحة، فاذا عرفنا انه الف (الصاحبي) في الشطر الاخير من حياته ادركنا صحة ما نقل من انه كان شافعيا ثم صار مالكيا وفي هذا يقول القفطي : « وكان من رؤساء اهل السنة المجودين على مذهب الحديث » (10) .

غير ان بعض مؤرخي الشيعة الافاضل ذهبوا الى انه ستر بالشافعية والمالكية وانه كان شيعيا (11) .

وفارس آثار ابن فارس يلاحظ بوضوح الحب العميق الذي كان يكنه ابوالحسين لامير المؤمنين — علي بن ابي طالب — ، فمآثر الامام تدور على لسانه في الصاحبي وفي المتخير وربما في غيرهما مما ضاع من آثاره .

---

9) الصاحبي 137 — 138
10) انباه الرواة 95/1 .
11) انظر تنقيح المقال 76 واعيان الشيعة ص 216 — 217 .

جاء في المتخير : « وذكر ابن عباس عليا ــ عليهما السلام ــ فقال : سطة في العشيرة وصهر بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلم بالتنزيل ، وفقه في التأويل ، وصبر اذا دعيت نزال » .

وقال في الصاحبي (12) : « فصاروا بعدما ذكرناه الى ان يسأل امام من الائمة وهو يخطب على منبره عن فريضة فيلتي ويحسب بثلاث كلمات ، وذلك قول أمير المؤمنين علي ــ صلوات الله عليه ــ حين سئل عن ابنتين وابوين وامرأة : « صار ثمنها تسعا » فسميت المنبرية ، والى ان يقول هو ــ صلوات الله عليه ــ على منبره، والمهاجرون والانصار متوافرون : « سلوني فو الله ما من آية الا وانا اعلم ابليل نزلت ام بنهار ام في سهل ام في جبل » ، وحتى قال ــ صلوات الله عليه ــ واشار الى ابنيه : « يا قوم استنبطوا مني ومن هذين علم ما مضى وما يكون » .

وجاء في الصاحبي (13) : « وروى السدي عن عبد خير علي ــ رضه ــ انه راى من الناس طيرة عند وفاة رسول الله ــ صلعم ــ فاقسم الا يضع على ظهره رداء حتى يجمع القرآن ، قال : فجلس في بيته حتى جمع القرآن ، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن ، جمعه من قلبه ، وكان عند آل جعفر . فانظر الى قول القائل : « جمعه من قلبه » . وحدثنا علي بن ابراهيم عن علي بن عبد العزيز قال : قال ابو عبيد : حدثني نصر بن باب عن الحجاج عن الحكم عن ابي عبد الرحمن السلمي انه قال : ما رايت احدا اقرا من علي ــ صلوات الله عليه ــ ، صلينا خلفه فاسوا برزخا ، ثم رجع فقرا ثم عاد الى مكانه » . قال ابو عبيد : البرزخ ما بين كل شيئين ، ومنه قيل للميت : « هو في برزخ » ، لانه بين الدنيا والآخرة . فاراد ابو عبد الرحمن بالبرزخ ما بين الموضع الذي استط علي ــ صلعم ــ منه ذلك الحرف الى الموضع الذي كان انتهى اليـــه .

من هذه الاقوال المعبرة عن حب ابن فارس لآل البيت الكرام ، ومن تعيينـــه مؤدبا واستاذا للامير البويهي ، والبويهيون شيعة آل البيت استنتج الطوســـي والمامقاني والعاملي امر تشيع ابن فارس في الفترة الاخيرة من حياته .

وانا لا استبعد هذا ، ذلك ان ابن فارس صار مالكيا بعد ان كان شافعيا حمية لرجل ــ على حد قوله ــ فلم نستبعد تشيعه اقتناعا بفكرة مع ملاحظة سرعة تنقله من مذهب الى مذهب ومع اكباره لشخصية الامام علي ومآثره .

* * *

12) الصاحبي ص 78 ــ 79 .
13) الصاحبي ص 200 ــ 201 .

مصـــــادر الفصـــــل :

1) معجم الادباء ــ ياقوت 80/4 .
2) المزهر ــ السيوطي 414/1 .
3) بغية الوعاة ــ السيوطي 1/ 352 .
4) مرآة الجنان ــ اليافعي 442/2 .
5) وفيات الاعيان ــ ابن خلكان 100/1 .
6) شذرات الذهب ــ ابن العماد 132/2 .
7) نزهة الالبـــاء ــ الانباري 320 .
8) انباه الرواة ــ القفطي 92/1 .
9) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 42 ج 2 ــ نيسان 1967 ص 236 ــ 244 .
10) الديباج المذهب ــ ابن فرحون ص 35 .
11) مفتاح السعادة 109/1 .
12) معجم المطبوعات العربية ــ سركيس 199 .
13) يتيمة الدهر ــ الثعالبـــي 400/3 .
14) مقدمة تمام فصيح الكلام ــ الدكتور مصطفى جواد .
15) المنتظم ــ ابن الجوزي 103/7 .
16) الكامل ــ ابن الاثيـــــر 711/8 .
17) البداية والنهاية ــ ابن كثير 535/11 .
18) النجوم الزاهرة ــ ابن تغري بردي 212/4 .
19) معجم البلدان ــ ياقوت 212/4 .
20) الآثار الباقية ــ البيروني 338 .
21) دمية القصر ــ الباخرزي 297 .
22) مقدمة معجم المقاييـــــس ــ عبد السلام هارون .
23) فهرست ابن النديم ص 80 .
24) الفلاكة والمفلوكون ــ الدلجي ــ 141 .
25) العبر في خبر من غبر ــ الذهبي ــ 58/3 .
26) الاعلام الزركلي 184/1 .
27) معجم المؤلفين ــ كحاله 40/2 .
28) تاريخ آداب اللغة العربية ــ جرجي زيدان 357/2 .
29) دائرة المعارف الاسلامية ــ محمد بن شنب 247/1 .
30) روضات الجنات ــ الخوانساري 64
31) طبقات المفسرين ــ السيوطي ص 4 .

32) عيون التواريخ — ابن شاكر الكتبي مخطوط 12 : 1/258 — 1/261 .
33) الوافي بالوفيات — الصفدي — مخطوط — 111/6 .
34) المختصر في اخبار البشر — ابو الفداء 142/2 .
35) سير النبلاء — الذهبي — مخطوط — 22/11 و 23 .
36) مقدمة الصاحبي في فقه اللغة طبعة مصر 1910 وطبعة بيروت 1963 .
37) منهج المقال — ميرزا محمد الاسترابادي ص 40 — طهران 1302 هـ .
38) الفهرست — الطوسي ص 36 .
39) منتهى المقال — ابو علي الحائري ص 39 .
40) تنقيح المقال — عبد الله المامقاني 76/1 .
41) اعيان الشيعة — العاملي 215/9 — 228 .
42) مخطوطات الموصل — داود جلبي ص 67 .
43) طبقات النحاة واللغويين — ابن قاضي شهبة — مخطوط — 189 و 190 .
44) تلخيص ابن مكتوم — مخطوط — 15 — 16 .
45) ايضاح المكنون — البغدادي 421/1 .
46) دائرة المعارف — البستاني 419/3 .
47) تاريخ الادب العربي — بروكلمان — ترجمة عبد الحليم النجار 265/2 .
48) كشف الظنون — حاجي خليفة : 33 ، 89 ، 90 ، 173 ، 690 ، 722 ، 827 ، 828 ، 1068 ، 1069 ، 1279 ، 1454 ، 1574 ، 1605 ، 1615، 1804 ، 1848 .
49) سلم الوصول ص 113
50) مقدمة الاتباع والمزاوجة — طبعة كمال مصطفى .

شيـــوخـــه :

1 — والده (فارس بن زكريا) (ت 369 هـ) : روى عنه ابن فارس كتاب اصلاح المنطق لابن السكيت كما ذكر في المقاييس . وروى عنه كذلك في الصاحبي وروى عنه في متخير الالفاظ في مواضع عدة وفي اللامات . وقد ذكر ضمن شيوخه في بغية الوعاة 352/1 وفي نزهة الالباء 321 وكان المذكور فقيها لغويا شافعيا .

2 — علي بن ابراهيم بن سلمة القطان (254 — 345 هـ) : روى عنه ابن فارس في متخير الالفاظ كثيرا كما روى عنه في المقاييس وفي الصاحبي في مواضيع عديدة . وذكر ضمن شيوخه في بغية الوعاة 352/1 وطبقات المفسرين ص 4 ومعجم الادباء 82/4 .

وانظر ترجمة القطان في العبر للذهبي 367/2 وغاية النهاية لابن الجـــزري 516/1 ومعجم الادباء 218/12 .

3 — علي بن عبد العزيز المكي (ت 286 او 287 هـ) : روى عنه ابن فارس فى المقاييس كثيرا كما روى عنه كتابي ابي عبيد القاسم بن سلام — غريب الحديث ومصنف الغريب . وذكر ضمن شيوخه فى طبقات المفسرين ص 4 ومعجم الادباء 83/4 . وللمكي ترجمة فى العبر للذهبي 77/1 وغاية النهاية 549/1 ونزهة الالباء 216 .

4 — احمد بن طاهر بن النجم الميانجي : روى عنه ابن فارس فى المقاييس وقد ذكر ضمن شيوخه فى نزهة الالباء 320 ومعجم الادباء 82/4 وانباه الرواة 95/1 . وللميانجي ترجمة فى العبر للذهبي 320/2 .

5 — احمد بن الحسن بن الخطيب : ذكر ضمن شيوخه فى نزهة الالباء 320 ومعجم الادباء 82/4 وانباه الرواة 95/1 وطبقات المفسرين 4 .

6 — ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن سلمة بن فخر : ذكر ضمن شيوخ ابن فارس فى انباه الرواة 95/1 .

7 — سليمان بن احمد بن ايوب الطبراني (ت 360 هـ) : ذكر ضمن شيوخ ابن فارس فى معجم الادباء 83/4 وطبقات المفسرين 4 . وللطبراني ترجمة فى العبر 315/2 وغاية النهاية 311/1 والنجوم الزاهرة 59/4 .

8 — احمد بن محمد بن اسحاق الدينوري : روى عنه ابن فارس فى المقاييس وانظر ترجمته فى العبر للذهبي 332/2 .

9 — ومن شيوخه علي بن احمد الساوي .

10 — ومن شيوخه ابو بكر محمد بن احمد الاصفهاني .

11 — ومن سمع عنهم ابن فارس : ابو احمد ابن ابي الثيار (معجم الادباء 90/4) وعبد الرحمن بن حمدان (الصاحبي 29) . واحمد بن محمد بن بندار (الصاحبي 43) . وعلي بن محمد بن مهروية (الصاحبي 47) . وابو الحسن احمد بن محمد مولى بني هاشم ، وقد حدثه بقزوين (الصاحبي 52) . وابو عبد الله احمد بن محمد بن داود الفقيه (الصاحبي 83) . وابو بكر احمد بن علي بن اسماعيل الناقد (الصاحبي 129) وابو الحسن المعروف بابن التركية (الصاحبي 155) .

تلاميذه :

ابرز تلاميذه الذين تذكرهم المصادر :

1 — الصاحب بن عباد (المتوفى سنة 385) انظر ترجمته فى الاعلام 312/1 وفى معجم المؤلفين 274/2 .

وهو القائل ــ شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف .

2 ــ بديع الزمان الهمذاني (المتوفى سنة 398) انظر ترجمته في الاعلام 112/1 وفي معجم المؤلفين 209/1 .

3 ــ أبو طالب مجد الدولة بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي .

4 ــ علي بن القاسم المقرىء ــ وقد قرأ عليه كتابه (أوجز السير لخير البشر) ويفهم من هذا الكتاب ان ابن فارس سكن فالموصل زمنا وقرأ عليه المقرىء فيها كتابه هذا .

5 و 6 ــ وقد روى عنه فيما ذكر ابن فرحون في الديباج المذهب ــ ابو ذر والقاضي ابو زرعه وهو فقيه مالكي واسمه عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة القارىء .

7 ــ ابو العباس أحمد بن محمد المعروف بالقضبان .

8 ــ ابو محمد نوح بن أحمد الاديب اللوباساني .

9 ــ أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي (ت 447 هـ) ــ طبقات الشافعية الكبرى 388/4 .

10 ــ أبو زرعه روح بن محمد بن أحمد بن محمد بن اسحاق الرازي (ت 423) هـ ــ طبقات الشافعية 379/4 .

صلتـــه بتلاميـــذه :

وليس بين ايدينا ما يساعد على تتبع هذه الصلة تفصيلا باستثناء صلتـــه بالصاحب وبالهمذاني .

اما الصاحب بن عباد فقد كان منحرفا عن ابي الحسين بن فارس ، لانتسابه الى خدمة ابن العميد ، وتعصبه له ، فانفذ اليه من همذان كتاب الحجر من تاليفه ، فقال الصاحب : رد الحجر من حيث جاءك ، ثم لم تطب نفســه بتركه ، فنظر فيه ، وامر له بصلة (14) . ثم لما انتقل ابن فارس الى الري ليقرأ عليه مجد الدولة ذكرت المصادر ان الصاحب تتلمذ على ابن فارس وانه كان يكرمه ويقول : شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف (15) .

* * *

14) يتيمة الدهر 204/3 ، وانظر الخبر في معجم الادباء 87/4 وانباه الرواة 93/1.
15) انظر : معجم الادباء 83/4 وبغية الوعاة 352/1 ونزهة الالباء 321 .

واما بديع الزمان الهمذاني فيبدو انه كان يكن ودا صادقا لاستاذه وعرفانا لجميله . فقد ذكر الهمذاني في مجلس ابي الحسين بن فارس فقال ما معناه (16) : ان البديع قد نسي حق تعليمنا اياه وعقنا وشمخ بانفه عنا ، فالحمد لله على فساد الزمان وتغير نوع الانسان ، فبلغ ذلك البديع ، فكتب الى ابي الحسين ، « نعم اطال بقاء الشيخ الامام ، انه الحما المسنون ، وان ظنت الظنون والناس لآدم ، وان كان العهد قد تقادم وارتكبت الاضداد واختلط الميلاد ، والشيخ يقول : فسد الزمان ، افلا يقول : متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية وقد راينا آخرها وسمعنا اولها ، ام المدة المروانية وفي اخبارها :

لا تكسع الشول باغبارها .

ام السنين الحربية :

والسيف يغمد في الطلى ... والرمح يركز في الكلى
ومبيت حجر في الفلا ... والحر تان وكربلا

ام البيعة الهاشمية وعلي يقول : ليت العشرة منكم برأس من بني فراس . ام الايام الاموية والنفير الى الحجاز والعيون الى الاعجاز ، ام الامارة العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد البزول الا النزول ، ام الخلافة القيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في ثاثاة الاسلام ؟ ام على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتي يا فلانة فقد ذهبت الامانة ؟ ام في الجاهلية ، ولبيد يقول : وبقيت في خلق كجلد الاجرب ام قبل ذلك واخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نحبها ... اذ الناس ناس والزمان زمان

ام قبل ذلك ويروى لآدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الارض مغبر قبيح

ام قبل ذلك والملائكة تقول لبارئها : (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء).. وما فسد الناس وانما اطرد القياس ، ولا اظلمت الايام ، انما امتد الاظلام ، وهل يفسد الشيء الا عن صلاح ، ويسي المرء الا عن صباح ، ولعمري ان كان كرم العهد كتابا يرد ، وجوابا يصدر ، انه لقريب المنال ، واني على توبيخه لي لفقير الى لقائه ، شفيق على بقائه ، منتسب الى ولائه ، شاكر لآلائه » .

وان له على كل نعمة خولنيها الله نارا ، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت لكتابي موقعا من قلبه لاغتنمت خدمته به ، ولرددت اليه سؤر كأسه ، وفضل نفاسه . ولكني خشيت ان يقول : هذه بضاعتنا ردت الينا ، وله ايده الله المتبى ،

16) انظر يتيمة الدهر 270/4 والبيان عن رسائل بديع الزمان ص 415 ونهاية الارب 262/7 .

والمودة في القربى ، والمرباع ، وماضمه الجلد وناله الباع ، وما ضمنته المشط :

ووالله ما هي عندي رخص ولكنها جل ما املك

واثنان هما يجتمعان الخراسانية والانسانية ، وأنا وان لم أكن خراساني الطينة، فاني خراساني المدينة ، والمرء من حيث يوجد ، لا من حيث يولد ، والانسان من حيث يثبت ، لا من حيث ينبت ، فان انضاف الى خراسان ولادة همذان ارتفع القلم وسقط التكليف ، فالجرح جبار ، والجاني حمار ، ولا جنة ولا نار ، فليحتملني الشيخ على هناتي ، اليس صاحبنا يقول :

لا تلمني على ركاكة عقلي ان تيقنت انني همذاني

* * *

وكتب بديع الزمان يستعطفه : « اني خدمت مولاي ، والخدمة رق بغير اشهاد ، وناصحته ، والمناصحة للود اوثق عماد ، ونادمته ، والمنادمة رضاع ثان ، وطاعمته ، والمطاعمة نسب دان ، وسافرت معه ، والسفر والاخوة رضيعا لبان ، وقمت بين يديه ، والقيام والصلاة شريكا عنان ، واثنيت عليه ، والثناء عند الله بمكان، واخلصت له ، والاخلاص مشكور بكل لسان » .

والذي نخلص اليه من كل ما تقدم ان بديع الزمان الهمذاني كان برا باستاذه متمسكا بحبل ولائه ، ذاكرا وشاكرا فضله .

اخلاقه وطباعه :

وكان كريما جوادا ، فربما وهب السائل ثيابه وفرش بيته ، وكان له صاحب يقال له : ابو العباس احمد بن محمد الرازي المعروف بالغضبان ، وسبب تسميته بذلك انه كان يخدم ابن فارس ويتصرف في بعض أموره .

قال : فكنت ربما دخلت فاجد فرش البيت او بعضه قد وهبه ، فاعاتبه على ذلك ، واضجر منه ، فيضحك من ذلك ، ولا يزول عن عادته ، فكنت متى دخلت عليه ووجدت شيئا من البيت قد ذهب ، علمت انه قد وهبه ، فاعبس ، وتظهر الكآبة في وجهي ، فيستطني ويقول : ما شان الغضبان ؟ حتى لصق بي هذا اللقب منه ، وانما كان يمازحني (17) .

وكان عفيفا . جاء في الديباج المذهب (18) انه افتى بمنع من يفتح حانوتا قبالة دار رجل.

وكان ابن فارس متواضعا شديد التواضع يكشف عن طبيعته هذه قوله في آخر (تمام فصيح الكلام) « هذا آخر ما اردت اثباته في هذا الباب ولم اعن أن ابا العباس

17) نزهة الالباء ص 321 — 322 .
18) الديباج المذهب ص 37 .

قصر عنه لكن المشيخة آثروا الاختصار وحقا اقول ان جميع ما ذكرته من علم ابي العباس جزاه الله عنا خيرا » (19) .

وتتضح هذه الخصلة الطيبة فيه حين يقول في الصاحبي (20) : « والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفترق في أصناف مؤلفات العلماء المتقدمين — رضي الله عنهم وجزاهم عنا افضل الجزاء — وانما لنا فيه اختصار مبسوط او بسط مختصر او شرح مشكل او جمع متفرق » .

ومن خلائقه روح السخرية والتندر التي تبدو في شعره أوضح ما تبدو ، كما يشف عنها ما رواه بديع الزمان الهمذاني حين قال (21) : سمعت ابا الحسين احمد بن فارس يقول : النفخ عند الاطباء كناية عن الضرط والفسو ! والقطع عند المنجمين كناية عن الموت ! والنصيحة عند العمال كناية عن السعاية ! والوطء عند الفقهاء كناية عن الجماع ! وطيب النفس عند الظرفاء كناية عن السكر ! والعلق عند اللاطة كناية عن المؤاجرة ! والزوار عند الكرام كناية عن السؤال ! وما اماء الله عند الصوفية كناية عن الصدقة !

تلك المامة موجزة بخلائق هذا الرجل وبابرز صفاته .

* * *

شاعريته :

الى جانب قدرات ابن فارس النثرية المتنوعة المجالات ، فقد كان شاعرا اصيلا وانه لمن المؤسف ان التاريخ لم يحفظ لنا سوى نماذج قليلة من شعره شانه شان الكثيرين ممن غلب جانب من جوانب شهرتهم على شاعريتهم الاصيلة . وتغلب النماذج القليلة التي وصلت الينا من شعره روح السخرية من متناقضات زمنه فهو في همذان يدعو لها بالسقيا واحشاؤه تلتهب ، ولم لا يدعو لهذه البلدة وقد نسي بها ما كان يعلم وغرق في ديونه ! ! ان السخرية المرة تكاد تطفح منها حيث يقول :

سقى همذان الغيث لست بقائل ... سوى ذا وفي الاحشاء نار تضرم
ومالي لا اصفي الدعاء لبلدة ... افدت بها نسيان ما كنت اعلم
نسيت الذي احسنته غير انني ... مدين وما في جوف بيتي درهم

* * *

19) تمام فصيح الكلام ص 25 .
20) الصاحبي 31 .
21) المنتخب : الجرجاني ص 120 .

على ان سخريته هذه تتجلى فى هزئه من قيم مجتمعه الذي يوقر الغني لغناه ومالك الدرهم لدرهمه فيقول :

يا ليت لي الف دينـــار موجهـــة وان حظي منهـا فلـــس افـــلاس
قالوا : فما لك منها قلت يخدمنـــي لها ومن أجلها الحمقى من النـــاس

وانطلاقا من قاعدة توقير الدينار والدرهم نراه يقول :

اذا كنـت فى حاجـــة مرســـلا وانـــت بهـــا كلـف مغـــرم
فـارســل حكيمـا ولا توصـــه وذاك الحكيـم هـــو الـدرهـــم

ونراه فى موضع آخر يلح على هذه الفكرة شرحا وايضاحا ويعرضها عرضا جديدا اذ يقول :

قـد قـال فيمـا مضـى حكيـم مـــا المـــرء الا بـامـغـريـــه
فقلـــت قـــول امـرىء لبيـــب مـــا المـــرء الا بـدرهميـــه
من لم يكن معـــه درهمـــاه لـــم تلتفـــت عرســـه اليـــه
وكـــان مـــن ذلـــه حقيـــرا تبـــول سنـــورهـــم عليـــه

وتاسيسا على ما تقدم فقد واجه ابن فارس مأساته وجها لوجه .. فالعلم والادب لا يجلبان غير الفقر فليطلب الانسان اي مورد من موارد الرزق الا العلم والادب فليس فيهما مورد رزق :

وصاحب لي اتاني يستشيـر وقـــد اراد فى جنبـات الارض مضطربـــا
قلت أطلب أي شيء شئت واسع ورد منـــه الموارد الا العلـــم والادبـــا

لقد كان شعوره بالغربة والضياع .. ضياع الادباء والعلماء فى عصره عميقـــا وجديا وموشحا بالكآبة ولذلك قرانا له قوله :

وقالوا كيف حالـك قلـت خيـر نقضي حاجة وتفـــوت حـــاج
اذا ازدحمت همـــوم الصدر قلنـا عسى يوما يكون لهـا انفـــراج
نديمـــي هرتي وانيـــس نفســـي دفاتر لي ومعشوقـــي الســـراج

ويسلمه هذا الشعور الاسيان بالضياع الى رضا بما يكتبه القدر :

تلبس لباس الرضـــا بالقضـــا وخل الامـــور لمـــن يملـــك
تقـدر انت وجـــاري القضـــا ء ممـــا تقـــدره يضحـــك

ويقـــول ايضـــا :

مشيناها خطـى كتبـت علينـــا ومن كتبت عليـه خطى مشاهـــا
وما غلظت رقاب الأســـد حتـى بانفسها تولـت مـا عنـاهـــا

وبمثل هذه الروح القانعة بالقضاء المستسلمة الى حكمه يتوجه الى ربه بصلاة خاشعة وتوبة من الاعماق تبيل وفاته اذ يقول :

يا رب ان ذنوبي قد أحطت بهـــا علما وبي وباعلانـي واســـراري
انا الموحد لكنـي المقـــر بهـــا فهب ذنوبـــي لتوحيدي واقـراري

* * *

ان ابن فارس الذي قضى حياته قارئا كاتبا قد عجب للذين يردهم حر الصيف وبرد الشتاء عن طلب العلم فنراه يعبر عن ذلك بقوله :

اذا كنت تأذى بحـــر المصيـــف ويبـس الخريف وبـرد الشتـــا
ويلهيـك حسن زمـان الربيـــع فاخذك للعلم قـل لـي متـى ؟ ؟

* * *

وهو بحكم تجربته المرة قليل الثقة بالثقات فنراه يحذرك قائلا :

اسمـــع مقالـــة نـاصـــح جمـــع النصحيـــة والمقـــه
ايـاك واحـــذر ان تبيـــ ـــت من الثقـــات علـى ثقـة

* * *

ويقول متأثرا بشاعر سبقه :

عتبت عليه حين ســاء صنيعـــه وآليت لا أمسيـت طـوع يديـــه
فلما خبـرت الناس خبـر مجـرب ولـم ار خيرا منه عـــدت اليـــه

* * *

وتبقى بعد هذا ابيات من الغزل المتكلف هي من غزل العلماء الذين لم يعانـوا تجربة الحب من اعماقهم فبقي غزلهم سطحيا استمع الى قوله :

قالوا لـي اختـر فقلـت ذا هيـــف بي عن وصـــال وصـده بـــرح
بـدر مليـح القـوام معتـــدل تلقـــاه وجـه ووجهـــه ربـــح

وقولـــــه :

مـــرت بنـا هيفـاء مقـــــدودة تركيـــة تنمـــي لتـركـــي
ترنـو بطـرف فاتـــن فـاتـــر كـانـــه حجـــة نحـــوي

وقولـــــه :

كـــل يـــوم لـــي مـن سلـــ ـــمي عتـــاب وسبـــــاب
وبـادنـي مـــا الاتـــــــى منهمـــا يـــودى الشبـــــاب

وتظل بعد هذا قصيدة عينية قالها فى معاني كلمة (العين) فى اللغة راينا من الجدير اثباتها ها هنا استكمالا للبحث فهي النموذج لاستعمال الشعر فى تقييد مسائل اللغة ، قال ابن فارس :

يا دار سعدى بذات الضال من أضـم سقاك صوب حيا من واكف العـين
العين سحاب ينشأ من قبل القبلة .

انـي لأذكـر ايامـا بهـا ولنـــا فى كـل اصبـاح يوم قـرة العـــين
العين هاهنا : عين الانسان وغيره .

تدنـــي معشقـــة منـا معتقـــة تشجها عذبة مـن نابـــع العـــين
العين هاهنا : ما ينبع منه الماء .

اذا تمززها شيـخ بـــه بطـــرق سرت بقوتها فى الســـاق والعـين
العين ها هنا : عين الركبة ، والطرق : ضعف الركبتين .

والزق ملآن مـن مـاء السـرور فلا تخشـى تولـه ما فيـه من العـين
العين ها هنا : ثقب يكون فى المزادة ، وتوله الماء : ان يتسرب .

وغاب عذالنا عـنا فـــلا كـــدر فى عيشنا من رقيب السوء والعـــين
العين ها هنا : الرقيـب .

يقسم الود فيما بيننـــا قسمـــا ميزان صـــدق بلا بخس ولا عـــين
العين ها هنا : العين فى الميزان .

وفائض المال يغنينـــا بحاضـــره فنكتفي من ثقيل الديـــن بالعـــين
العين ها هنا : المال الناض .

والمجمل المجتبى تغنـــى فوائـــده حفاظه من كتاب الجيـم والعـــين

* * *

وحدث هلال بن المظفر الريحاني قال : قدم عبد الصمد بن بابك الشاعر الـى الري ، فى ايام الصاحب فتوقع ابو الحسين احمد بن فارس ان يزوره ابن بابـك ، ويقضي حق علمه وفضله ، وتوقع ابن بابك ، ان يزوره ابن فارس ، ويقضي حق مقدمه ، فلم يفعل احدهما ما ظن صاحبه ، فكتب ابن فارس الى القاسم بن حسولة :

تعديت فى وصلي فعـــدي عتابـك وادنى بديلا من نـــواك ايابـــك
تيقنت ان لم احظ والشمل جامـــع بايسر مطلوب فهـــلا كتابـــك
ذهبت بقلب عيل بعـــدك صبـــره غداة ارتنا المرتـــلات ذهابـــك
وما استمطرت عيني سحابة ريبـــة لديك ولا مست يميـــني سخابـــك
ولا نقيت والصب يصبـــو لمثلهـــا عن الوجنات الغانيـــات نقابـــك
ولا قلت يوما عن قلـــى وسآمـــة لنفسك : سلي عن ثيابـــي ثيابـك
وانت التي شيبت قبـــل اوانـــه شبابي ستى الغر الغوادي شبابـــك
تجنبت ما اوفـــى وعاقبت ما كفـــى الم يأن سعدى ان تكفـــي عتابـــك ؟
وقد نبحتني من كلابـك عصبـــة فهلا وقد حالوا زجـــرت كلابـــك
تجافيت عن مستحسن البر جملـــة وجرت على بختي جفاء ابن بابـــك

فلما وقف ابو القاسم الحسولي على الأبيات ، أرسلها الى ابن بابك ، وكان مريضا ، فكتب جوابها بديها : وصلت الرقعة ــ اطال الله بقاء الأستاذ ــ وفهمتها ، وانا اشكو اليه الشيخ ابا الحسين فانه صيرني فصلا لا وصلا ، وزجا لا نصـــلا ، ووضعني موضع الحلاوى من الموائد ، وتمت من أواخر القصائد ، وسحب اسمـــي منها مسحب الذيل ، وأوقعه موقع الذنب المحذوف من الخيل ، وجعل مكاني مكان القفل من الباب ، وذلك من الحساب ، وقد اجبت عن ابياته بأبيات ، اعلم ان فيها ضعفا لعلتين علتي ، وعلتها ، وهي :

ايا اثلاث الشعب من مرج يابـــس ســـلام علـــى آثاركن الـــدوارس
لقد شاقني والليل فى شملـــة الحيـــا اليكن ترجيع النسيـــم المخالـــس
ولمحة بـــرق مستضـــيء كأنـــه تردد لحظ بين أجفـــان نـــاعـــس
نبت كانـــي معـــدة يمنيـــة تزعزع فى نقع من الليل دامـــس
الا حبذا صبـــح اذا ابيـــض افقـــه تصدع عن قرن بن الشمـــس وارس
ركبت من الخلصاء أرقب سيلهـــا ورود المطي الظامئات الكوانـــس
فيا طـــارق الزوراء قـــل لغيومـــها اهلي على مغنى من الكـــرخ آنـــس

وتـــل لريـــاض القلص تهدي نسيمها ... فلست على بعد المزار بآيـــــــس
الا ليت شعري هل ابيتن ليلـــــة ... لقى بين اقراط المها والمحابـــــس
وهل ارين الـــري دهليـــز بابـــك ... وبابك دهليز الـــى ارض فـــارس
ويصبح ردم السد تنـــلا عليهمـــا ... كما صرت تنلا فى قوافي ابن فـــارس

فعرض ابو القاسم الحسولي المقطوعتين على الصاحب ، وعرفه الحال فقال : البادىء اظلم ، والقادم يزار ، وحسن العهد من الايمـــان .

مصـــادر الفصـــــل :

1) معجم الادباء ــ ياقوت 81/4 ــ 98 .
2) يتيمة الدهر ــ الثعالبي 400 ــ 407 .
3) وفيات الاعيان ــ ابن خلكان 100 ــ 101
4) بغية الوعـــاة ــ السيوطـــي 352 ــ 353 .
5) المنتظم ــ ابن الجوزي 103/7 .
6) انباه الرواة ــ القفطي 93 ــ 95 .
7) الفلاكة والفلاكـــون ــ الدلجي 141 ــ 142 .
8) النجوم الزاهرة ــ ابن تغري بردي 213/4 .
9) الكامل ــ ابن الاثيـــــر 711/8 .
10) الآثار الباقية ــ البيروني ص 338 .
11) التذكرة السعدية ــ العبيدي ــ مخطوط ــ
12) شذرات الذهب ــ ابن العماد 133/3 ــ مصورة الاستاذ عبد الله الجبوري من نسخة كوبرلي بالاستانة .
13) اعيان الشيعة ــ العاملي 226/9 .
14) نزهة الالباء ــ الانباري 322 .
15) دائرة معارف ــ البستانـــي 419/3 .

آثـــــــاره :

ضرب ابن فارس بسهم وافر فى حركة التاليف فى عصره ، وفى الوان متعددة من فنون المعرفة . وقد حفظت لنا اسماء تاليفه الكثار . وهذه التاليف ثلاثة اصنـــاف : المطبوع ، والمخطوط ، والمفقود . وفيما يلي ثبتا بهذه التاليف طبقا لاصنافها :

اولا : آثـــاره المطبـــوعـــــة :

1 ــ ابيات الاستشهاد : نشره عبد السلام محمد هارون ضمن المجموعة الثانية من نوادر

المخطوطات ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة 1951 وقد حققه على نسخة فريدة محفوظة فى الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم 445 ادب .

2 ــ الاتباع والمزاوجة : ذكره السيوطي ضمن تآليف ابن فارس فى بغية الوعاة 352/1 رقم الترجمة 680 كما ذكره مرة ثانية فى كتابه المزهر 414/1 وقال انه اختصره وزاد عليه ما فات المصنف فى تأليف سماه « الالماع فى الاتباع » . وكتاب الاتباع والمزاوجة يبحث فيما ورد من كلام العرب مزدوجا . وقد نشر أولا بتحقيق المستشرق رودولف برونو فى جيسن بالمانيا سنة سنة 1906 على نسخة خطية مؤرخة فى 626 هـ . ثم اعاد نشره كمال مصطفى فى القاهرة سنة 1947 بمطبعة السعادة محققا على نسختين نسخة برنو المذكورة ونسخة خطية محفوظة فى دار الكتب المصرية ومؤرخة فى 711 هـ وهي من كتب العلامة الشنقيطي .

3 ــ تمام فصيح الكلام : ورد فى معجم الادباء 82/4 باسم (الفصيح) وفى هدية العارفين 68/1 باسم (تمام الفصيح فى اللغة) وفى تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 268/2 ورد باسم (تمام فصيح الكلام) . وذكر بروكلمان انه فى مكتبة كرنكو نسخة منه عن مخطوط فى النجف كتبه ياقوت الحموي فى مرورود يوم 7 من ربيع الثاني 616 هـ عن نسخة بخط المؤلف سنة 393 هـ .

وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الانكليزي أ . ج . آربري فى لندن سنة 1951 بطريقة التصوير عن مخطوطة جستر بتي فى دبلن مع مقدمة بالانكليزية . ومن ملاحظة النسخة المصورة وجدت انها هي بالذات النسخة النجفية التي تحدث عنها بروكلمان ويبدو انها تسربت الى دبلن مع غيرها من نفائس تراثنا . ويلاحظ ان النسخة المذكورة ضمن مجموع يضم فصيح ثعلب ثم تمام الفصيح لابن فارس ثم مقتطفات من كتاب لحن العامة للسجستاني وكلها بخط ياقوت الرومي الحموي . و (تمام فصيح الكلام) اعاد نشره الدكتور مصطفى جواد فى بغداد سنة 1969 ضمن كتاب رسائل فى النحو واللغة ــ سلسلة كتب التراث 11 الصادرة عن وزارة الثقافة والاعلام العراقية ــ مطبعة الجمهورية ، الا انه لم يشر الى الطبعة الاولى للكتاب خلافا للامانة العلمية.

4 ــ خلق الانسان : ذكره ياقوت فى معجم الادباء 84/4 كما ذكره السيوطي فى بغية الوعاة 352/1 وطبقات المفسرين 4 وورد ذكره ايضا فى كشف الظنون عمود 722 وهدية العارفين 68/1 ومصباح السعادة 110/1 وذكره بروكلمان 267/2 باسم مقالة فى اسماء اعضاء الانسان نشره للمرة الاولى الدكتور داود الجلبي فى مجلة (لغة العرب) ــ 9 ــ بغداد 1931 (ص 110 ــ 116) ثم اعاد نشرها الدكتور فيصل دبدوب فى الجزء الثاني من المجلد الثاني والاربعين من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ــ نيسان 1967 ص 235 ــ 245 ولم يشر الدكتور فيصل الى النشرة الاولى خلافا للامانة العلمية .

5 — ذم الخطا فى الشعر : ذكره السيوطي فى بغية الوعاة 352/1 كما ذكره فى كشف الظنون 827 وهدية العارفين 68/1 ومفتاح السعادة 109/1 وبروكلمان 266/2 وقد نشر هذا الكتاب وهو رسالة فى أربع صفحات فى ذيل كتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبي للصاحب بن عباد — مطبعة المعاهد — القاهرة 1349 هـ .

6 — سيرة النبي صلى الله عليه وسلم : ورد ذكره فى معجم الأدباء 84/4 وطبقات المفسرين 4 ونسخة المخطوطة تحمل عناوين مختلفة فنسخة الاسكوريال والقاهرة تحمل اسم (مختصر سيرة رسول الله) ونسخة برلين عنوانها (مختصر فى نسب النبي ومولده ومنشئه ومبعثه) وعنوان نسخة الفاتيكان (راعي الدرر ورامق الزهر فى أخبار خير البشر) وفى هامبورغ (اخصر سيرة سيد البشر) وفى بايزيد بالاستانة (مختصر سيرة رسول الله) .

وقد طبع هذا الكتاب فى الجزائر أول مرة سنة 1301 هـ تحت عنوان (اوجز السير لخير البشر) . ثم طبع ثانية فى بومباي سنة 1311 هـ ومنه نسختان بمكتبة الاوقاف العامة فى بغداد .

7 — الصاحبي فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها : ذكر باسم (فقه اللغة) فى نزهة الالباء 321 وبغية الوعاة 352/1 وهدية العارفين 68/1 وكشف الظنون 1288 وذكر باسم (الصاحبي) فى معجم الأدباء 84/4 وكشف الظنون 1068 وهدية العارفين 68/1 وسمي بذلك لأنه صنفه برسم خزانة الصاحب بن عباد ، وذكر باسم (فقه اللغات) فى طبقات المفسرين 4 ومفتاح السعادة 109/1 ، والكتاب واحد وان اختلفت التسميات ، وقد صرح ابن فارس بذلك فى مقدمة كتابه اذ قال : هذا الكتاب — الصاحبي فى فقه اللغة العربية .. وانما عنونته بهذا الاسم لاني لما الفته أودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة الخ .... وقد صدر للمرة الاولى بعناية محب الدين الخطيب عن المكتبة السلفية بالقاهرة سنة 1910 عن نسخة الشنقيطي . ثم نشره ثانية محققا تحقيقا علميا على مخطوطتي بايزيد وأياصوفيا الدكتور مصطفى الشويمي فى بيروت — 1963 ضمن سلسلة المكتبة اللغوية العربية مطابع أ . بدران — بيروت . .

وقد حصل خلط طباعي فى مقدمة بحث الدكتور دبدوب أوهم بأن الشيات والحلي هو كتاب فقه اللغة فوجب التنبيه وعنه نقله مصطفى جواد فى مقدمته لتمام فصيح الكلام ، دون أن يتنبه لشناعة الغلط .

8 — فقيا فقيه العرب : ذكره بهذا الاسم الأنباري فى نزهة الالباء 321 والقفطي فى انباه الرواة 94/1 والسيوطي فى المزهر 622/1 وسماه ابن خلكان فى الوفيات (مسائل فى اللغة وتعاياها الفقهاء) 100/1 وسماه اليافعي فى مرآة الجنان 442/2 (مسائل فى اللغة يتعانى الفقهاء) وتوهم السيوطي فى بغية الوعاة 352/1 فظنه كتابين الأول فتاوي فقيه العرب والثاني مسائل فى اللغة يغالي بها الفقهاء . وسماه الدلجي فى

(الفلاكة والمفلكون) (مسائل فى اللغة يعايا بها الفقهاء) ص 141 ومثله فى الديباج المذهب ص 36 . وسمي (فتاوي فقيه العرب) فى هدية العارفين 68/1 ومفتـــاح السعادة 110/1 .

وقد نشره على نسخة فريدة محفوظة بدار الكتب الرضوية بمشهد فى خراسان الصديق الدكتور حسين علي محفوظ وذلك فى مجلة المجمع العلمي العربي بدمشـــق سنة 1958 كما نشر مستلا من المجلة محققا تحقيقا ممتازا جديرا بالتقدير .

9 — اللامـــات : ذكره بروكلمان 267/2 وان منه نسخة مخطوطة بالظاهرية فى دمشق وقد نشره المستشرق برجستراسي فى مجلة (اسلافيكا) 77/1 — 99 الصادرة سنة 1924 — 1925 ويشرف على هذه المجلة المستشرق فيشـــر .

10 — متخير الالفاظ — وقد ذكره ابن فارس فى آخر الجزء الثاني من (المجمل) المخطوط المحفوظ فى المكتبة العثمانية الحلبية تحت رقم 839 ونص كلامه :

« وهذا آخر مجمل اللغة فاحفظه وتدبر ترتيب أبوابه واعلم اني توخيـــت الاختصار كما أرغب وآثرت الايجاز كما سألت واقتصرت على ما صح عندي سماعا ومن كتاب صحيح النسب مشهور ولولا توخي ما لم اشكك فيه من كلام العرب لوجدت مقالا . ولكني عمدت للاصول التي اسميتها فى كتابي فجمعتها فيه بأوجز قول وأقربه ورجوت ان يكون هذا المختصر كافيا فى بابه مستعينا فى معرفة صحيح كلام العرب وما يتداوله الناس من غريب القرآن والحديث وكثير من غريب الشعر عن غيره وكل ما شذ عن كتابنا هذا من محاسن كلام العرب والالفاظ التي يستعان بها فى الأشعار والمكاتبات فقد ذكرناه فى الكتاب الذي سميناه (متخير الالفاظ) والله اسال ان يوفقنا واياك لكل صالحة ويعيذنا واياك من السوء كله » .

وقد ورد ذكر المتخير فى معجم الادباء 84/4 وفى نزهة الالباء 321 كما ذكـره الجرجاني فى كتابه كنايات الأدباء باسم مختار الالفاظ ص 145 وسنفرد لهذا الكتاب فصلا مستقلا .

11 — مجمل اللغة : ورد ذكره فى معجم الادباء 84/4 ونزهة الالباء 321 والبداية والنهاية 296/11 و 335/11 وطبقات المفسرين 4 وبغية الوعاة 352/1 ووفيات الاعيان 100/1 والفلاكة والمفلوكون 141 وشذرات الذهب 132/3 والنجوم الزاهرة 212/4 والكامل لابن الاثير 258/8 والديباج المذهب 36 وكشف الظنون 1604 وهديـــة العارفين 69/1 ومفتاح السعادة 104/1 وقد ذكر بروكلمان 265/2 مخطوطاتـــه المتناثرة فى مكتبات العالم ويمكن ان نضيف اليها مخطوطة المتحف العراقي وهي من انفس مخطوطاته ، ومخطوطة سامراء ، ومخطوطة حلب التي اشرنا اليها . وقد نشر الجزء الاول من هذا المعجم القيم لأول مرة فى القاهرة واوله كتاب الهمزة وآخره باب الدال واللام ، وقد طبع على نفقة محمد ساسي المغربي سنة 1332 هـ — 1914 م

بمطبعة السعادة وعدد صفحاته 319 صفحة . ثم اعيد طبع الجزء الاول بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد سنة 1947 بمطبعة السعادة ايضا بمصر وعدتـــه 319 صفحة ايضا . وآخره باب الدال واللام ولم تنشراجزاؤه الباقية حتى اليوم وقد علمنا ان بعض العراقيين قد نهد الى تحقيقه فعسى ان يكلل هذا الجهد بالنجاح فينفض عن هذا السفر النفيس غبار القرون وتوهم الدكتور فيصل دبدوب حين ظن ان المجمـــل بكامله مطبـــوع .

12 — مقالة كلا وما جاء منها فى كتاب الله . ذكرها ابن فارس فى كتابه الصاحبي ص 162 اذ قال ما نصه . « وكلا كلمة موضوعة لما ذكرناه على صورتها فى التنزيل وقد ذكرنـــا وجده كلا فى كتاب افردناه » . وذكرها بروكلمان 267/2 . وقد نشرها عبد العزيـــز الميمني الراجكوتي ضمن كتاب ثلاث رسائل واولها مقالة كلا لابن فارس والثانية ما تلحن فيه العوام للكسائي والثالثة رسالة الشيخ ابن عربي الى الامام الفخر الرازي ، وقد طبعت فى القاهرة سنة 1344 هـ ثم اعيد طبعها فى القاهرة سنة 1387 هـ .

13 — مقاييس اللغة : ذكره ياقوت فى معجم الادباء 84/4 والسيوطي فى طبقات المفسرين 4 وذكر فى هدية العارفين 69/1 وقد نشر هذا المعجم الجليل فى ستة اجزاء الاستاذ عبد السلام محمد هارون فى القاهرة 1366 — 1371 هـ — دار احياء الكتب العربية — عيسى البابي الحلبي وشركاه معتمدا مخطوطة مرو ومخطوطة القاهرة . ومن الكتابين مخطوطتين فى لندن .

14 — النيروز — نشره عبد السلام محمد هارون ضمن المجموعة الخامسة سلسلة نوادر المخطوطات — القاهرة — مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1373 هـ — 1954م وقد اعتمد فى نشرها نسخة فريدة فى الخزانة التيمورية بالقاهرة .

15 — رسالته الى ابي عمرو محمد بن سعيد الكاتب : وهي رسالة قيمة تعتبر نموذجا طيبا لنثره الفني وقد تضمنت دفاعا عن الحماسات المحدثة وعن محاسن شعراء عصره.اثبت منها الثعالبي فصلا مهما فى اليتيمة (401/3) راينا اثباته فى هذا الموضوع لانه من جيد آثاره المطبوعة . قال ابن فارس :

الهمك الله الرشاد واصحبك السداد ، وجنبك الخلاف ، وحبب اليك الانصاف . وسبب دعائي بهذا لك انكارك على ابي الحسن محمد بن على العجلي تاليفه كتابا فى الحماسة ، واعظامك ذلك ، ولعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريده ، ويرد المنهل الذي يؤمه ، لاستدرك من جيد الشعر ونقيه ومختاره ورضيه كثيرا مما فات المؤلف الاول ، فماذا الانكار ؟ ولمه هذا الاعتراض ؟ ومن ذا حظر على المتاخر مشاركة المتقدم ؟ ولمه تاخذ بقول من قال : ما ترك الاول للاخر شيئا ، وتدع قول الآخر . كم ترك الاول للاخر ، وهل الدنيا الا ازمان ، ولكل زمان منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الاوهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب علـــى زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ؟ ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول حتى